٣
الحرب الباردة على الكينونة العربية

التجني على الهوية



مختار الغوث

صوفيا
Sophia

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٣)

التجني على الهوية

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٣)

التجني على الهوية

مختار الغوث

Σοφία

الحرب الباردة على الكينونة العربية

(٣)

التجني على الهوية

مختار الغوث

الطبعة الثانية - 2021

ISBN 978-9921-721-40-9

صوفيا
Σοφια

الكويت - حولي - الدائري الثالث - مجمع بروميناد - ميزانين 2

البريد الإلكتروني: info.sophiakw@gmail.com

هاتف: 52224643-965+

@sophia_kwt

الفهرس

تمهيد

ويقتضينا الحديث عما قيل في التعريب التوقف عند بعض الدعاوي التي ادُّعيت على العربية لتُسقَط بها صلاحيتها للعلم، بل صلاحيتها للحياة. وهي دعاوي كان الحامل عليها قلةَ العلم بها، أو مَوْجِدةً، يجدها من يقتضي تخصصه، أو مهنته، أو منافعه، أن يكون عارفا بها، لكن استعداده الفطري قعد به عن ذلك، أو يرى أن ما ينال مِنْ تعلمها دون ما يَقضي فيه من وقت، ويَبذل من جهد، أو لا نفعَ له فيه، وأن غيرها من اللغات أجدى عليه، والعامية تبلِّغه ما يريد. هذا إلى قلة الوعي بماهية اللغة، ومكانتها من العقل والهوية، والدعاية المعادية التي قلَّبت الأمور، وكدَّرت الأمزجة، ونزعت بالخاصة إلى القناعة بالمعروف، والضن بالنفس عن التعني في تعلم المجهول، والكسل عن تطلُّب الكمال. وقد ذاعت هذه الدعاوي حتى غدت جزءا من الثقافة العربية المعاصرة، وقرَّت في النفوس قرار الحقائق؛ لما تُعرَض فيه من معارض، تنتحل العلم، وهي إنما تَلْبِس الحق بالباطل. ولم تجد مَنْ درس بعضها دراسة، تبين حقيقتها، وما تعدل في ميزان العلم. ولن نقف عند ما قُتل منها بحثا، إلا أن يكون فيه مجال للقول، يحسن بيان الرأي فيه. وإنما اعتمدنا مناقشة بعض القضايا، على قدمها، لِمَا نرى من أن الثقافة هي قائد الشعوب وسائقها، وكما تكن يكون الاستعداد للتقدم والتأخر، وأن علاج الثقافة السلبية مما يجب البدء به في كل مشروع يُبغِّي الإصلاح؛ فإن الثقافة العليلة لا تستقيم عليها حياة.

أولا- الصعوبة

شاع في هذا العصر أن العربية من أصعب اللغات، وأنها في الصعوبة أخت الصينية، واليابانية، والكورية. وهي دعوى ذات أغراض غير علمية، ككثير مما يقول الغربيون ويكتبون عن العرب، والإسلام، والمسلمين، والحضارة الإسلامية، فضلا عما يتلبَّس بها من سوء الفهم الذي يعتري ما يَكتب غير العارف، ومَن تَحول بينه وبين الفهم والإنصاف حُجُب العداوة التاريخية، وما أنبتت في العقل الظاهر والباطن من ثقافة، أورثت تحيزا، يعسر التحرر منه، وما جُبل عليه البشر من صعوبة فهْم الثقافات بمعزل عما عهدوا من ثقافتهم، وعدِّ ثقافتهم معيارا، تُحاكم إليه الثقافات، وعدِّ ما خالفها دُونًا، ولا سيما إذا كانت ثقافتهم مبنية على التعالي، واستصغار الغير، واعتقاد الفوق المطلق في نفسها وأهلها، وكان بعض ما يعوِّلون عليه من المصادر من نتاج العلاقة بين أوربة والإسلام. ثم تلقَّف هذه الدعوى مَنْ تعوَّدوا أن يتلقفوا ما يكتب الغربيون، فينتحلونه، ويطيرون به شعاعا، كأنما استباحوا كنزا من المجد، ثم ينفشونه ما أطاعتهم أقلامهم، ويلتمسون له من الشواهد ما يقرره. وقد تأثر العرب بهذه الدعوى والدعاية تأثرا شديدا؛ فغدت العربية عند بعضهم أبغض اللغات، وأجدرها بألا يُشتغَل بدراستها لاستحالة تعلمها، وقلة الحاجة إليها، وزادهم ما سوف نرى من كيد الاستعمار إياها، والحرب الضروس التي يشنُّ عليها مذ دخل بلاد العرب إلى اليوم. وكان ما قال الغربيون في العربية وصعوبتها، وتنقُّصها، وإلصاق كل ما يبغِّضها إلى الناس طرا، صورةً من صور المنهج الغربي في صناعة العدو، والاستعداء عليه، وهو منهج من دأْبه اطِّراح موازين العلم والأخلاق، وصياغة العدو على الوجه الذي يَجْمَع القلوب على بغضه، ويهيئ النفوس لما يراد به.

وما يقوله علماء اللغة أن بين لغات العالم -على تنوعها- نظاما مشتركا،

يبين عن الطبيعة الإنسانية، وخصائصها الفكرية المنطقية التي تميز الإنسان من سائر الأحياء، ويتجلى هذا النظام فيما يسمى «البنية العميقة»، فإنها تحدد المعنى المشترك بين اللغات كلها، وأن القوانين النحوية التي تحكم بناء الجمل وتراكيبها فطرية ذهنية كلية عالمية، وأن اللغات إنما تختلف في القواعد الظاهرية التي تنبثق من «البنية العميقة»[1]؛ فليس من الخطأ أن يقال إن البشر ليس لهم إلا لغة واحدة في أصلها. واعتقادُ هذا الرأي تبين عنه محاولات علم اللغة العام أن يضع قوانين، تصدُق على اللغات كلها. ومما انتهى إليه في ذلك أن نظام الأصوات في اللغات كلِّها واحد، أما ما يكون بين الشعوب من فروق، فإنما مرده إلى أحوال خاصة، أما العبارة الصرفية، ففيها كثير من التنوع، غير أن الأنواع الأساسية الثلاثة أو الأربعة التي يرجع إليها التنوع ليست على إطلاقها، وآية ذلك أنها تصير على مر التاريخ من نوع إلى آخر؛ لذلك لم يكن واحد منها كافيا لتمييز لغة من أخرى. أما المفردات، فتستند إلى قاعدة، تقول إن لكل مجموعة من الأصوات اللغوية معنى ما، وهذه القاعدة واحدة في كل مكان، ومطَّردة في كل لغة[2]. فتصنيف اللغات تصنيفا يجعل بعضها أمثل من بعض، وأكثر عقلانية، وأيسر، وأصلح للعلم، أو الأدب، وبعضها بضد ذلك، لا يصح بإطلاق، ما دامت الأصول واحدة، والفروق بينها يسيرة. وانتهى البحث اللغوي إلى أن اللغات كلها تتساوى في مقدار صعوبتها، وإنما تتباين في نواحي الصعوبة، فلكل واحدة منها وجه مختلف من الصعوبة، يقع في مواضع مختلفة من قواعدها، وليست فيها لغة أصعب من لغة بإطلاق، وإنما فيها كلِّها ما هو سهل، وما هو صعب، وأن اللغة التي تبدو سهلة في جوانب قد تكون صعبة في أُخَر، وأن صعوبة تعلم اللغات أمر إضافي (نسبي)، مردُّه إلى ما بين نظامي لغة المتعلم واللغة التي يتعلَّم من تباعد أو تقارب[3]، فالسويدية سهلة على النرويجي، والعربية سهلة على السرياني، والإسبانية سهلة على الإيطالي، غير سهلة على الإنجليزي، وإن كانت أسهل عليه مِنَ العربية والصينية، من غير

---

(١) في نحو اللغة وتراكيبها، ٥٦.

(٢) اللغة، ٢٩٦.

(٣) عند ما تموت اللغات، ٣٥٢ وما بعدها و٣٤٩، والتبعية اللغوية، ١٢، وبذور الكلام، ١٦٤، والدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٣٨.

أن يعني ذلك أن العربية والصينية صعبتان بإطلاق[1]. وليس من هذا الباب أن يتعلم المرء اللغة، وهو يتكلم بالسليقة لهجةً من لهجاتها، فإن صعوبتها عليه غير معقولة؛ لأنهما لغة واحدة، ونظامهما واحد، وإنما تختلفان في أشياء يسيرة، أكثرها صوتي، وكل ما يحتاج إليه المتعلم أن ينبَّه على نظامها، وهو يعرفه بالسليقة؛ لأنه هو نظام لهجته بعينه، ولا جديد عليه منه -إذ يتعلمه- إلا اصطلاحاتٌ ومفاهيم، يُتوسَّل بها للإبانة عنه، ليس من دأب غير المتعلِّم أن يعرفها، أما ما عدا ذلك، فيعرفه من غير وعي به، كما يعرف كل امرئ لغته وقوانينها بالسليقة، وهو لا يدري أنه يعرفها. وما يُعرَف بالسليقة لا معنى لأن يوصف بالصعوبة؛ فالصعب ما يجد فيه المتعلم عسرا ومشقة، وإنما تصعب اللغة على غير أهلها؛ لأنها تخالف ما تعودوا من لغاتهم ونظمها، وكذلك عيوب اللغات، إنما هي شيء يراه فيها غير أهلها، إذ يقيسونها إلى ما عهدوا من لغاتهم. فإذا كان الإنجليز -مثلا- يجدون صعوبة في الجمع في العربية؛ لأنه ليس كالجمع في الإنجليزية، فلا يجد فيه العرب صعوبة، وهم يعرفون جمع كل اسم بالسليقة، ويقيسون القياسي منه، ويشذون بالشاذ، من غير وعي، كما قال أحد اللغويين: الجندر كالكابوس لمن يتعلم اللغة، وهو سهل على أهلها، و«يجعل العالم مكانا أكثر حيوية»[2].

وذهب بعض المشتغلين بتعليم اللغات، وبعض المتخصصين في علم اللغة المقارن، مذهبا يخالف مذهب اللغويين في هذه القضية، فقالوا إن العربية أسهل اللغات طراً، خلافا لما أشاع الاستشراق القديم، وما يُشيع الاستغراب الجديد[3]، وإنما يخفُّ وصفها بالصعوبة على قلوب الكسالى؛ لأنه يسوِّغ جهلهم بها، وما يهوون من الإعراض عن تعلمها، ويعذرهم فيهما؛ إذ كان دأبهم ألا يَحمِلوا النفس على غير ما تهوى؛ فيبغون عِوَجًا ما يرون أن تعلُّمه يشق عليهم، أو يكلفهم ما لا تطيب به نفوسهم من الوقت والجهد، أو يعدُّون أنفسهم دون تعلمها؛ فإن ذلك أستر لقصورهم، وأعذر لهم في الجهل بها؛ فهم

---

(١) انظر: كلمات العالم، ١٩٥، وعبر منظار اللغة، ١٢٨.

(٢) عبر منظار اللغة، ٢٣٨.

(٣) انظر: اللغة العربية وسؤال الهوية، ٢٥، ولسان حضارة القرآن، ٩٧.

يريدون العربية لغة، ليست كاللغات: قليلة القواعد، مطَّردتها، ليس فيها ما يشذ، وكل مَنْ تكلَّم بها أصاب، وإن أخطأ، موجزةَ الألفاظ، مطابقة لما يعرفون من العامية مطابقة تامة، لا تزيد عنه ولا تنقص، ولِمَا شَدَوا من اللغات الأعجمية؛ لئلا تكلفهم مخالفتُهما تعلُّم ما لا يعلمون منها، فقد استفرغ القادرون منهم على التعلم ما يجدون من وقت وجهد في تعلم اللغة الأجنبية أو غيرها، فلم يبق لهم ما يتعلمون به العربية، وما بقي يضنون به عليها، أو يرونها دون أن يُبذَل فيها، فإن عرفوا المعنى وجهلوا اللفظ العربي الذي يدل عليه، استغنوا عنه بلفظ أعجمي، أو عرفوا الفكرة، ولم يعرفوا الأسلوب العربي الذي يدل عليها ركَّبوا من المفردات العربية عبارة، يحذونها على ما عرفوا من اللغة الأعجمية، فاستغنوا بها عن تعلُّم ما لا يعلمون منها، وعن مراجعةِ كتب اللغة لمعرفة ما لا يعرفون، وكان من حقهم أن يغيروا منها ما لا يخفُّ على قلوبهم، حتى يكون كما يهوون، وكلُّ ما قاد إليه الجهل بها صحيح ومقبول فيها، وليست بأكثر من قطعة صلصال، يصورونها كيف شاؤوا، وليس لأحد أن يخطِّئهم، أو يصف عملهم بما ينبغي أن يوصف به. ومِن قلْب المنطق أن تُجعَل قواعد العلم مع أهواء الجاهلين، ويُحمَل قول العالم على كل شيء إلا ما يقتضي العلم أن يحمل عليه: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن).

وجواز التصرف في اللغة مشروط بالفقه بها، فهو الذي يتيح حسن التصرف، ومعرفة ما يحسن فيها وما لا يحسن، والأمثل وما هو أمثل منه، وتمييز الأصل من الفرع، ومتى يجوز القياس، ومتى يجب العدول عنه، أما الجهل، فعقيم، والأصل ألا يصيب جاهل. وينبغي أن يُشترَط في المجتهد في اللغة ما يُشترَط في المجتهد في الفقه: فلا بد أن يكون مثقفا ثقافة لغوية وأدبية واسعة، متمكنا من النحو والصرف؛ لأنهما من وسائل إتقان اللغة، وأن يكون ذا ذوق، أرهفته كثرة القراءة في اللغة والأدب، عارفا بسرِّ الوضع[1].

ومذهب بعض العرب في هذا العصر في العربية، وما يشترطون عليها مذهب بديع، وعلاقتهم بها علاقة غريبة، تفرَّدوا بهما من دون الشعوب: يشترطون عليها ولا يعتقدون أنها فرض، بسهلها وصعبها، وشاذها ومقيسها، ويسيرها والعسير،

---

(١) مدرسة القياس في اللغة، ٣٥٨.

ولا خيار للمرء فيها إلا أن يتكيف معها. ويطمعون أن يُقبَل منهم أن يفصِّلوها على ضعفهم وكسلهم، كما يفصِّلون الثياب على أبدانهم، ويجعلون ذلك شرطا للرضا بها، وإلا تبدَّلوا بها، وإن لم يكن غيرها خيرا منها، ولا أسهل، ولا أسلم مما يأخذون عليها. مع أن بعض ما يُخِصُّون فيه من العلوم أصعب منها بكثير، غير أنهم يأبون حَمْل النفس على بعض ما تكره من تعلُّم ما لا يعلمون، وإن لم يكن صعبا، وهم «مثقفون»، وأساتيذ جامعيون. وهي سمة من سمات العامة: يرسلون النفس على السجية، ولا يحملونها على تعلم ما لا تعلم إلا أن يُكرَهوا عليه إكراها. وهو أمر يدل على أزمة وعي وثقافة، مُنِي بها الملأ من العرب في هذا العصر. ووجدوا من يحطب في حبلهم، ويسارع في هواهم من اللغويين الذين نصبوا أنفسهم للاحتجاج لكل خطأ، يأتيه مَن لا يعلم، كما يفعل بعض الفقهاء في كل مخالفة، يأتيها من لا يبالي الشرع. وقد أتى هؤلاء وأولئك أخطاء كبيرة في حق الإسلام والعربية، أما الفقهاء، فحالوا بين المسلمين وبعض ما أراد الله بهم من خير، وما رغب بهم عنه من ضرٍّ، إذ فرض عليهم ما فرض، وحرَّم ما حرم، إرادةً منهم للتأليف والتيسير، وتحاميا للعنت والتنفير، وبنوا ما فعلوا على أقوال شاذة، واجتهادات ضعيفة، ولو لم يسوغوا للمخالفين ما فعلوا، واقتصرت الفتوى على ردهم إلى حكم الشرع، لكان خيرا لهم وأقوم، وأعون على ضبط النفس، ولجم الهوى. فترى بعضهم يلتمس ما في وسعه من الحجج لرفع الحرمة عن التبغ، ويتعامى عما فيه من ضرر، كثيرا ما ينتهي بمتعاطيه إلى الموت، ويرى أن في عدم تحريمه من التيسير ما قد يستميل متعاطيه، ويرفع عنه الحرج والشعور بالذنب، كما أن فيه إظهارا لسعة الإسلام وسماحته، إذ يجعل الأصل في الأشياء الحل. وتحريمه أدل على سماحة الإسلام وعظمته، وأنه أعلم من الخلق بمصالحهم، ولا يحرِّم عليهم ما يحرم تضييقا، أو إعناتا، وإنما دفعا للضر؛ لأن الله الذي شرع الإسلام يعلم من أمر ما حرَّم ما لا يعلم البشر. وكذلك فعل المتساهلون من اللغويين، جعلوا همهم أن يصححوا ما يقال، مع أن جل مَن يقولونه لا علم لهم باللغة، وإنما يتكلمون كيفما اتفق، فالأصل ألا يصيبوا إلا فيما وافق العامية. فكان عاقبة ذلك أن صيروا العربية الحديثة لغة ركيكة، ليس فيها دقة الفصحى، ولا جمالها وإشراقها، واقتدارها

على البيان، ولا ما فيها من الروعة والجلال اللذين يعرفهما من يعرف أدب المقتدرين من الأدباء قديما وحديثا. ومن المخالف لحقيقة العلم أن يكون لكل ما قال الجاهلون بالعربية وجه، وإن ضعف. وقد فتحوا بذلك على العربية من أبواب الفساد ما جعلها لغة عائمة، ليس لها حد تعرف به، ولا نهاية تنتهي إليها، ولا قاعدة مطردة، لا تنخرم. وإنما فعلوا ذلك من أجل تسويغ ما يأتي الجاهلون بها جهلا بسيطا أو مركبا، والمتعالون الذين يأنفون من تعلمها، ويرونها دون أن يبذل في تعلمها من الجهد ما يبذل في تعلم لغة من اللغات الأجنبية. ولو أنهم نظروا إلى القضية بعين الحكمة لعدلوا عما فعلوا إلى تخطئة المخطئ، وأبوا غير الصحيح من قواعد اللغة؛ فحفظوا على العربية قواعدها مصونة مطردة، ويسروا تعلمها على من أراده.

وإذا كان كل واقع يقتضي معاملة بعينها، فإن المعاملة التي يقتضيها ما يريد الكسالى، من اضطراب، وإبطال للقواعد، وتعدٍّ للحدود، هي التشدد فيها حتى يفيئوا إلى القصْد، لا التساهلُ ومسايرة أهواء الكسالى والعاجزين، كما تشدَّد الألمان في لغتهم منذ حملات نابليون بونابرت في بداية القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، خوفا أن تبتلعها الفرنسية وتفسدها؛ لِمَا رأوا من إقبال الألمان على تعلمها، وهيامهم بها وبآدابها، وثنائهم عليها، وازدرائهم للألمانية، ودعوة بعضهم إلى حذو بعضها عليها[1]. فذلك هو الموافق للعقل وروح الشرع، كما قال الإمام الغزالي: «من أسرار حكمة الشريعة أن كل ما يَطلب الطبعُ فيه الطرفَ الأقصى، وكان فيه فساد، جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه، على وجه، يومئ عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالِم يدرك أن المقصودَ الوسطُ؛ لأن الطبع إذا طلب غاية الشِّبَع، فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثا، والشرع مانعا، فيتقاوَمان، ويحصل الاعتدال»[2]، وقال الشاطبي: «إذا نظرت في كلية شرعية، فتأملها، تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهةِ طرفٍ من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع، أو متوقَّع في الطرف الآخر. فطرَف التشديد

---

(١) هل الألمانية خليط لغوي؟.

(٢) إحياء علوم الدين، ٥/ ٣٤٥، والموافقات، ٢/ ٤٦٧ وما بعدها.

... يُؤتَى به في مقابلة مَنْ غَلَب عليه الانحلال في الدين، وطرَف التخفيف ... يؤتَى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد»[1]. ومن التمس المخارج لأخطاء مَنْ لا يعلم، أعان على مسخ اللغة، وأن تَؤُول إلى ما تؤول إليه النصوص التي يتعبث بها أصحاب المذاهب القرائية في النقد الحديث: تُحمَل على كل وجه يخطر لـ«الناقد»، وإن لم يكن له وجه؛ لأنه لا يفيء إلى علم، يعصمه، ويسدِّد عليه معادل الطريق، ويهديه قصد السبيل، وإنما يميل حيث مال به الهوى، وطحا الخيال.

وكانت الدعاية المعادية للعربية، الجادة في تبغيضها إلى الناس من القوة والانتشار بحيث ذاعت على كل لسان، وصدَّقها أكثر من سمعها، حتى صاروا يحكمون -على السماع- بأنها صعبة، ويجعلون صعوبتها على أهلها كصعوبتها على غيرهم، بل يحكم بعض أهلها بصعوبتها عليهم لأنها صعبة على غيرهم، فإذا سمع أحدهم قول المنصِّر الأمريكي، زويمر: إنني أستحبُّ أن أقطع إفريقية كلها ماشيا من الإسكندرية إلى رأس الرجاء الصالح على أن أعود إلى تعلُّم العربية[2]، وقول كايلا باركر، دارسة الأديان بجامعة جورج واشنطن، إنها تتعلم العربية منذ ثلاث سنين، وتحتاج إلى ستين سنة أخرى، أو أكثر؛ لتتكلمها بطلاقة، وقول آخر إنها متاهة من أصناف الغموض، وتكاد تخلو من كل معنى حرفي، وليس فيها إلا إيماءات رمزية، فحسب[3] - خُيِّل إليه أنها لغة ثقيلة، وأن تعلُّمها غايةٌ في الصعوبة، وصعوبتها على العرب كصعوبتها على أولئك؛ لأنها صعوبة مطلقة، وليست بإضافية. وربما سوغ بذلك العزوف عن تعلمها، وقوَّى عزمه وعزم غيره عليه أن ليست بابا إلى الرزق، كالإنجليزية والفرنسية؛ فكل عناء في تعلُّمها هدر، كأنما صادفت تلك الدعاية هوى في نفسه، فأخذ يرددها تسويغا لعجزه وكسله.

وأكثر ما يشكو العرب -اليوم- من العربية الإعراب، حتى ليرى بعضهم إلغاءه. وليس الإعراب مما تنفرد بها العربية، وإنما هو ظاهرة في لغات حية

---

(١) الموافقات، ٢/ ٤٦٧ وما بعدها.

(٢) نفي أوهام الأوربيين في صعوبة تعلم اللغة العربية، ٤٨٤.

(٣) محاسن العربية في المرآة الغربية، ١٣.

كثيرة، وإن لم يكن إعرابها كإعراب العربية، وفي بعضها منه ما هو أصعب من إعراب العربية بكثير، كإعراب الألمانية[1]، فإن الأسماء فيها تنقسم اعتباطا إلى مذكر ومؤنث، وجنس ثالث يسمَّى المحايد، لا نظير له في العربية، وتضع لكل واحد من هذه الأجناس الثلاثة أربع حالات إعرابية، هي: الفاعلية، والمفعولية، والإضافة، والقابلية، ولا نظير للقابلية في العربية. والمفرد المنكَّر له أربع حالات أخرى، وكذلك الجمع المعرَّف، والجمع المنكَّر. ولا يُكتفَى فيها بإعراب آخر الكلمة، كما في العربية، بل تعرب أداة التعريف أيضا، أي إن فيها إعرابا من موضعين[2]، فأداة التعريف، تكون مذكرة، ومؤنثة، ومحايدة، وبالإفراد، والجمع، وبحالات الفاعلية، والمفعولية، وغيرهما من الموجبات الإعرابية، نحو: das، die، der، dem، den، des، وهذه الصيغ، وسائر الحالات الإعرابية تقوم مقامها في العربية أداة واحدة، هي «أل»[3]. ولا تقلُّ الحالات الإعرابية في الفنلندية عن خمس عشرة، وهي خَمْس في اللاتينية، وستٌّ في الروسية، وليس في العربية إلا أربع[4]، وفي «لغات أوسترالية أنظمة إعرابية قوية ومعقدة»[5]. وإذا أردت أن تحسن قراءة الروسية، فلا بد لك من معرفة محل النبرة في كل كلمة منها، وهي لا تستقر على حال في الكلمات الجامدة المختلفة، بل في الكلمات المشتقة من الكلمة الواحدة بعينها، ولا ترسم في الكلمات ألبتة، وإنما تعرف بالسماع والتلقين في كل كلمة وصيغة، وهو عناء أشق من معرفة حركات الكلمات العربية، وصيغ اشتقاقها وأوزانها[6]

وليس إجراء الإعراب (تحليل الكلام) في العربية مقصورا على بيان ما ينتهي به الكلم من علامات، وإنما هو تحليل لوظائف الكلم في الجملة، وبيان للعلائق بينه، كعلاقة المبتدأ بالخبر، والفعل بالفاعل ونائب الفاعل، والفعل والفاعل بالمفاعيل، والحال بعاملها وصاحبها، وعلاقة التمييز بالمميز، والصفة

---

(١) مقدمات العلوم والمناهج، ٧٩.

(٢) بحوث ومقالات في اللغة، ١٦٦ وما بعدها.

(٣) التعريب ووسائل تحقيقه، ١١٣.

(٤) العربية تواجه التحديات.

(٥) حوار اللغة، ١٠٣.

(٦) نفي أوهام الأوربيين في صعوبة تعلم اللغة العربية، ٤٨٦ وما بعدها.

بالموصوف، إلخ. أي إنه تحليل للعبارة، يبين العلاقاتِ الدلاليَة والتركيبية الجامعة بين المعاني المعجمية لألفاظ الجملة. وإذا كان الإعراب يدرَّس اليوم تدريسا لا يبين عن ذلك، ولا يعين على فهم معنى الكلم، فإنما ذلك من عيب في طرق التدريس، وعزلِ التعليم عن غاياته، حتى صار عملا شكليا، منزوع الروح، وليست له غاية يدركها الطالب، وليس عيبا في أصل الإعراب، ولا خطأ فيما ينبغي من تعليمه. على أن صعوبة النحو -إن فرضت صعوبته- ليست مما يسوِّغ اطِّراحه، والتبدل باللغة، فالحضارة الإنسانية لم تُبْنَ إلا بالتعب، ولم تُبْنَ بمنطق الكسالى والمتهاونين. فالرياضيات -مثلا- مصدر شكوى ملايين الطلاب في العالم، لصعوبتها البالغة، ولكن صعوبتها لم تكن يوما مدعاة لتركها، أو الاستعاضة عنها بتوزيع الحاسبات على الطلاب. والدرس النحوي هو رياضيات اللغة، ولذلك قرَّ في أذهان الناس أنه صعب، وبعيد المنال، ومنفصل عن حياتهم، ولا يزاوله إلا طائفة من الأشباح، هم النحاة. ويعتقد الملايين أنهم مخفقون فيه، أو نسوه، أو ينكرون أنهم قد عرفوه ألبتة[1].

ولو قُدِّر أن تترجم الكتب التي تتحدث عن اللغات الغربية وصعوبتها، وتبيِّن عيوبها، ولا سيما الإنجليزية والفرنسية، لتبين من صعوبتها وتقصيرها عن العربية ما يزهِّد في تعلمها، ويُرِي أنْ ليست كما يدَّعي من يسبغون عليها من المديح ما ليست أهلا له، لكن بعض التراجمة إنما يترجمون ما يهوون، ويُنْزِلون أنفسهم مما يترجمون منزلة المريد الذي يعتمد إطلاع الناس على علم شيخه، فلا يذكره إلا بالتقريظ والثناء، وما يدل على التسليم له، ويتجنب إيراد ما يقول فيه مخالفوه. ومنهم من يُنزِل نفسه من الغرب وحضارته منزلة الوكيل الذي يسوِّق بضاعة موكِّله، ولا يَذْكُرها إلا بأحسن ما علِمَ منها، وقد يذكرها بما لا يعلم فيها؛ لأنه إنما يريد تنفيقها، وليس بمحايد كما لا يكون التاجر محايدا في تسويق بضاعته؛ فيخيَّل إلى الذين لا يعرفون اللغات الأجنبية أن ما يُتَرْجَم مسلماتٌ، وأنْ لا مخالف له، وإن كانت المعرفة بطبيعة العلم تبعِّد وقوع التوافق المطلق في الآراء والمذاهب النظرية، وإن كان ذلك لا يدفع عن العارف ما يوقعه فيه عدم ترجمة الرأي الآخر دفعا تاما، وإنما يخامره الظن

---

(١) العربية تواجه التحديات.

أن مخالفيه ربما كانوا من القلة بحيث لا يعاج على رأيهم، وأن ما يقولون من الضعف بحيث لا يستحق أن يترجم. وهذا مما يحول بين العرب ومعرفة الوجه الآخر من القضايا، وقد يحمل القارئَ على أن يرى فيها ما يرى المترجم، بسبب ما حَجَب عنه من آراء المخالفين فيها، ولو أطلعه عليها، لكان أدعى إلى فقهها، والانتفاع بها على الوجه الصحيح، وأعانه على أن يكون له فيها رأي غير الذي يرى. من أجل ذلك كان عمل المترجمين أشبه بالدعاية منه بالتثقيف، وتفتيح أبواب المعرفة لمحبيها، ليَقِفُوا منها على ما أرادوا، وما ينبغي أن يقفوا عليه. وكان ذلك -لو أُتيح- أدعى إلى التنوير، والعون على الاستقلال، بدلا من الاستهلاك، والمتابعة على غير بصيرة. ويُخرِج الأمرَ من التلميح، والرأي الضمني إلى التصريح، أن يتواطأَ التراجمة والدارسون في الحقبة من الزمن على ترجمة كتب فئة من الغربيين ودراستها، وموالاتها، والذب عنها والدعوة إليها صراحة أو ضمنا، والتوسع في الدراسات التي تطبقها، والإعراض عن غيرها، كأن لا وجود له، كما يُفْعَل بكتب نعوم شومسكي، وميشيل فوكو، وورولان بارت، وجوليا كريستفيا، وجاك دريدا، وإمبرتو إيكو، إلخ. ولولا أننا ربما وقعنا على نزر من الكتب، يترجَم على استحياء، يرى مؤلفوه غير الذي يرى أصحاب بعض النظريات، ككتاب «بؤس البنيوية»، وبعض الإشارات التي ترد في ثنايا بعض الكتب المترجمة[1] -ما حسبنا إلا أن ما نفهم من الإعراض عن الوجه الآخر من القضية هو ما يقتضيه ما انتهى إليه البحث العلمي، وثِقَلُ المترجَم في ميزان العلم، وخفة ما عداه. وهذا إلى الاستتباع أدنى منه إلى التعليم والتبصير اللذين يعينان على النقد والرشد، ورؤية الأشياء بالعين التي يجب أن تُرَى بها. ومن دأب المريد أن يسلِّم للشيخ، وألا يرى غيره في الوجود، ويجعله بابه إلى الله دون غيره من الخلق، ويسلِّم له ما يقول من غير نظر ولا تردد، ويكون وُكْده أن يدعو له، ويدلَّ على مذهبه وآرائه. وربما كان من أسباب هذا أن الغالب على الترجمة في الوطن العربي أن تكون ترجمة أفراد، والهوى في عمل الأفراد أظهر منه في عمل المؤسسات؛ من أجل ذلك كان المترجِم إنما يترجم ما هو له أفهم، وإلى رأيه أقرب، ويُعرِض عما لا يرى؛ إذ ليس ملزَما أن يترجم الشيءَ ومخالفَه؛

---

(١) انظر: فلسفة اللغة، ٥٨.

إذ كانا غير متساويين عنده في قيمتهما العلمية. هذا إلى أن في الترجمة جانبا آخر هو الجانب النفعي، وسواء أكان المترجِم فردا أم كان دار نشْر، فإن معيار التخير في الترجمة هو النفع المادي، ولا يكون المترجَم أنفع إلا إذا راج، وأقبل عليه الناس، ولا يروج أو يُغَضَّ الطرفُ عن الوجه الآخر، ولا يُذكر المترجَم إلا بأحسن ما فيه. وإن كانت الترجمة الفردية كثيرا ما يتولاها أكاديمون، وتكون غايتها المعلنة التثقيفَ والتنوير، ليس إلا، وذلك هو الأصل، وهو جدير بأن يَجعل الترجمة أنزه، وأكثر علمية، وأبعد من التحيز، غير أن أكاديمية المترجِم لم تخلِّص من الهوى، فأكثرُ ما يترجِم الأكاديميون مبين عن هواهم العلمي وتوجههم الفكري، وليس فيه ما يُرجَى من التبصير، والعون على الاطلاع على المعرفة بحياد، فهو بالدعاية للمذهب والفكر أشبه منه بالدعاية للعلم ونشره، وما يترتب على ذلك من العون على النضج والاستقلال، وهو الطور الذي يبدأ عنده التحول من التلقي إلى الإبداع. وهذا من أسباب أننا قلَّما نجد كتبا، أو بحوثا مترجمة، تعرض آراء الغربيين في لغاتهم، وما يرون فيها من عيوب.

وقد أتيح لي -بعد طُولِ تسقُّط- أن ألتقط من مآخذ الغربيين على لغاتهم ما يدل على بعْدها مما يَنْسِب إليها المتيمون بها من الكمال، وما يُظَنُّ من رضا أهلها عنها. ففي اللغات الغربية والشرقية ما هو أصعب، وأكثر عيوبا من العربية، إن فرض فرضا أن بها من الصعوبة والعيوب ما أُلْصِق بها، ومع ذلك لم يهملها أهلها، ولا فكروا في التبدل بها، بل ولا في العدول عن فصحاها إلى عاميتها التماسا للسهولة، وتخلصا من الصعوبة، واطراحا لأسباب العيب. ففي رسم الإنجليزية -مثلا- من الصعوبة، والاعتباط، وقلة القواعد المعينة على معرفته ما ضجَّ منه الإنجليز، وقالوا إنه أغرب رسم في العالم وأعقده، وأكثره إثارة للحنق، ويمتلئ بالشذوذ، ومن العسير أن يجد المرء فيه قاعدة، ولو ضعيفة، أو غير مطردة، يمكن الاسترشاد بها، وليس فيه حرفٌ يُنطق نطقا واحدا، ولا صوت له رسم واحد، حتى الحروف التي يُظن أن نطقها لا يتغير. ولذلك قال جورج برنارد شو: إن الإنجليز لا يحترمون لغتهم، ولن يعلِّموا أبناءهم كيف يتكلمون بها، ولا يمكنهم أن يتهجَّوها؛ فليس عندهم ما يعينهم على تهجيها غير أبجدية قديمة غريبة، حروفها الساكنة فقط ليس لها نطق متفق عليه، ومن

المستحيل أن يتكلم إنجليزي من غير أن يستخفَّ به آخر، أو يحتقره، ومعظم اللغات الأوربية مقبولة عند الأجانب، إلا الإنجليزية والفرنسية، فليستا مقبولتين عند أحد، حتى الإنجليز والفرنسيين[1]، ويمكن الأجنبيَّ أن يتعلم نطق الألمانية والإسبانية، ولا يمكن أحدا أن يتعلم نطق الإنجليزية السليم، حتى الإنجليز[2]. وقال على لسان واحد من أشخاص «بيجماليون»: هل يمكنكِ أن تريني امرأة إنجليزية، أيَّ امرأة، تتكلم بالإنجليزية كما ينبغي أن تُتكلَّم؟ وإنما يتكلم بها الأجانب الذين تعلموها على متخصصين[3]. وأثبت كثير من الاستطلاعات والدراسات أن كتابة الإنجليزية معقدة جدا، وتستغرق كثيرا من الوقت والجهد، وأبان بعض الدراسات التطبيقية أن صعوبة كتابتها تؤثِّر في سرعة القراءة وفهْم المقروء، وأثبتت دراسات أخرى أن الطفل الإنجليزي يحتاج إلى عامين أكثر من أطفال ألمانية وفرنسة لإتقان الكتابة الإنجليزية[4]. وقال أحد نصارى العرب إن على من أراد أن يتعلم اللغات الأوربية أن يتعلم قراءتها كلمة كلمة، بعد أن يتعلم كتابتها، وأسوؤها في ذلك الفرنسية والإنجليزية، فإن رسمهما كأنه «اختراع صبيان»[5]. وقال جان جاك روسو إن رسم الإنجليزية يقتضي أن تُتَعلَّم مرتين: مرة تُتَعلم قراءتها، ومرة يُتعلَّم نطقها. ولو أن إنجليزيا قرأ نصا، فتابع غيرُه ما يقرأ في كتاب، ما وجد علاقة بين ما يسمع وما يرى في الكتاب؛ وسبب ذلك أن إنجلترة تعاقبت على احتلالها شعوب شتى، فأبقت على رسم الكلمات كما وجدته من غير تغيير، وإنما تغيَّرَ نطقها[6]. أي إن الرسم الإنجليزي حافظ على الرسم الذي كان يصوِّر نطقا قديما، تغير الآن كثيرا. وهي حال الرسم الفرنسي أيضا، وربما حال كل رسم، يختلف مكتوبه عن منطوقه. ويتألف النظام الصوتي الإنجليزي من أربعين وحدة صوتية، والرموز الكتابية المستعملة فيه أقل من ذلك بكثير، ولذلك كان -كما قال أحدهم- سيئا مثيرا في تمثيله المكتوبَ[7].

---

(١) لماذا تتغير اللغات، ٢٢٦، وبيجماليون، ٧.

(٢) اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٢٥٥.

(٣) بيجماليون، ٢٢٢.

(٤) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ١٦٢ وما بعدها.

(٥) كتاب التمرنة في الأصول النحوية، ٢/ ١٤.

(٦) محاولة في أصل اللغات، ٥٠ وما بعدها.

(٧) اللغة والاقتصاد، ٢٩٩.

وقد أوصى برنارد شو لَمَّا حضره الموت عام ١٩٥٠ بربع مليون من تركته لإصلاح الهجاء الإنجليزي[١]. وهو دليل على استيائه منه، ورغبته في تغييره.

أما إنجليزية أمريكة، فقال فيها ريتشارد ليدرر: لقد أحزنَ حالُ نطق اللغة في الولايات المتحدة محبيها مذ زمن بعيد، فالمتكلمون الذين ابتُلوا بالآذان المرهفة يشتكون -وهم بين الأسى والغضب- من النطق غير المبين في مثل: guvmint بدلا من government، وassessories، بدلا من accessories، وإنه ليُساء إلينا بمثل هذا الكسل حيثما يَمَّمْنا[٢]. وقال ستيفن بنكر إن معظم المثقفين يعرفون أن الإنجليزية حمقاء، ومجافية للمنطق، ويمكن -أحيانا- أن يكون الربط المتعجل فيها بين الصوت والمعنى عجيبا، كما قال رتشارد ليدرر في مقالته «English is a crazy language» (الإنجليزية لغة حمقاء)[٣]، فهي تقول -مثلا-: Hamburger، وليس فيه لحم خنزير، وتقول: sweetbreads، وليس فيه خبز، وتقول: cranberries (التوت البري) وليس في الإنجليزية كلمة cran[٤]. وقد ملأ رتشارد مقالته هذه بالسخرية من الإنجليزية، وما فيها من كلمات لا يصدُق لفظها على معناها، كقوله إن blackbird (الشحرور) بنِّيٌّ، وليس بأسود، كما هو مقتضى هذه التسمية، وإن blackboard (السبورة) قد تكون خضراء أو زرقاء، ومنطوق الكلمة يدل على أنها سوداء فقط، وتُسمِّي التوت blackberries، مع أنه قد يكون أخضر، أو أحمر، قبل أن ينضج. وإذا سلِّمَ بأن blackberries توت أسود، وblueberries، توت أزرق، فما معنى strawberries، (الفراولة)، وإنما straw القش؟ وما معنى elder في elderberries (ثمر الخَمَان) ولا معنى لكلمة huckel في huckleberries (نوع من أنواع التوت الأزرق)؛ لأن huckel تعني الفخذ، وraspberries تعني التوت الأحمر، ولا معنى لـ rasp فيه؛ لأنها تعني المِبْرَد. وboysenberries تعني التوت الأحمر الذي يضرب إلى السواد، وليس في الإنجليزية كلمة boysen، وmulberries نوع من أنواع التوت أيضا، وليس في الإنجليزية كلمة mul. وgrapefruit (البرتقال الهندي) مؤلف من كلمتين،

---

(١) برنارد شو، ١٣٩.
(٢) الغريزة اللغوية، ٢٣٠.
(٣) السابق، ٢٤.
(٤) السابق، ١٠٦.

إحداها grape، وتعني العنب، وfruit، وتعني الفاكهة، ولا عنب في grapefruit. وwormwood، نبات، ولا معنى لـ wood فيه؛ لأنها تعني الخشب، ولا لـ worm؛ لأنها تعني دودة، ولا دودة هنالك ولا خشب، إلخ[1].

والإنجليزية خلْق من اللغات غير متجانس، أشبه ما يكون بمرقَّعة الدراويش، لا تكاد تطَّرد فيها قاعدة، ولا تحتكم إلى قانون غير السماع، فليس لها ميزان صرفي يجمع متفرقها، ويعين على التمييز بين صيغها، فالاسم والفعل والحرف قد تتشابه في هيئتها، وتختلف في معانيها. والاشتقاق فيها قليل، وليست له قاعدة، وقد يأتي الفعل الماضي مطابقا للفعل المضارع، مع عدم إمكان اشتقاق صيغ أخرى منه ألبتة. وبعض ما له قاعدة قد يكون أقل مما يشذ عن القاعدة، كالأفعال الشاذة، وهي التي لا ينتهي ماضيها واسم المفعول منها بـ d، أو ed، فـ ٢٢٣ فعل من ٣٦٤، هي أكثرها شيوعا في الإنجليزية، شاذة، وغيرها، وهو الأقل، هو القياسي. والأفعال «القياسية» ليست لها صيغ ثابتة، ولا يجمع بينها إلا أنها تختم بـ d أو ed، أحيانا، وماضي الفعل go هو went، ولا علاقة بينهما، من جهة الاشتقاق، فكل منهما من مادة، واسم المفعول منه gone، ويأتي المضارع والماضي واسم المفعول من الفعل على صيغة واحدة، مثل put، وhit[2]. وتأتي تصاريف الصفة من مواد شتى، كتصاريف good، فيقال فيها: better، وbest، وbad، فيقال فيها worse وworst. وتأتي صيغة ماضي الفعل من لغة، وصيغة الحاضر من لغة أخرى، والفاعل منهما من لغة ثالثة، وهكذا تسدُّ الطرق إلى استعمال القياس والعقل، بل والذوق السليم. وليس لمن يريد دراستها إلا أن يهيئ نفسه لأن يدرس نظم لغات شتى في لغة واحدة، وليس في حاجة إلى أن يستعمل المنطق أو العقل أو القياس[3]. أما نحوها وصرفها، فالطالب مضطر إلى حفظ مئات الأفعال الشاذة في التصريف، بين المضارع، والماضي، واسم المفعول، وحفظ مئات الأسماء لشذوذها عن قواعد الجمع، ومئات الصفات والظروف؛ لأنها لا تجري على قاعدة مطردة في اشتقاق الصفة والظرف من

---

(١) English Is A Crazy Language، 119.

(٢) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ٢١٢.

(٣) السابق، ١٠٣

الاسم، أو من الفعل، أو من صفة أخرى. ولا حيلة له في التفريق بين صيغ الكلمات المنقولة إلى الإنجليزية من اللاتينية، أو اليونانية، أو السكسونية، أو من سائر اللغات القديمة والحديثة، والغربية والشرقية؛ فإن طريقة الإنجليز في تنجيل الأعلام (جعلها إنجليزية)، والكلمات أصعب من طريقة العرب في التعريب[١].

ومما ذمَّ به الإنجليز لغتهم أيضا أنها تزخر أكثر من غيرها من اللغات بثروة فريدة من الكلمات ذات المقطع الواحد، هي مصدر «خزيها» الأوحد، والكتب المكتوبة بها تشبه صناديق أصحاب المتاجر التي لا تحتوي إلا على عملات زهيدة من فئة نصف بنس، وثلاثة فرذنجات، وبنسين[٢]، وأنها من اللغات النادرة في العالم التي تستعمل ضميراً واحداً للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث، هو you. وفيها حالات عدة، يختلف فيها لفظ الاسم والنسبة إليه، فيكون كل منهما من مادة، نحو: Earthquake (زلزال)، وseismic (زلزالي)، وChurch (كنيسة)، وecclesiastical (كنسي)، وLung (رئة)، وpulmonary (رئوي)[٣]. وقريب من هذا أنه يقال للأخ في الفرنسية: frère، وللأخت soeur، ولا علاقة بين الكلمتين[٤]، ويدل عليهما في العربية بكلمتين من مادة واحدة، الفرق بينهما علامة التأنيث. ومن عيوب الإنجليزية وضيق عطنها أن معظم الأسماء فيها يمكن استعمالها أفعالا، من غير تغيير، وإنما يحدد ما يراد منها السياق الذي ترد فيه، مثل: bomb، book، frown، hammer، smoke، nail، water، google، touch، contract، view، bomb، ويمكن كلمة مثل fire أن تكون اسما وفعلا دون فرق، بل يمكن أيضا أن تكون صفة، نحو: put a fire in my room (ضع نارا في حجرتي)، a fire fly (ذبابة نارية)، وso easy، O people fire (أيها الشعب السهل إشعاله)[٥]. ولفظ الفعل المضارع وفعل الأمر واحد أبدا، ولا يفرق بينهما إلا السياق. وقد يكون لفظ الفعل الماضي، والمضارع، والأمر، واسم المفعول واحدا.

---

(١) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ٥٣.

(٢) اللغة والاقتصاد، ٦ وما بعدها.

(٣) العربية تواجه التحديات.

(٤) العدوان على العربية عدوان على لأسلام، ٥٠.

(٥) اللغة، ١٦١، ومنزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ٢١٢ وما بعدها.

وبدأ تخلُّق الإنجليزية في وسط جزائر بريطانية وجنوبيها من أخلاط شتى من اللغات واللهجات في منتصف القرن الخامس الميلادي مع قدوم ثلاث قبائل جرمانية من الدانمرك وشمالي ألمانية، هي الساكسون، والأنجل، والجوت، فوجدت قبائل بدائية، تتكلم السلتية، هي أهل تلك البلاد الأصليون، فأخرجوهم إلى شماليها وغربيها، فسكنوا في أسكتلندة، وويلز، واستعبدوا من بقي منهم، وسخَّروهم في الفلاحة، والرعي، وأقاموا دويلات، لكل منها لغة أو لهجة، هي أصل الإنجليزية القديمة، هي: لهجة شمالي أمبرية، في شمالي إنجلترة، والميرسية في الوسط، والساكسونية في الجنوب، والكنتية في الجنوب الغربي. وفي القرن التاسع غزت البلادَ طائفة من قبائل الفايكنج الجرمانية، قادمة من إسكندنافية والدانمرك، فغلبت على الجزائر البريطانية، وأخضعت معظمها لملك الدانمرك، فكان لها أثر كبير في الإنجليزية القديمة، ولا سيما نحوها وصرفها، فقد حذفوا من الأفعال علامات التأنيث، ومن الفاعل والمفعول علامات الإعراب، فصارت اللغة مؤلفة من لهجات عامية، تعتمد في تراكيبها على الترتيب، فالاسم المذكور أولا هو الفاعل، والذي يليه هو المفعول، وزال التطابق بين الصفة والموصوف في التذكير والتأنيث، والإفراد والجمع، ولزمت الصفة صيغة الإفراد، وبقي ذلك في الإنجليزية إلى اليوم. ثم تأثرت باللاتينية واليونانية بعد أن تنصَّرَت ممالكها الناشئة، فدخلت فيها مفردات وعبارات دينية من اللاتينية واليونانية، لم تكن معروفة عند القبائل الجرمانية الوثنية، واستمر التمازج بين هذه اللغات قرونا عدة، وكان لكل منها آثاره القوية في نظام الإنجليزية القديمة، وظلت هذه اللغة مستعملة إلى القرن الحادي عشر، ثم غزا النورمنديون بريطانية، فتغيرت الإنجليزية تغيرا شديدا، غدت معه خلقا آخر، وعُدَّت الإنجليزية القديمة في عداد اللغات الميتة، وظهر ما يسمى الإنجليزية الوسيطة، وقد طرأ عليها تغير كثير، فأصبح أكثر من ٥٠ ٪ من مفرداتها فرنسيا، وفقدت علامات الإعراب، والتطابق في الجنس بين الفعل والفاعل، وقلَّت الصيغ الصرفية، واعتمدت كثيرا على الاقتراض من اللغات الأخرى[١]. فالإنجليزية -إذن- خليط من لغات شتى غير متجانس، وليست لغة

(١) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ٨٣ - ٨٧.

واحدة، وهذا مما جرَّ عليها بعض ما يؤخذ عليها.

ويَنسِب العارفون بالفرنسية الفرنسيةَ إلى الصعوبة، ويقولون إن فيها متاهات وعواصف نحوية وإملائية، الشذوذ فيها أكثر من القواعد المطردة. وصعوبتها سبب عزوف كثير من التلامذة الأوروبيين عن تعلمها، وتفضيل الإنجليزية والإسبانية عليها[1]. ويُشتكى منها نقص في المعجم، وتعقيد في النحو[2]. هذا إلى أن الفرنسي لا يجيد الفرنسية حتى يعرف اللاتينية واليونانية اللتين اشتُقَّ منهما أكثر كلماتها[3]. ويقولون إن الطاعنين في العربية من المتعصبين للثقافة الفرنسية لا يعرف أكثرهم الصيغ الأربعين لفعل الكينونة الفرنسي (être)، والصيغ الأربعين المختلفة لفعل الملكية (Avoir)[4]. وفيها من الحروف الصامتة ما يرهق العقل، ويضني المتعلم، فرنسيا كان أو أجنبيا، وفي كل واحدة من صيغ الأفعال الفرنسية الثماني حروف حية، قد تبلغ الستة، تكتب ولا تنطق، أما الحروف الساكنة، فتتبع مثنى وثلاث في أوائل الكلمات وأواخرها على وجه مزرٍ، لا يمكن تعليله، أما إغفال النطق بعلامات الجمع في الأدوات والأسماء فيطَّرد فيها كما يطرد النطق بحروف كثيرة على غير ما تكتب[5]. ويختلف رسمها عن نطقها، حتى لتكتب الكلمة، فلا ينطق حرف واحد من حروفها، وإنما ينطق غيرها، أو ينطق أقلها، ويهمل سائرها، كما سوف نرى، ولهذا يقول الفرنسيون إن رسمهم «كارثة وطنية»، تزداد، وشرٌّ، وآثام[6]. وليس للفرنسية إلا ستة وعشرون حرفا لستة وثلاثين صوتا، وهو كالإملاء الإنجليزي، إنما وضع للغة أو لغات قديمة؛ ولذلك قال غاليشيه إنه لم يوضع للفرنسية، وإنه صعب جدا، ويكاد يكون أصعب من غيره[7]، وقال جان جاك روسو إنه يَجمع بين الغرائب والمتناقضات.

وفي الفرنسية كثير من الشواذ في النحو والصرف، وهي من طبيعة هذه اللغة التي اعتوروها بالإصلاح كثيرا، ولم تعرِض لها كتب النحو عندهم. ولا

---

(١) مستقبل المغرب واللغة الفرنسية.

(٢) ثقافتنا في ضوء التاريخ، ١٧٧.

(٣) كلمة في اللغة العربية، ١٤ ومابعدها.

(٤) العربية تواجه التحديات.

(٥) الفرنكفونية ومحنة اللغة العربية في المغرب، ١٧٧.

(٦) اللغة، ٤٠٥ و٤١١.

(٧) دعاة العامية هم أعداء القومية العربية، ٢١ (نقلا عن: من حاضر اللغة العربية، ١٨٧).

يذكر المعلم الفرنسي علل التحول في تصريف فعل الكون مثلا (être) لكيلا يتحير عقل التلميذ في إدراك السر في تحول الفعل je suis في الحاضر إلى je serai في المستقبل، أو في تحول فعل الذهاب aller، ولا لِمَ يقول المتكلم je vais والمتكلمون nous allons، وفي المستقبل jirai. وفي جموعهم كثير من الشواذ، وما كل كلمة مفردة تجمع بزيادة s فيها. ولا يدري الطالب لم يجمع le travail على les travaux، ولا لم يجمع mal على maux ولا لمَ يجمع chacal (ابن آوى) على des chacals وليس على chacaux؟[1]. وقال الدكتور موسى الشامي: أنا أستاذ الفرنسية أربعين عاما في التعليم الجامعي، وصاحبت اللغتين، «والله العظيم، إن اللغة الفرنسية لغة جنونية»[2]، ولكنه لم يبين جانبا من جنونيتها! ومن عيوبها أن العدد إذا زاد على الستين يبان عنه بطريقة ساذجة وبدائية، ومعقدة مع ذلك، هكذا (والترجمة حرفية):

- سبعون (Soixante-dix)= ستون عشرة.
- واحد وسبعون (soixante onze)= ستون أحد عشر.
- اثنان وسبعون (Soixante-douze)= ستون اثنا عشر، إلخ.
- تسعة وسبعون (Soixante-dix-neuf)= ستون عشرة تسعة.
- ثمانون (Quatre-vingts)= أربع عشرينات.
- واحد وثمانون (Quatre-vingt-un)= أربع عشرينات واحد.
- اثنان وثمانون (quatre vingt deux)= أربع عشرينات اثنان، إلخ.
- تسعون (Quatre-vingt dix)= أربع عشرينات عشرة.
- واحد وتسعون (quatre-vingt et onze)= أربع عشرينات أحد عشر، إلخ.
- تسعة وتسعون (quatre-vingt-dix-neuf)= أربع عشرينات عشرة تسعة[3].

ويتفق اللغويون على أن الألمانية من أصعب اللغات، وأكثرها تعقيدا، حتى قال باجت (Baget): «الألمانية أعظم لغة مزعجة، بسبب عادتها القديمة في

(١) دعوى الصعوبة في تعلم العربية، ٣٩٤ وما بعدها.
(٢) الدارجة في الإعلام والسينما، ١٠١.
(٣) العربية تواجه التحديات.

وضع الفعل في نهاية الجملة»[1]. والفعل فيها يُجعَل في المرتبة الثانية، إلا في الجمل الفرعية، كالجمل التعليلية، فإن الفعل فيها يجعل في آخر الجملة[2]. وشكا منها ليبنز، فقال إن بها عجزا من جهة المعجم، إذا ووزنت باللغات الأوربية الأخرى[3]. ومن كان يشكو كثرة جموع التكسير في العربية، وكثرة الشذوذ فيها، فسيحمد ما فيها من اطراد إذا ما درس الألمانية، فرأى كثرة صيغ الجموع فيها، وتحررها من القاعدة، حتى إن كل كتاب في تعليم قواعدها يبدأ بهذه العبارة: احفظ مع كل اسم أداة تعريفه، وصيغة جمعه؛ فما لذلك من قاعدة[4]. وفيها سبع طرق لجمع الأسماء: كزيادة السين في بعض الكلمات، كالإنجليزية، وزيادة e، وزيادة en، أو er، وقد يتغير بعض حروف العلة في وسط الكلمة، أو يزاد حرف لاحق، وقد تتغير حروف داخل الكلمة، وبعض الكلمات تكون صيغة المفرد والجمع فيها واحدة. ولكل فعل في الإيطالية والإسبانية الحديثتين نحو من خمسين شكلا، وللفعل في اليونانية القديمة ٣٥٠، وفي التركية مليونان[5].

ويرى علماء اللغة أن الصينية من أعقد اللغات تركيبا وحروفا، فهجاؤها خمسون ألف حرف[6]، أو مائة ألف حرف[7]، يتعلم الطفل منها ألفَيْ حرف حين يكون في العاشرة، ويحتاج إلى آلاف أخرى لكي يقرأ صحيفة أو رواية. ويتطلب محو الأمية محوا تاما معرفة ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رمز[8]. وليست للصينيين طابعة تضم حروفهم كلها، لكثرتها، وإنما تضم طابعتهم ٥٤٠٠ حرف، أو ٢٢٠٠ حرف، وفي الكتابة بها مشقة كبيرة؛ لأنها تعتمد على التبديل الدائم لـ ٢٢٠٠ حرف، يحتاج بعضها إلى ثلاث وثلاثين ضربة لطبعه[9]. وفيها ٦٧٦٣ حرفًا أساسيًا مصنفًا، منها ٣٧٥٥ يكثر استعمالها، و٣٠٠٨ أقل منها

---

(١) اللغة والاقتصاد، ٣٤١.

(٢) بحوث ومقالات في اللغة، ١٦٦ وما بعدها.

(٣) اللغة والاقتصاد، ٢٨٥.

(٤) انظر: فصول في فقه العربية، ٤١٥ وما بعدها، وبحوث ومقالات في اللغة، ١٦٦ وما بعدها، وعبر منظار اللغة، ١٢٧.

(٥) الغريزة اللغوية، ١٦٠.

(٦) اللغة والاقتصاد، ٢٩٩.

(٧) المذكرات، ٢/ ٥٠٢.

(٨) عالمية الأبجدية العربية وتعريف باللغات التي كتبت بها، ١/ ٥٧.

(٩) قضية التعريب في الجزائر، ١٣، والعربية تواجه التحديات.

في الاستعمال، و ١٦٠٠٠ حرف آخر تسمح مع الحروف السابقة بطبع الكتب الصينية كلها، قديمها والحديث؛ فمجموعها ٢٣٠٠٠ حرف، مع ٣٤٠٠٠ حرف نادرة الاستعمال[1]. ولا ينتهي الصيني من تعلم الكتابة أبدا، ما دام يقرأ، فكل كلمة جديدة يتعلمها أو تجدُّ في الصينية يجب عليه أن يتعلم نطقها وكتابتها[2]. هذا إلى صعوبة رسمها وتعقده؛ إذ قد تبلغ الخطوط المرسومة للحرف الواحد ستة عشر خطًا[3]. وهي لغة نَغَميَّة، أي إنها تنطق المقطع بأربع نغمات شتى، ونطقٍ خامس لا نغمة فيه، وللمقطع من المعاني بعدد النغمات، كـ «ما» ma، فهي: أُمٌّ، وحصان، ويلعن، وقُنَّب، على حسب النغمات الأربع. وهذا يصدق على كل كلمة صينية[4].

وتبلغ الكتابة اليابانية من الصعوبة والتعقيد أن أحد الفرنسيين (رينه سيفرت) سمى نظام كتابتها النظام الأكثر شيطانية وتعقيدا، وقال إنه لا يمكن عقلا بشريا أن يتصوره، وإن الصينية -إن كانت من أصعب اللغات- لعبةُ أطفال في اليابانية[5]. ووجْه الصعوبة في اليابانية تعدد نظام الكتابة فيها، فهي لغة واحدة لها ٢٦٠٠ حرف[6]، ولها نظام كتابي معقد، يتألف من أربعة أنظمة من الرموز، كل واحد منها يخص جانبا من الكتابة، هي:

١ - كانجي: وهي أصعب ما في اليابانية، ويُكتَب بها معظم الأسماء وأصول الأفعال، وأصول الصفات، وما يطرأ على الأفعال والصفات من تغير، حتى يمكن تصريفها في الأزمنة المختلفة، وتبلغ حروفها خمسين ألف حرف، ولكن المستعمل منها بعد الحرب الثانية ١٩٤٥ حرفا، يتعلم الأطفال منها في التعليم الابتدائي ١٠٠٦ أحرف، قبل نهاية الصف السادس، ويتعلمون مما بعد

---

(١) حرب اللغات، ٣١٢ وما بعدها. ويرى بعضهم أن النصوص الصينية العادية تحتاج إلى معرفة ٣٠٠٠ حرف، وتشتمل الكتب العلمية والمعجمات على ٤٠ ألف حرف، إذا أوردت الكلمات النادرة (الحروف الأولى، ٥٠)، ومنهم من قال إن الحروف الصينية ٢٢٠٠ حرف. وليس المهم دقة الرقم، وإنما المهم أن نعلم كثرة الحروف الصينية واليابانية، وأنها لا تقاس بالحروف العربية، من حيث العدد، ومع ذلك صبر عليها الصينيون واليابانيون آلاف السنين، وما زالوا صابرين عليها.

(٢) لغات حية، ١٤.

(٣) علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي، ٧٢.

(٤) عالمية الأبجدية العربية، ١/ ٥٦.

(٥) اللغة اليابانية: بعض السمات والمشكلات، ٢.

(٦) الهوية العربية والأمن اللغوي، ٣٩٨.

الصف السادس إلى نهاية الصف التاسع نحوا من ألف آخر، ويتعلمون سائرها في الإعدادية، هذا إلى أن للحرف الواحد من الكانجي قراءات كثيرة، لا قراءة واحدة، وأن الحروف تتشابه تشابها شديدا، يجعل من غير السهل تمييز بعضها من بعض، كما يجعل من الصعب كتابتها، هذا إلى كثرة خطوات كتابة المقاطع، فقد تبلغ ستا وعشرين خطوة.

٢ - هيراغانا: وهي طريقة الكتابة بحسب المقاطع الصوتية، وتكتب بها لواحق الأفعال، والصفات والحروف.

٣ - كاتاكانا: لكتابة الكلمات والمصطلحات الأجنبية، وأسماء الحيوان والنبات، والأسماء العلمية، والكلمات التي تحاكي الأصوات، والكلمات المؤكدة.

٤ - روماجي: وهي حروف لاتينية، تكتب بها بعض المختصرات، والكلمات اليابانية في الحاسب.

وتتداخل هذه النظم الأربعة في حالات كثيرة في النص الواحد، بل في الفقرة الواحدة، وهي تبلغ آلافا من الرموز[1]. ولا يمكن الاكتفاء بمقاطع الهيراغانا والكاتاكانا عن الكانجي، إذ يغدو من الصعب على المرء تمييز المعاني بعضها من بعض، إذ فيها كلمات كثيرة، تحمل الصوت أو النطق عينهما، وإنما يختلف معناها باختلاف الكانجي الذي تكتب به. ولهذه الصعوبة كان أطفال اليابان يقضون عامين في تعلم القراءة والكتابة، فوق المدة التي يقضي أطفال الأوربيين في تعلمهما؛ لأن التلميذ الياباني يجب عليه أن يتعلم في الابتدائية ٨٨١ حرفا، أو ما يقابلها، تزاد عليها ٤٠٠ حرف في المتوسطة؛ ليعرف ما يعينه على قراءة الصحف[2]، ولا يفهم قارئ الصحف ما فيها أو يعرفَ ما لا يقل عن ٣٥٠٠ حرف، أي إن بالطابعات اليابانية التي تُخرِج الصحف ٣٥٠٠ حرف، ولا يسمَّى الياباني مثقفا أو يعرف ٦٠٠٠ حرف، أما الأديب، فلا بد أن يعرف ١٠٠٠٠ حرف فصاعدا؛ حتى يتأتى له الإلمام بالأدب الياباني القديم.

---

(١) اللغة اليابانية، ٣١ وما بعدها و٣٤ وما بعدها و٤٢ و٣١١ و٣١٤، واتجاهات السياسة اللغوية، ٣٨ وما بعدها، واللغة والاقتصاد، ٣٠٠، وأساسيات اللغة اليابانية وقواعدها، ٦١.

(٢) العربية والوعي، ٤١ وما بعدها.

وذكر الدكتور عثمان سعدي أن موظفي السفارة اليابانية بالجزائر كانوا يكتبون رسائلهم الرسمية إلى اليابان باليد لكثرة الحروف، ولم تكن لهم طابعة؛ لأن في استعمالها مع هذه الكثرة مشقة كبيرة[١]. من أجل ذلك كانت الكتابة اليابانية صعبة على كل من يريد تعلمها، حتى اليابانيين، وكان من الكثير أن يستعينوا بالمعجمات على قراءة الكلمات وكتابتها بالمقاطع الصينية[٢].

ومع ما في هذه اللغات من صعوبة، وما يرى فيها أهلها من عيوب، لم يغيروا شيئا منها؛ لأن للتغيير تبعات حضارية، أيسر منها الصبر على ما يأخذون عليها. فمع غرابة الرسم الإنجليزي لم يغيره الإنجليز، لأسباب، منها مخافةُ أن تعسر على الخلَف قراءة ما كتب السلف، ومخافةُ أن يُلْزِمهم تغييرها تعلُّمَ الرسمين القديم والجديد، وأن من الصعب أن يقضي الإنجليز ما سلف من أعمارهم في تعلم هذا الرسم، وإتقانه، ويبذلوا فيه الغالي والرخيص، ثم يتخلوا عنه، ليتعلموا رسما جديدا، قد يرى بعضهم أنه غبي. ومنها أن نطق الإنجليز ليس بواحد؛ فلا يمكن أن يكون لهم رسم واحد، وأن النطق ليس بثابت، وإذا غُيِّر الرسم ليطابق نطق اليوم، فلسوف يُغيَّر غدا ليوافق نطق غد، وما دام الأمر كذلك، فمن الخير الإبقاء على الرسم الأول، على علاته. ثم إن هذا الرسم -مع أنه مستفزٌّ- إذا تُعُلِّم، لم يَتهاوَن فيه من تعلّمه، ولم يرغب عنه[٣]. وجرت في بريطانية منذ القرن الرابع عشر إلى الآن محاولات عدة لإصلاحه، ليكون المكتوب فيها مطابقا لما يُنطق، بيد أنها كانت تقابَل برفض المحافظين المهتمين بالشأن الثقافي. وحاول الأستراليون ما عُرف بالمبادرة الأولى لإصلاح الهجاء عام ١٩٦٩، فأدخلوا بعض التغيير على رسم كلمات، مثل: head، وfriend، و guess، فكتبوها كما تنطق: hed، وfrend، وgess، غير أن هذه المحاولة ماتت في مهدها بعد مجيء حكومة المحافظين. وجرت محاولات في أمريكة أكثر جدا، فغُيِّر رسم بعض الكلمات، ورُوِّج لتغييره في الإعلانات التجارية والخيالة، ووسائل الإعلام، غير أن المحاولات ظلت محدودة، ولم تمسس روح كتابة

(١) قضية التعريب في الجزائر، ١٦.

(٢) اللغة اليابانية، ٣٤ وما بعدها.

(٣) لماذا تتغير اللغات، ٢٩٣.

المفردات، ولا عالجت خلل الكتابة الإنجليزية العظيم[1]. وفي عام ١٩٠٦ أنشئ «مجلس الإملاء الميسَّر»، وهو منظمة، أنشئت لإصلاح هجاء الإنجليزية، وتيسيرها، وتألفت من ثلاثين عضوا، من أساتيذ الجامعات ومؤلفي المعجمات، وكان غرض المجلس الرئيس تيسير اللغة، وكتابة الحروف كما تنطق، وإسقاط ما لا ينطق منها، وتغيير مواضع بعض الحروف، في بعض الكلمات، فاقترح إصلاح ٣٠٠ كلمة، منها الكلمات المختومة بـ ed، ولكن الدال فيها تنطق تاء، مثل: addressed، وcaressed، وmissed، وpossessed، وwished، واقترح أن تكتب: addresst، carest، mist، possest، wisht وأن تكتب: catalogue: catalog، وcalibre: caliber، وsabre: saber، وتكتب ough: o، وتكتب السين (s) زايا (z) حيث تنطق زايا، بتأثير من بعض الحروف التي تجاورها، فتكتب: brasen وsurprise –مثلا-: (brazen) و(surprize). وفي أغسطس من عام ١٩٠٦ أيد الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت المقترحات، وأصدر أمرا بتنفيذها، وأن تستعمل الكتابة الجديدة في اتصالاته الرسمية ورسائله إلى الكونجرس، وأراد إجبار الحكومة الاتحادية على اصطناعها، فأصدر أمرا إلى المطبعة العامة أن تكتب بها الوثائق الاتحادية العامة كلها، فامتثلت أمره، بيد أن هذه المقترحات عورضت معارضة شديدة، وحملت عليها الصحافة الأمريكية والبريطانية، وكثرت المقالات الافتتاحية المعارضة لها، والرسوم الساخرة من أمر روزفلت، ورفضتها المحكمة العليا، وأمرت ألا تطبع قراراتها إلا بالكتابة القديمة، ثم أصدر الكونغرس بالإجماع قانونا يوجب التزام الكتابة المتبعة في المعجمات المعتمدة في الإنجليزية، فالتزمه روزفلت، ورجع عن قراره[2].

ويرى ٥٠ ٪ من الفرنسيين أن الرسم الفرنسي صعب جدا، ولكنهم يعارضون إصلاحه[3]، ولذلك قال لويس جان كالفي: أمر الفرنسيين مع رسمهم غريب: يشتكون أبدا من صعوبته وتناقُضِه، ويأبون المساس به[4]. ويتعصب الفرنسيون للفرنسية تعصبا يقلُّ نظيره، على ما فيها من صعوبة، ويجيدها أدباؤهم، ولم

---

(١) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ١٦٢ وما بعدها.
(٢) Simplified Spelling Board، WikipediA، وبرنارد شو، ١٤١.
(٣) التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية في فرنسة، ١٦٥.
(٤) السياسات اللغوية، ٨٤.

تَحُل صعوبتها بينهم وبين إجادتها. والألمانية -على ما قد رأينا من عيوبها وصعوبتها- يرى ليبنز -وهو ممن اعترفوا بصعوبتها، وبما بمعجمها من نقص، وأَلَّفَ كتبه كلها بالفرنسية؛ لتنتشر[1]- أنها أقدم اللغات الأوربية، وأحفظها للفطرة، وأقربها إلى المحسوس، وأبعدها عن التهويمات[2]، وبلغ بها الألمان من العلم والأدب والفلسفة ما لم يُبلَغ ببعض اللغات الأوربية، وهي -عندهم- لغة التفلسف، والشجرة التي نبتت منها جذور الفلسفة، وهي مكانها الأصيل. ويرون أن خصائصها هي التي أكسبت الفلسفة الألمانية خصبها، لما فيها من قابلية للحركة، يفتقر إليها سائر اللغات الأوربية. ففيها تتعدد المترادفات، وتكثر المشتقات، والمشترك اللفظي، وفيها مع الفلسفة أبرع الأدب، وأحسن العلم[3]. وكان هيدغر يؤمن إيمانا جازما بأنْ ليس في الألسن لسان يضاهئها هي واليونانية، فهما أقوى اللغات جميعا، وأكثرها تحققا بالفكر، وكان يسميهما «اللغتين المفكِّرتين». ويرى هيغل أن لها ثروة من الأساليب المنطقية، ولا سيما الأساليب الخاصة والمتميزة للدلالة على تحديد الفكر، وهي تفضُل بدرجات كثيرة لغاتٍ عصرية[4]. ولما قررت ألمانية وسويسرة تأليف لجنة لتجديدها، وتيسير قواعدها للشباب، وفرَغت مما كُلِّفت، بعد أن صُرِفت عليه عشرات ملايين الماركات، قامت قيامة ألمانية بمؤلفيها ومفكريها، وشنوا حربا على «إصلاحاتها»، وقالوا إن من يتعلمها سوف يحتاج إلى ترجمة ما كتب نيتشه، وهيغل، وغوته، وتوماس[5]. ولم يتذمر الألمان، ولا الروس، ولا الفلنديون من إعرابهم؛ لأنهم لم يصابوا بالكسل العقلي، والمرض النفسي[6] اللذين أصيب بهما العرب، وزادته الدعاية المعادية التي لا ضمير لها، ولا قانون، يزعها؛ لأنها في بلدان، ليس للغة الوطنية فيها شأن ولا اعتبار، فهي لا تَسْخَر إلا من الجد، ولا تزين إلا الكسل، دعك من الدعاية المأجورة التي تتعمد إقامة حواجز نفسية

---

(١) إمبراطورية الكلمة، ٥٦٢.

(٢) فقه الفلسفة، ٢٩٦.

(٣) الفلسفة واللغة، ٧٢، وكلمة في اللغة العربية، ١٤ ومابعدها.

(٤) فقه الفلسفة، ٢/ ٢٩٥.

(٥) العرب والانتحار اللغوي، ٥٣.

(٦) إنية وأصالة، ٤١.

بين العرب ولغتهم، من أجل أن تشتت شملهم، وتذللهم للاستعمار، وتهيئهم لقبوله وقبول ما يريد بهم.

ولم تحمل الصينيين صعوبةُ كتابتهم على تغييرها، أو التبدل بها، واخترعوا آلة كاتبة، تستوعب حروفهم، على كثرتها[1]؛ لأن فيها من المزايا ما ليس في غيرها، لو اصطنعوه، فهي تجمعهم على ما يُكتَب بها، مع أنهم لا يتفاهمون بالكلام الشفهي، لما بين لهجاتهم من تباعد واختلاف، ولكنهم يقرؤون الصحف والكتب، فيفهمونها؛ لأن الحروف الصينية تمثل الأفكار قبل الأصوات، وهي -فوق ذلك- تمكِّن المعاصر منهم من قراءة كثير من الوثائق التي كتبت منذ آلاف السنين، أي إنها تصل حاضرهم بماضيهم. وقد عرف الصينيون الألفبائية منذ قرون كثيرة، وجرت محاولات عدة لإصلاح الكتابة الصينية منذ عام ١٩٥٥، بتقليل حروفها، واستبدال الحروف اللاتينية بها، بل كتبت بالحروف الهجائية عقودا، وجدَّت الحكومة في الدعاية لكتابتها بالحروف اللاتينية، وإقناع الصينيين بالتحول إليها، فقال ماو تسي تونغ: «إن لغتنا المكتوبة يجب إصلاحها، ويجب عليها أن تصبو لبلوغ تصويتٍ (phonétisation) مماثل لتصويت لغات العالم»[2]. غير أن الصينيين استمسكوا بكتابتهم، ولم يغيروها[3]، وتخلت الحكومة عن محاولاتها بضغط من حركة ثقافية صينية، قادها الكاتب الصيني باكين، كانت تقول إن الإفراط في تغيير الكتابة الصينية سيمسخها، ويضيع كثيرا من التراث الثقافي الهاني[4]. ولم يعدل اليابانيون عن كتابتهم إلى غيرها، ولا فكروا في تيسيرها ولا استبدال غيرها بها، ومن فكَّر منهم في ذلك وأقدم عليه تراجع عنه، فلم تتغير كتابتهم منذ نشأت قبل أربعة آلاف عام إلى اليوم، تغيُّرا، يذكر[5]. وبعد الحرب الثانية أوصى بعْث من سبعة وعشرين تربويا أمريكيا الجنرال ماك آرثر، حاكم اليابان الأمريكي، بإصلاح الكتابة اليابانية، وقالوا إنه بغير ذلك لا يمكن اليابانَ أن تبلغ مبلغ الغرب في الصناعة، بيد أن

(١) اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، ٩٨.

(٢) السياسات اللغوية، ٧٨ وما بعدها.

(٣) الغريزة اللغوية، ٢٤٤، وحرب اللغات، ٣١٣ وما بعدها، واللغة والاقتصاد، ٣٠١.

(٤) السياسات اللغوية، ٧٩.

(٥) الحروف الأولى، ٤٦.

اليابانيين أبوا تغيير كتابتهم، وهاهي ذي اليابان تفوق الغرب في الصناعة، ولا تبلغ مبلغه، فحسب[1]. وإذا صح ذلك تبين ضعف قول عبد العزيز فهمي: المشاهدات دالة على أن الأمم التي تستعمل حروف الحركة في كتابتها هي الأمم الراقية علما وصناعة، هم أهل أوربة وأمريكة إطلاقا، أما الأمم التي لا حروفَ حركاتٍ عندها، كالصين، وإيران، والترك قديما، والعرب، فأمم متأخرة علما وصناعة. ولا تستشكلْ بالإسرائليين، ولغتهم كالعربية، لا حروفَ حركاتٍ فيها، فإن الإسرائليين متفرقون في البلاد الراقية كلها، وعارفون بلغاتها، فهم عالميون[2]، وأنه غير مبني على أساس علمي.

وكلَّما استثقلت فئة من العرب شيئا من لغتها في هذا العصر، وإن لم يكن ثقيلا، جدَّت في إماتته، والتبدل به، كائنة ما كانت عاقبة ذلك، وبالغة ما بلغت من الوخامة، كما استثقل بعضهم كثرة حروف الراقنة العربية؛ لأنها تبلغ ستين حرفا ثابتا[3]، كأنما اللغة ملابس وأحذية، تُخلَع متى استهوى غيرُها، أو بدا أنه أجدُّ، ولا يترتب على تغييرها إلا ما يترتب على خلع الملابس والأحذية. وربما رأى بعضهم أن يعاد بناؤها ليكون كما يرضى عنه الغير، على ما يقتضي القول الشهير: «والبس ما يعجب الناس»، وكلما سَمِعَ أحدهم غربيا ينال منها عدَّ قوله فيها فصلا، ودعا إلى تغيير ما يأخذ عليها، وعدَّ وجوده فيها بلاء، لا تقوم للعرب قائمة أو يزالَ[4]. ويتوسلون إلى ذلك بالمبالغة، وتحميل الأمور ما لا تحتمل، وكثيرا ما يكون رأيهم فيها مبنيا على حالة، تخص المرء منهم دون غيره. وإذا رأى العربية تخالف الإنجليزية أو الفرنسية في شيء، عدَّ خلافها عيبا، تجب المسارعة في إزالته، وأعطاه صبغة فلسفية ونفسية واجتماعية، يدين بها العربَ والعربية. وهذا المنطق الذي تختلط فيه عقدة النقص تجاه الغرب والرغبة في الانتقاد لوجه الانتقاد، أو لحاجة في نفس المنتقد، جعل كثيرا من هؤلاء ينأون عن أصول البحث العلمي[5]. وكان عبد العزيز فهمي مثالا لهم،

(١) الثنائيات في قضايا اللغة العربية، ٢٠٨ وما بعدها.
(٢) الحروف اللاتينية للكتابة العربية، ١٤٧ وما بعدها.
(٣) قضية التعريب في الجزائر، ١٣.
(٤) انظر مثلا: حياتي، ١٦٠.
(٥) اللغة العربية تواجه التحديات.

فقد كان امرأ بلغت منه الفتنة بالغرب مبلغا، فكان يرى الخير في متابعته، والشر في مخالفته، على وجه، يعسر على من ابتُلِيَ بمثله أن يبقى له من العقل ما يفكر به تفكيرا صحيحا، كما يدل على ذلك قوله: إن المستشرقين من الأمم المختلفة ليعجبون منا نحن الضعاف الذين يطأطئون كواهلهم أمام تمثال اللغة لحمل أوزار ألف وخمسمائة عام، مضت، ونحن من أتعس خلق الله في الحياة؛ إذ لم نعالج التيسير الذي فعله أهل اللغات الغربية، ومستكرهون على أن تكون العربية الفصحى هي لغة الكتابة عندنا، وهذا الاستكراه الذي يوجب تعلمها كيما تصح القراءة والكتابة محنةٌ حائقة بنا، وهو بغي وطغيان؛ لأنه يكلفنا معاناة رسْم، إنما هو طلاسم مستغلقة مبهمة، يَكِلِ فكَّها إلى السحر، وما يُقذَف في القلوب من الإلهام والإشراق، وهو أمر فوق الطاقة. ولقد كان الصبر على هذه المحنة ممكنا لو كانت العربية لغة سهلة، كبعض اللغات الأجنبية الحية، لكنها من أشق ما يكون[1].

وهو كلام خطابي، لا طائل تحته، فالعربية التي زعم أنها طلاسم مستغلقة، لا يمكن أن تقرأ إلا بالسحر والإلهام، غبرت زمانا طويلا لا يجد صبيٌّ سويٌّ، فَمَنْ فوقه، صعوبة في هجائها، إلا كما يجد الناس في تعلم هجاء اللغات كافة، والذي «شق» عليه تعلُّمها، حتى «آده»، نفرٌ من العائدين من الدراسة في الغرب، من عرب هذا الزمان، دون غيرهم من العرب والمسلمين منذ الجاهلية إلى اليوم! وهو يتجاهل حقائق التاريخ والواقع التي تثبت أن هجاء العربية من أيسر الهجاء وأوضحه، ولا سيما إذا ووزن بهجاء اللغات الأوربية، كالإنجليزية والفرنسية، دعك من هجاء الصينية واليابانية، وأن تغيرا كثيرا ناله، وكان ما انتهى إليه أيسر مما كان عليه، وأقرب مثال لذلك ما بين رسم القرآن والرسم الإملائي اليوم. وهو لا يَعتدُّ بمئات الملايين من العرب والعجم يقرؤون العربية بسهولة، وإنما يعتدُّ بوَهْم، يسوِّغ به استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، حتى تشاكل العربية بعض اللغات الغربية، ويشاكل العرب الغربيين في الكتابة من اليسار إلى اليمين، وينقطع ما بين العرب ودينهم وتراثهم، كما انقطع ما بين الترك وبينهما منذ اصطنعوا الرسم اللاتيني. ويتجاهل ما في الهجاء اللاتيني من مشكلات، لم

---

(١) الحروف اللاتينية للكتابة العربية، ١١ و١٣٩ و١٤٧.

تحمل أهله على التبدل به؛ لأن لهم تراثا، يعز عليهم أن يحال بينهم وبينه، وإنما يصبرون على ما في رسمه من «فظائع»، كما سماها اللغوي الأمريكي ديفيد جستس، وإذا اقتُرح تغييره قوبل بالرفض؛ فلم يتغير منه شيء ذو بال، حتى قال جلب (Gelb) إن الغربيين -في الجملة- يكتبون بالطريقة التي كتب بها اليونان والرومان القدماء؛ لأن «الكتابة اللاتينية القديمة مماثلة، من حيث المبدأ، لكتابة اليونان الذين استعيرت منهم»[١]، وقال إنه ليس في الكتابة اللاتينية ما يمكن عده خيرا من الكتابة العربية[٢]. وقال مارك توين، يسوِّغ الحفاظ على هذه الكتابة، على ما فيها من صعوبة معنتة: إن رؤية الحروف على أنحاء لم نعتدها تؤذي العين، وتسلب الكلمات تعبيريتها، إنها لا تثيرك كما كانت تفعل، لقد امتص التبسيط ما تختزنه من الإثارة كل الامتصاص[٣]. وقالت الكاتبة الهندية، بهارتي موكرجي، في الكتابة البنغالية إنها -على دقتها، أو تعقيدها- تجعل الإملاء ممارسة عسيرة، غير أنها مع ذلك تفخر بما تتطلبه هذه البراعة اللغوية من جهد ومهارة[٤]. ويتباكى عبد العزيز فهمي من «صعوبة» الخط العربي، ويزعم أن العرب يطأطئون كواهلهم أمام تمثال اللغة، ويحملون أوزار خمسمائة وألف عام، ولا ييسِّرون رسمهم كما زعم أن الغربيين فعلوا. على أن عبد العزيز فهمي، ومصطفى كمال ومن وافقهم معذورون، فالتراث العربي الإسلامي ما كان يعني عندهم ما يعني تراث الفرنسيين والإنجليز واليابانيين والصينيين عندهم، وإنما كان همهم دفنه، وقطع ما بين العرب والترك وبينه، وإنما استبدل مصطفى كمال الرسم العربي من أجل ذلك، على حين يعتصم الأوربيون والصينيون واليابانيون بتراثهم، ويرون أن لا معنى لهم دونه، وكل غُنم بفقده غُرْم. ومن الطريف أن يقول عبد العزيز كل ما قال، ويمتدح الرسم اللاتيني، على حين يقول جلب إن الرسم اللاتيني ليس فيه ما يمكن عده خيرا من الرسم العربي، ويقول المستشرق رينز، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إسطنبول، وكان قد حاضر فيها قبل أتاتورك وبعده: إن الطلبة قبل الانقلاب كانوا يكتبون ما

---

(١) الثنائيات في قضايا اللغة العربية، ٢٠٩.

(٢) الموضع السابق.

(٣) السابق، ٢١١.

(٤) طريق العودة، ٢٩.

يُملَى عليهم من المحاضرة بسرعة شديدة؛ لأن الخط العربي اختزالي بطبعه، أما اليوم، فلا يفتؤون يطلبون إعادة العبارة مرارا، وهم معذورون فيما يطلبون، لأن الكلمة اللاتينية لا اختزال فيها، وقال: «إن الكتابة بالعربية أسهل كتابات العالم وأوضحها، فمن العيب إجهاد النفس في ابتكار طريقة جديدة لتسهيل السهل وتوضيح الواضح»[1].

ومما ينم على عدم علمية دعاوي بعض هؤلاء، وأنهم مدفوعون بحب المماثلة، ليس غير، قول سلامة موسى إن برنارد شو أراد بإصلاح رسم الإنجليزية أن يكون به اثنا عشر حرفًا للعلة، فماذا نقول نحن وليس عندنا سوى ثلاثة؟ غير أن صعوبتنا لا تنحصر في علة الحروف الحركية وإنما في الانفصال عن الحركة الثقافية العالمية، فنحن لا نستعمل الحروف اللاتينية التي أخذ بها ٦٠٠ مليون صيني منذ أشهر، وهي الحروف التي تستعمل مقاطعها لتأليف الكلمات العلمية التي نتعب في ترجمتها أو كتابتها بحروفنا العربية، دون طائل[2]. فهو يعجبه تحوُّل الصينيين عن هجائهم إلى الهجاء اللاتيني، ويرى عدم التحول إليه إعراضا عن «الحركة الثقافية العالمية»، ولا يعجبه إصرار الإنجليز والأمريكيين على البقاء على ما تعودوا من هجائهم، على مخالفته المنطق والعلم، وعلى ما يلقون من عنته، وربما لا يعجبه أيضا أن الصينيين رجعوا عن الهجاء اللاتيني إلى هجائهم، بعد أن عارض الشعب ما سنت حكومته، وقاطعَ الصحفَ التي استبدلت الهجاء اللاتيني بالهجاء الصيني، حتى أرغمها على العودة إليه. ويسمي الدول التي تصطنع الهجاء اللاتيني «العالم»، مع أن في العالم دولا كثيرة لا تصطنعه، كاليابان، وروسية، وكورية، والحبشة، وكثير من الهنود، وباكستان، وإيران، وما العرب إلا أمة من الأمم التي لا تصطنعه. وأمر آخر، أنه يتقالُّ حروف العلة في العربية؛ لأنها ثلاثة، ويعجبه أن تزاد، كما كان برنارد شو يتقالُّ رموز حروف العلة في الإنجليزية، ويود لو زيدت؛ ليكون لكل صوت من أصوات العلة رمز يدل عليه، وبرنارد إنما اقترح زيادة ما تحتاج إليه الإنجليزية، والزيادة في حروف العلة، لو زاد فيها العرب، زيادة لغير حاجة. هذا إلى أنه

---

(١) الخط العربي، ٣١ (نقلا عن: اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، ٨٧).

(٢) برنارد شو، ١٤٢.

غفل عن أن حروف العلة في العربية ستة، لا ثلاثة، ثلاثة طويلة، وثلاثة قصيرة، والعربية الفصحى لا تحتاج إلى أكثر من هذه الستة، ولكن حب المماثلة يسلك بصاحبه كل سبيل، ولو مرَّ به على الدِّمَن الخراب.

(٢)

وإنما كان سبب ما رَمى به الأوربيون العربية من صعوبة أنها -كما قال يوحنا أهتنين كرسكو الفينلندي- مرتبطة بالإسلام؛ فلا يليق بالنصراني أن يُعنَى بها، وهي بعيدة من الآداب الأوربية، وقلَّما يفيد منها الأوربيون أدبا، أو يحرزون علما؛ فلا ينفعهم أن يهتمُّوا بها؛ فزعموا أنها صعبة صعوبة جعلت تعلمها فوق طاقة البشر، ومن المستحيل على الأوربي أن يجيدها؛ لأن إجادتها تستغرق زمنا طويلا جدا، وعملا معنتا، وصبر الملائكة[١]، فهم -إذن- يضنون عليها بأوقاتهم؛ إذ لا يترتب على تعلمها نفع مادي، وهي مرتبطة بدين، يخالفونه. هذا إلى أن الإنجليز من الأوربيين مشهورون بالعجز عن تعلم اللغات الأجنبية إلا بمشقة شديدة، وهذا مما حملهم على الإحجام عن تعلم لغات غيرهم من الشعوب، وأن يتقاضوا أن يتعلم العالَمُ لغتهم ويعرفها[٢]. وهذا دليل على أن ما تُرمَى به العربية عيوب، يفتعلها الغربيون للغض منها، ويفتعلها من العرب من له في افتعالها منافع، فهو يرميها بما يرميها به ارتزاقا، ومنهم من يبني ما يقول على جهل، ومنهم من يريد الاشتهار، ولو كان الكرسيُّ الذي سيقعد عليه مصنوعاً من جمجمة العربية[٣].

ويتبين التحامل، وعدم النزاهة فيما يقول الغربيون في العربية في قول زويمر إن التلفظ بالمفردات العربية عسير جدا على الأوربي، ولا يمكنه أن يؤدي حروفها بالحروف الأوربية، وإن اجتهد مؤلفو كتب النحو في ذلك؛ لأن حروف الحلق العربية (ح خ ع غ) وغيرها، تستلزم حلقا نشأ في البادية، حيث أخذ العرب أصواتهم عن الجِمال، وهي تشكو إليهم، وقد بهظتها الأحمال.

---

(١) نفي أوهام الأوربيين، ٤٨٣.

(٢) الموضع السابق. وهذا الرأي خلاف ما قال سر رايت من أنهم كانت لهم سمعة جيدة في إمكان تعلم اللغات الأخرى (انظر: السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٢١٣).

(٣) العربية تواجه التحديات.

فيجب على المرء أن يكون ملَكًا؛ لا بشرا ليتأتى له تعلُّم العربية[1]. وما من لغة إلا وفي أصواتها ما يشق على غير أهلها، لعدم تعودهم إياه، ولاختلاف اللغات في نظامها الصوتي، واختلاف الحناجر في المرونة، والقدرة على المحاكاة، والانتقال مما عهدت إلى ما لم تعهد. أما ادعاء أن العرب تعلموا هذه الأصوات من الإبل، فمن استنقاص الغربيين ما لا يستسيغون من ثقافات الغير، ولا يختلف عما قال ويل ديورانت، من أن اليسوعيين لما وجدوا حوائل اللغة اليابانية تقف في وجوههم سدودا منيعة، قالوا إنها «لغة، صاغها الشيطان؛ ليمنع نشر تعاليم الكتاب المقدس (الإنجيل) في اليابان»[2]. ومن دأب الغربيين أن ينسبوا مَنْ خالفهم إلى الخطأ؛ لأنهم يعدون أنفسهم وثقافتهم وعقولهم مَثَل الكمال الأعلى، وميزانا يزنون به غيرهم، ومن جعل نفسه ميزانا، نسب ما خولف فيه إلى النقص، وجعل قيم الأشياء بقدر دنوها منه أو بعدها عنه. ومن رأى للغرب ما يرى لنفسه، وزن الشعوب بميزانه؛ فاستحسن ما وافقه ووافق ثقافته، وذمَّ ما خالفهما، ولم يستثن من ذلك نفسه ولا أمته ولا ثقافته؛ لأنه يراها بعين الغرب، وينزلها حيث ينزلها، وسيما الأمة الضعيفة كسيما الشخص الضعيف: يرى نفسه بعين غيره، ويصفها بما يصفها به، ويعدُّ مزاياه عيوبا، وعيوبه مزايا، ومماثلته السبيل إلى الكمال، وربما لا يكون مثقفوها في ذلك أفضل من غيرهم، بل ربما كانوا أسوأ، وأكثر تقبلا لامتهان النفس وتحقيرها، وموافقة العدو في إيذاء أمتهم وإذلالها، وربما أَتَوا من ذلك ما يأنف منه عوام الناس[3]. وإذا كانت حروف الحلق صعبة على الإنجليز والأوربيين، فهي سهلة على مَن تعوَّدها من غيرهم، ممن لم يروا الإبل، ولا سمعوا أصواتها، وبعضها -كالخاء- مستعمل في بعض اللغات الأوربية، كالإسبانية والألمانية.

وقد أقرَّ ديفيد جستس بأن بعض الغربيين يشوِّه العربية بتأثير من السياسة، فقال إنها ظلت عرضة للتنميط والغرابة اللذين نالت منهما الصينية على أقلام الغربيين، وكثيرا ما بلغت صورتها النمطية حدا من السوء بعيدا، حتى إن معهد

---

(١) نفي أوهام الأوربيين، ٤٨٤ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد الأول،٩٠.

(٣) عصر التشهير بالعرب والمسلمين، ٢٠ وما بعدها.

الخدمة الخارجية، وهو معهد لتعليم اللغات الأجنبية، تابعٌ لوزارة الخارجية الأمريكية، جعلها -مع الصينية، واليابانية، والكورية- من أصعب اللغات، وعدَّها أصعب من الأمهرية، والعبرية، والسنهالية، ولغة الخمير. قال: وحدَّثنا المدرس الذي درَّسنا العربية في السنة الأولى أننا سندرسها عشر سنين؛ حتى نجيدها إجادة كافية[1]. وهي -في نظر ديفيد- أصعب من اللغات الهندية الأوربية الحديثة، ولكن مردَّ صعوبتها ليس إلى قواعدها، فهي مطردة، وواضحة وضوحا غير معهود، ونظام الكتابة فيها يدل على أن لكل صوت حرفا واحدا، وهو خير من نظام الكتابة اللاتينية، والإيطالية، والإسبانية، واليونانية القديمة، وسالمٌ من «فظائع» الكتابة الإنجليزية والفرنسية، بلهَ الصينية، واليابانية، والكورية، وما فيه من حذف الحركات يحمل على الإعجاب؛ لما فيه من اقتصاد. وليس في قواعدها من صعْب إلا الجمع، فليست له قاعدة مطردة. على أنها لا تبعد في ذلك كثيرا عن الألمانية، في اطراد غموض صيغة الجمع التي يُجمَع عليها الاسم، مع عدم وضوح جنس الاسم، ولا تبعد عما في اللاتينية، فإنه يصعب توقع الحالات الإعرابية المختلفة فيها. وإنما مردُّ ما في العربية من «صعوبة» إلى أسباب تاريخية وأسلوبية واجتماعية، أهمها:

١ - أنها لا تُستعمَل اليوم إلا في الكتابة، أما الكلام الشفهي، فيغلب عليه التكلف والخطأ، وذلك يحول دون إفادة متعلمها مما يسمع من أهلها، لأن ما يَسمَع من أخطاء يَقِرُ في ذهنه؛ إذ كان المسموع أسرع من المكتوب تمكُّنًا في العقل.

٢ - أنها لغة دين عالمي، وتراث أدبي غني، لا مثيل له، ولغة ممالكَ كثيرة، وسِجِلٌّ ثقافي عريق وحيٌّ، وهذا يجعلها صعبة على الأوربي؛ فإن أقدم ما كتب من التراث الإنجليزي والفرنسي بالإنجليزية والفرنسية -مثلا- هو ما كتب في القرن السادس عشر الميلادي، فمن اليسير عليه أن يعرَف ما تدل عليه مفردات لغته، ومن العسير أن يستيقن أنه عرف معاني المفردات العربية العريقة التي تعود إلى القرن السابع الميلادي[2]. وهو معنى ما قال إدوارد سعيد، من أن العربية

---

(١) محاسن اللغة العربية، ١٣ وما بعدها و٢٥.

(٢) السابق، ٣٠.

ذات تاريخ ثقافي طويل، أورث ألفاظَها معاني متعددة، يرتبط بعضها بالعصور التي شاعت فيها، ولا يستطيع المترجم الغربي أن يتجاهلها، وإن حمّلها معاني جديدة، وهو مما تختلف فيه عن اللغات الأوربية الحديثة[1].

ومن تأمل هذين الأمرين، بان له أن مردَّ أولهما إلى العرب، لا إلى العربية؛ فهم لا يعرفونها، ومن استعان بما يسمع منهم على تعلّمها أضلَّه. وقد شكا من هذا بعض الترك أيضا، فقالوا إنهم يجدون صعوبة في تعلمها وتعليمها؛ لأن ما يُدَرَّس منها في المدارس والجامعات العربية هو الفصحى، وما يُتكلَّم به هو اللهجات العامية[2]. وشكا وكلاء طلاب الأزهر، من أكثر من سبعين بلدا إسلاميا، إلى إدارة جامعة الأزهر أنهم يَقدَمون مصر، ولهم معرفة بالعربية الفصحى جيدة، فلا يسمعون إلا ما يهدد بنسيان ما عرفوا منها، من استعمال العامية في كل شيء، حتى مدرَّجات الجامعة، فيعتزلون الناس؛ حتى يتعلموا العامية، وتعلُّمهم إياها ينال مما عرفوا من الفصحى، وهم إنما جاؤوا ليتعلموا الفصحى[3]. ويشكو الطلاب الوافدون من البلدان الإسلامية من أن أساتيذ العرب يعلمونهم بالعامية، وأن ذلك كثيرا ما يكون سبب ضعف درجاتهم في بعض المقررات[4]. وإنما مردُّ هذا إلى السياسة اللغوية في الوطن العربي، وثقافة من يتولون التدريس في الجامعات والمعاهد العربية، وما يتَّسمون به من قلة الوعي، وضعف العصبية للعربية، وأن ليس لهم نضجُ مَنْ يتولون التعليم في جامعات العالم، ولا غايات كغاياتهم، وإنما التعليم عندهم باب من أبواب التكسب والوجاهة، ليس إلا. أما الأمر الثاني، فمن فضائل العربية ومزاياها، وهو أثر من آثار إعراقها، فقد أكسب مفرداتها رصيدا عظيما من الظلال والمعاني، لا يتهيأ لغيرها من اللغات، ومعرفة هذه المعاني والظلال تحوج إلى معرفة بتاريخ العربية الطويل، وتراثها العظيم. ولا يخفى أن هذه الصعوبات كلها صعوبات على من يتعلم العربية من غير العرب، وليست بصعوبات ذاتية مطلقة. وهي صعوبات، لها نظائر في غيرها من اللغات. وإنما انفردت العربية بالصعوبة

---

(١) الاستشراق، ١٨ (مقدمة المترجم).

(٢) مستقبل تعليم اللغة العربية في تركيا من خلال ماضيها وحاضرها، ٤.

(٣) مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، ٥٧ وما بعدها.

(٤) مظاهر التعريب في جامعة الكويت، ٢٣.

الأخيرة لأن عمرها ينيف على ألفي عام، ولا يزيد عمر غيرها من اللغات الغربية على أربعمائة، ولو طال عمرها، وكان لها ما للعربية من سعة انتشار، ما كانت دونها في ذلك. على أن هذا إنما يصدق على لغة بعض التراث، ولغة التراث إنما تعني المتخصصين وحدهم، ولا يصدق على العربية الحديثة، فإن للمفردة منها معنى واحدا، يتفق عليه العرب المعاصرون كلهم. وإذا صح هذا، سقطت الصعوبة الثانية، ولم يبق إلا الأولى، وهي التي يمكن أن توجز في أن متعلم العربية الفصحى من غير العرب لا يجد البيئة اللغوية التي يمكنه أن يتعلم منها، وهي -لا جرم- صعوبة كبيرة، لكنها تتعلق بالعرب لا العربية.

وما ينبغي أن يُفهَم ما يشاع من صعوبة العربية خارج سياقه السياسي الغربي، كما تحدَّث عنه يوحنا أهتينين، وديفيد جستس، فإن الاستعمار الغربي أول من رمى العربية بالصعوبة، واستعان بإشاعتها على التنفير منها، وكان مبدأ ذلك ما قال يوحنا من استصعاب الإنجليز للغات الأجنبية عامة، وعدم وجود مصلحة لهم في تعلم العربية خاصة، وما يجدون فوق ذلك من ازورار عنها بالطبع لكونها لغة دين يعادونه، ثم بنوا على هذا سياستهم اللغوية في الوطن العربي، وعملوا على إشاعة أن العربية صعبة، ولا يمكن تعلمها، وسعوا في إرساخه في عقول العرب والشعوب الإسلامية عامة، كما سعوا في تبغيضها إلى الباكستانيين، إذ أرادوا ليصرفوهم عن اصطناعها لغة رسمية، ويزينوا لهم أن يصطنعوا الإنجليزية بدلا منها، فعمدوا إلى الاستهزاء بها، وإشاعة أنها صعبة، وما زال الاستهزاء بها مستمرا في وسائل الإعلام، وعلى ألسنة العامة والخاصة، حتى قال أحد كبار المسؤولين في الجامعة الإسلامية العالمية بباكستانَ مرةً: إن العربية لغة القرويين والجهلة، ومنذ ذلك الحين صارت صعبة في نظر الباكستانيين، وصار تعلُّمها شاقًا، مع أنها لغة القرآن الكريم، والنبي -صلى الله عليه وسلم-، ومع ما هو شائع في الباكستانيين من أنها لغة أهل الجنة[1]. ويُشيع الفرنسيون في المغرب العربي شيئا كهذا، فيزعمون هم ومن يسير بريحهم من المتفرنسين أنها صعبة، وميتة؛ لأنها لا تؤخذ من الشارع، ولا يتكلمها الناس على كل حال، ويتغافلون عن أن الفرنسية التي يريدون إحلالها محلها لا تؤخذ من

(١) دور اللغة العربية في ارتقاء الوعي الديني في باكستان، ١٧ وما بعدها.

شوارع المغرب العربي، وليس في أهله من يعرفها، وأن ما بينها وبين العاميات المغربية من تباعد لا يقاس بما بين العربية الفصحى وعامياتها. وتتجاوز حرب الاستعمار الغربي على العربية القولَ بصعوبتها، وصعوبة نظامها، إلى الحرب على مضمونها، وإلصاق ما يُكرَه من الأفكار والثقافات السلبية به، كما قال إدوارد سعيد إن عمل برنارد لويس طوال ما لا يقلُّ عن عقد ونصف كان يتسم بالعدوان، على ما حاول من إخفاء ذلك بالحيل والسخرية. وأغرب ما قال فيها أنها عقيدة خطيرة، وهو قول يعسر تصديق نسبته إلى لغة أخرى، واستدل على ذلك بمقال أ. شوبي «أثر اللغة العربية في نفسية العرب»[1]، مع أن مقال شوبي هذا -وإن عَدَّ كثيرٌ من الغربيين كلامَ شوبي إنجيلا في بابه- ليس بأكثر من أحقاد أمريكي، عربي الأصل، حاول أن يربطها بخيط، يوهم أنه مستمد من علم النفس[2].

(٣)

أما ما يقول به المنصفون الذين لا يتعمدون التشويه لغايات سياسية، أو أسباب ثقافية، فأن العربية من أبسط اللغات، وهي أقدرُها على التبليغ، وأن قواعدها تُكتَسب في أقصر وقت، وبالقليل من الجهد، وأن بعض العاميات العربية أصعب منها[3]. وإذا كنا اليوم نرى من يدعي خلاف ذلك، فتَنْصُر دعاويه حالُ العربية في الوطن العربي، فليس مردُّ ذلك إلى صعوبة فيها، وإنما إلى أمور أخرى، نرى حقا علينا أن نبينها، لنكشف الغطاء عن كثير من تلك الدعاوي والمغالطات التي كثرت، ورُدِّدت حتى استقرت في نفوس من لا علم عندهم بالعربية، ولا بطبيعة اللغات الإنسانية، كما يستقرُّ فيها ما يكثر ترداده، ولا يجد من يجلِّي حقيقته. وقبل أن نفعل يحسن أن نبين علاقة الفصحى بالعامية، فنقول إن الفصحى والعامية ليستا إلا أداءين للغة واحدة، وما العامية إلا شقة من الفصحى، وليس بينهما إلا قشرة رقيقة، فالنظام النحوي والصرفي

---

(١) الاستشراق، ٤٨٠ و٤٨٦.

(٢) العربية تواجه التحديات.

(٣) مستويات لغوية وطبقات اجتماعية، ٧٠، والعربية الإستراتيجية والأمن، والدارجة والعربية: صراع لغوي أم تكامل وظيفي، ١١.

واحد، والمعجم واحد، ومن آيات ذلك أن العوام والأميين من العرب يسمعون الإذاعات وخطب الجُمع والأعياد، والأحاديث الإذاعية، والدروس الدينية، فيفمهونها، ولا يكاد يخفى عليهم منها إلا الاصطلاحات المتخصصة، أو الغريب، والدخيل من الألفاظ الأعجمية، أو الأساليب والمفردات المستعملة استعمالا مجازيا غير معهود. وخفاء هذه عليهم قد يوافقهم فيه المتعلمون، ممن ليس لهم كبير اطلاع على الكتابات الحديثة، ومن ليس لهم كبير علم بالعربية وأساليبها، وكان مثله يقع على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان بعض الصحابة يستشكل من كلامه، حتى يسأله عنه، كما سأله بعضهم عن التفَيْهُق، والمَخْيَلة، والرُّوَيْبِضَة، والسقَّارين[1]، وكان يخفى على بعضهم معنى بعض الأساليب المجازية، كما خفي على عدي بن حاتم -رضي الله عنه- معنى: (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر)، وخفي على نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- معنى قوله: «أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا». وأكثر ما بين الفصحى والعامية من الفروق الإعراب وبعض الفروق الصوتية التي تكون بين لهجات اللغة الواحدة؛ فزعْم أن العربية صعبة على العربي لا معنى له، إذ كيف يصعب على المرء ما يعرف بالسليقة، إلا أن يعجز من يعلِّمه عن تعريفه أن ما يتعلَّم من الفصحى لا يزيد على وصْفِ ما يعرف من العامية بالسليقة، وإنما يختلفان في أمور يسيرة، أو يكونَ بعقله وثقافته ما يحول بينه وبين استيعاب وصف اللغة وصفا تحليليا، بلغةٍ صناعية، ما عهدها. وهو عيب في الدارس وثقافته، وليس من صعوبة في العربية، وقد وقع مثله لبعض الأعراب الأولين، لبعدهم عن الصنعة العلمية، وما فيها من فكر وفلسفة، واصطلاحات، لا عهد لهم بها، كما يدل على ذلك قول أحدهم للنحاة: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا»[2]، وما يُروى من أنهم ما كانوا يفهمون ما يريد النحاة، إذ يسألونهم عن بعض اللغة، إلا أن يتلطَّف إليهم عليم بمنطقهم[3]، كما يُرْوَى عن أعرابي أنه سئل: أتهمز إسرائيل؟

---

(١) انظر: لغة قريش، ٤٢٢.

(٢) انظر: نقد النحو العربي، ١٠ وما بعدها.

(٣) انظر مثلا: الخصائص، ١/ و٧٦ و٧٨ و٢٤١ وما بعدها، وطبقات النحويين واللغويين، و٣٦ و٤٣.

فقال: «إني إذن لرجل سوء»؛ لأنه لا يعرف من «الهمز» إلا الضغط والعصر، وقيل لآخر: أتجرُّ فلسطين، فقال: «إني -إذن- لقوي»، إلخ[1]، وكعجْز بعضهم عن تعلم الهجاء، على سهولته، كما رُويَ عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه لقي أعرابيًا، فقال له: هل تُحْسِن أن تقرأ القرآن؟ فقال: نعم. قال: فاقرأ أُمَّ القرآن، فقال: «والله ما أحْسِنُ البنات فكيف الأُمَّ»؟ فضربه عمر، ثم أسلمه إلى الكُتَّاب، فمكث فيه حينًا، ثم هرب، وأنشأ يقول:

أَتَيْتُ مُهاجِرِينَ فَعلَّمُونى ... ثلاثةَ أَسْطُرٍ مُتَتَابِعَاتِ
كِتَابِ اللهِ في رَقٍّ صَحيحٍ، ... وآياتِ القرانِ مُفَصَّلاتِ
فَخَطُّوا لى «أَبا جَاد»، وقَالُوا: ... تَعَلَّمْ سَعْفَصا وقُرَيِّسَاتِ
وما أنا والكتابةَ والتَّهَجِّى، ... وما خطُّ البنينَ مِنَ البَنَاتِ[2]

وليس في هذا ما مرده إلى صعوبة العربية وهجائها، وإنما إلى عدم استعداد الذهن للتعلم، لأسباب ثقافية.

والإعراب الذي هو أساس النحو، حتى جعله بعض النحاة هو والنحو مترادفين، وعِلْمًا واحدا[3]، وهو أصعب شيء على متعلمي العربية من عرب اليوم -غاية في السهولة، وقواعده واضحة ومطردة، ولا شذوذ فيما يحتاج إليه غير المتخصص منها، وكل مطَّردٍ سهل، وإنما الصعب ما لا ينقاس ولا يطرد، وما يكثر فيه الشذوذ ويتنوع حتى يُنْسِي القاعدة، أو يغدو ضبطه أصعب من ضبط ما لا قاعدة له، أو مثلَه. وللإعراب جانبان: التمييز، وبيان العلامة، أما التمييز، فبيان معنى الكلمة الكلي، كأنها فاعل، أو مفعول، أو حال، أو تمييز، أو ظرف، إلخ. والمعاني الكلية مما تشترك فيه اللغات كلها، وهي تُعرَف بالفطرة، ويستوي في إدراكها المتعلم وغير المتعلم؛ لأن مردها إلى العقل، وإدراكها مما يتوقف عليه إنتاج الكلام وفهمه، فلولا المعرفة بها ما كان في وسع أحد أن يقول كلاما ذا معنى، ولا أن يفهم ما يُلْقَى إليه. فلولا أن المرء إذا قال -مثلا-: «انتظرَ زيد عمرا عند باب الجامعة»، إنما قصد البيان عن وقوع الانتظار في الزمان الذي سبق الكلام، وأن الذي فعل الانتظار «زيد»، وأن المنتظَر عمرو،

---

(1) الصاحبي في فقه اللغة، ١٥.
(2) المطالع النصرية، ٤٢٧، وانظر أيضا: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٣/ ٢٤.
(3) الإيضاح في علل النحو، ٩١.

وأن ما وقع فيه الانتظار مكان قرب باب الجامعة، تدلُّ عليه «عند»، وأن بين «عند» و«باب»، و«باب» و«الجامعة» علاقة ذهنية، هي نسبة الأول من الاسمين المتتابعين إلى الثاني، وهي التي يسميها النحويون الإضافة، لولا أن المتكلم قصد ذلك، وعلم -بالفطرة- العلاقة بين كل كلمة وأختها، وأن السامع يدرك منه ما يدرك المتكلم، وإن لم يعرفا اصطلاحات النحويين، ما تأتى لمتكلم أن يقول، ولا لسامع أن يفهم. وما يفعله النحويون هو تحليل الكلام، وبيان العلاقات بين أجزائه، وتسميتها تسمية صناعية، تدل على معانيها ووظائفها في الكلام العربي كله؛ ليُبينوا عما يريد كل من تكلَّم بالعربية، ويعينوا المتعلم على تبيُّنه. وما يفعل نحاة العرب من ذلك التحليل هو ما يفعله نحاة غيرهم من الشعوب، وليس شيئا يتفردون به دون غيرهم، ولا هو مما يخص لغة دون غيرها، ولا متكلما دون متكلم، وإنما يختلفون فيما يستعملون من الرموز في الإعراب الوظيفي في كل نمط لغوي؛ من أجل ذلك كان أغلب صعوبات الشكل اللساني اللغوية واحدة في اللغات كلها، لكنها تظهر في صور شتى. غير أن من نظر إلى لغة بعين المتحامل رغَبًا أو رَهَبًا لم ير إلا ظواهر الأشياء، ولم يهمه إدراك ما وراءها، وهي حال من يتحاملون على العربية وثقافة أهلها[1]. وما يُعرَف بالسليقة، ويُدرَك بالفطرة، كالبديهيات، والمعارف الضرورية، لا يُعقَل استصعابه، وإن جَهل المرءُ تسميتَه الصناعية، وهو جهل لا يضر، ولا يعني أنه لا يعرف اللغة؛ إذ العبرة بما يُدرِك العقلُ، وينطق به اللسان، لا بالتسمية، كما قال عبد القاهر الجرجاني: «إذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: جاءني زيد راكبا، وبين قوله: جاء زيد الراكب، لم يَضِرْه ألا يعرف أنه إذا قال «راكبا» كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في «راكب» إنه حال، وإذا قال «الراكب» أنه صفة جارية على زيد، وإذا عرف في قوله: «زيد منطلق» أن «زيدا» مخبَر عنه، و«منطلق» خبر، لم يضره ألا يعلم أن نسمي زيدا مبتدأ. وإذا عرف في قولنا: «ضربته تأديبا له» أن المعني في «التأديب» أنه غرضه من الضرب، وأنه ضرَبَه ليتأدب، ولم يَضِرْه ألا يعلم أنْ نسمي «التأديب» مفعولا له»[2]. أما الجانب الصناعي من النحو، فمن اليسير

(١) التبعية اللغوية أساس التخلف الشمولي، ١٢.
(٢) تدريس النحو في الجامعات العربية: رؤية مستقبلية، ١٧٧.

تعلمه؛ لأنه ليس بأكثر من تنبيه على ما يُعرَف بالفطرة بلغة اصطلاحية، ليس فيها ما تخفى العلاقة بينه وبين معناه اللغوي، كالفاعل، والمفعول، والحال، والمبتدأ، والخبر، والبدل، والتمييز، إلخ. أما علامات الإعراب، فالكثير فيها أن تكون واحدة من أربع (الضمة، والفتحة، والكسرة، والسكون)، وهي مطردة، ولا تخالَف إلا في جمع المؤنث السالم في النصب، والممنوع من الصرف في الجر. ودون ذلك في الكثرة أن تكون العلامة واحدة من العلامات الفرعية، وهي -غير الفتحة والكسرة في الممنوع من الصرف، وجمع المؤنث السالم- سبع علامات (الألف في المثنى، والألف في الأسماء الخمسة، والواو (في جمع المذكر السالم والأسماء الخمسة)، والياء (فيهما وفي المثنى)، وثبوت النون وحذفها (في الأفعال الخمسة)، وحذف حرف العلة من المضارع المعتل الآخر، في الجزم. وأربع من هذه العلامات السبع مستعملة في العامية، كالياء في المثنى، وجمع المذكر السالم، والواو في الأسماء الخمسة، وثبوت النون وحذفها في الأفعال الخمسة. ومن اليسير على من يربط الفصحى بالعامية أن يقول للمتعلم إن المثنى وجمع المذكر السالم يلزمان الياء كما في العامية إلا في حالة الرفع، فيكون المثنى بالألف، والجمع بالواو، وتلزم الأفعال الخمسة حذف النون إلا في حالة الرفع، فتثبت، إلخ. وهي أمور غاية في السهولة؛ لقياسيتها واطرادها، وقلة ما يخالف العامية منها، وكونها لا تحوج إلى تفكير.

ولما كان التمييز -وهو أصل الإعراب- مسألة عقلية بحتا، كان لزاما أن يُبنَى تعليم الإعراب على تعليم التفكير، والتحليل، قبل كل شيء، حتى يعرف المتعلم معاني الكلام الكلية، وما يترتب عليها من آثار إعرابية. ولكن لما كان التعليم العربي مبنيا على التلقين، ولا يلتفت إلى تعليم التفكير والتحليل، كان كالمحال أن يتعلم الطلاب النحو، وكان حتما أن يجدوا فيه من الصعوبة ما يشكو الشاكون، وهي صعوبة يجدونها في نحو اللغات كلها، لا في نحو العربية وحدها، بل في كل علم يتوقف فهمه على التفكير، وهو من أسباب ما قد رأينا من ضعف الطلاب والأساتيذ في اللغات الأجنبية أيضا. فليس مأتى ما يجد العرب من «صعوبة» العربية من صعوبة نحوها، وإنما من خلل في أساليب التعليم، وهو خلل يمكن إيجازه في أن التعليم العربي يخطف التلامذة

في التعليم الابتدائي عن نفوسهم، ويحول بينهم وبين عقولهم، ويعكف على تلقينهم عبارات، لا يفهمونها، فيُكسبهم طولُ تردادها مناعة من الفهم والتفكير، وهما شرط فهم النحو، بل يفسد عقولهم، حتى إن المرء إذا رأى أحدهم يتكلم، أو رأى عجزه عن فهم أيسر القواعد خُيِّل إليه أنه امرؤ غير سوي، مع أنه قد يكون عاقلا وذكيا. وآية ذلك أن أحدهم إذا سئل إعراب الكلمة، خبط خبط عشواء، وتعبَّث لسانه تعبُّثا، يدل على أنه لا يعقل ما يقول، فنسب الكلمة إلى كل لفظ عَنَّ له من الألفاظ التي سمعها في حصص النحو، ولم يَدْرِ ما تعني، كأن يقول: فاعل، مفعول، بدل، حال، مبتدأ، تمييز، ظرف، إلخ؛ لأنه لا يعي معنى واحد من هذه، وهو دليل على أنه لم يعرَّف حقيقة الإعراب، ولا عُلِّم كيف يفكر، بل ولا علِّم كيف يفهم؛ ولذلك كان كلامه هذيانا؛ لأنه يقول ما لا معنى له عنده، ولا عند غيره. ويعرب أحدهم الكلمة بخلاف ما ينطقها، كأن يقول: هذا رجلٌ، بضم اللام، ثم يقول -إذا أعرب-: «هذا» ضمير، و«رجل» فاعل مجرور بالفتحة، فهو لا يعرف معنى الجر، ولا يميز الفتحة من غيرها، ولسانه يتحرك بمعزل عن عقله، ولم يعلَّم أن يفكر في شيء مما يدرس، وأنه ما شدا من العربية سوى ألفاظ، سمعها تردَّد، ولم يعلَّم ما تعني. وهذا ما عَنيتُ بأن التعليم خطف التلامذة عن أنفسهم، وحال بينهم وبين عقولهم. وهو دليل آخر على ما يفعل مَنْ يوكل إليهم تعليم العربية، ومبلغ أهليتهم لما يتولَّون، فإنهم لا يفعلون أكثر من تلقين الطلاب إعراب عبارات بعينها، يأمرونهم أن يستظهروه، ليسألوهم عنه في الامتحان، فاجتالوهم عن الطريقة التي يمكن أن يُتعلَّم بها النحو بسهولة تامة، وأكسبوهم مناعة من التفكير، ثم أرسخوا في عقولهم أن العربية من الصعوبة بحيث يستحيل أن تُفْهَم، وأن لا فائدة في محاولة فهم قواعدها؛ لما يعلمون من أنفسهم من عدم الاستعداد لفهمها، ولأن الذين علموهم علموهم كما يعلمون غيرهم، وهم إلى ذلك من أزهد في الناس في العلم عامة، وأقلهم إدراكا لقيمته وهي أمور وقفتُ عليها بنفسي، ورأيت بعض من يشكون ضعف الطلاب يتحدثون عنها كما بلوتها، كما قال أحدهم إن أستاذا جامعياً، سأل طلاب السنة الثانية أو الثالثة في الامتحان عن إعراب: «إن التشبُّهَ بالكرام فلاحُ»، فكانت إجابة كثير منهم: إن: حرف جر، التشبه: اسم مجرور،

الباء: حرف جر، الكرام: اسم مجرور. فلاح: فاعل مجرور. وأجاب بعضهم: إن: نصب، التشبه: فاعل منصوب، بالكرام: مجرور، فلاح: مفعول به[١]. وقال آخر إن كثيرا من الطلاب لا يفرقون بين الفعل والاسم، فإذا سئل أحدهم إعراب: «السورُ عالٍ»، قال: «السور» فعل مضارع مرفوع بالفتحة، والمفعول به لا يدري أمنصوب هو أم مرفوع، وكذلك الفاعل، وهو قد سمع بحروف الجر، ولكنه ينصب ما بعدها أو يرفعه، أما الجر بالإضافة، فلا يعلمه -في ظنه- إلا الله والراسخون في العلم[٢]. وهو كلام، ظاهره السخرية، ولكنه لا يعدو الحقيقة، مع أن إعراب الجملتين يسير، ولا يحتاج إلى أكثر من عقل سوي، وإن لم يكن ذكيا، لكن إعراب الطلاب نذير بأن عقولهم ليست سوية، وآية ذلك أن يُعربوا «التشبه» فاعلا، ولا فعْل في الجملة، ويعربوا السور فعلا، وهو ذات، يرونها بأعينهم، ولا يُعْقَل أن تكون فعلا، وهي كذلك، إلا إن كان يجهل ماهية الفعل والاسم، وأن يعربوا الكلمة بعلامة ينطقون غيرها، كما ينطقون «التشبه» بالفتح، ويعربونه اسما مجرورا، وكونه مجرورا يقتضي أن يكون آخره مكسورا؛ إذ هذا هو أصل الجر، وكذلك قولهم إن الفعل مرفوع بالفتحة؛ فهذا يدل على أنهم لا يعرفون الجر، ولا الرفع، ولا الفتح، وإنما يهذون كما يهذي النائم والمريض. ونسبة عدم إدراك حركة الحرف والعجز عن تسميتها إلى الصعوبة غير معقولة، ومن عجز عنهما أو صعُبا عليه، كان غير أهل لأن يتعلم شيئا ألبتة، بالغا ما بلغ من السهولة، وهذا سبب استصعاب بعض الطلاب ما ليس صعبا من علوم العربية، كرسم الهمزة في الكتابة العربية، وعلم العروض والقافية؛ لأن فهمهما يتوقف على معرفة الحركات. ومن علم هذا لم يستغرب أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلُّم العربية ازداد جهلا بها، ونفورا منها، وصدودا عنها، وأنه يتخرج في الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب رسالة قصيرة بلغته، ولو كان متخصصا في العربية[٣]، بل لا يحسن القراءة والكتابة، وهو يحمل الإجازة من قسم العربية.

وقد جرَّبت تعليم الإعراب بالتفكير، بمعزل عن القواعد، فكنت أجعل

---

(١) اللغة العربية ودورها في التشريع والقضاء.

(٢) لغتنا الجميلة لماذا لم تعد جميلة؟ مجلة اليمامة، ١٩٨٣، ٥٤ وما بعدها (نقلا عن: الازدواجية اللغوية الأمارة، ٦٦).

(٣) لغتنا والحياة، ١٩١.

الطالب يفكر في معنى الجملة، وعمَلِ كل كلمة منها، وعلاقتها بغيرها، من جهة العقل فقط، كأنْ يعلم أن هذه الكلمة فعل، لأنها تدل على الحدث والزمن، وتلك فاعل؛ لأنها هي التي فعلت الفعل، أو مفعول به؛ لأن فعل الفاعل وقع عليها، أو حال؛ لأنها تدل على هيئة صاحبها، أو تمييز؛ لأنها أزالت إبهام شيء قبلها، إلخ. وأسأل الطالب أن يتناسى أنه درس القواعد يوما، وألا يميز الكلمة حتى يفهم ما تدل عليه، ويستيقن أنْ قد فهمه، وأن ما سينسب إليها أمر لا يداخله الشك في صحته، كما لا يداخله الشك في أن الاثنين أكبر من الواحد، وليس شيئا يحرِّك به لسانه كيفما اتفق، كما كان يفعل في السنين الخوالي. فوجدت مَن عندهم قابلية للتعلم يتعلمون بسرعة شديدة، ويجيدون الإعراب في أسابيع قليلة، ورأيت الثقة والطمأنينة تبدو عليهم وهم يعربون؛ لأنهم يصدرون فيما يقولون عن تفكير، يثقون به ثقتهم بالبديهيات، ثم أسألهم أن يتابعوا كلام الخطباء والمذيعين، وينظروا علة تحريكهم أواخر الكلم بالحركات التي يحركونها بها، وهل أصابوا فيه أو أخطؤوا، ثم أسألهم أن يلتزموا في كلامهم ما تعلموا، ليقوِّموا ألسنتهم ويعودوها الكلام بالفصحى. وقال لي بعضهم -على وجه يشعر بأن عقله الذي كان قد حيل بينه وبينه، حين كان يَهذي ذلك الهذيان، قد ثاب إليه-: ما هكذا كنت أظن الإعراب، إنه أسهل مما كنت أظن. وقال لي مرة، وقد أتقن الإعراب في أسابيع قليلة، وذلك في آخر فصل له في قسم العربية: لقد عرفت الإعراب في أسابيع، وصرت أدرس إخواني في الثانوية ما يشكل عليهم من النحو، وقد قضيت من عمري في تعلم العربية قبل هذا الفصل ما قضيت، ما فهمته، وإنما ذلك من إهمال من كانوا يعلموننا العربية، «لعنهم الله»! يُحمِّلهم وزر ما كان فيه، وهو حكْم له حظٌّ من الصواب، فإن بعض من يعلِّمون العربية يتولون كبر ضعف الطلاب، واجتوائهم العربية. ومَنْ دَرَّس العربية يعلم أن جل الطلاب الذين يفهمون العربية درَّسهم أساتيذ متميزون، والذين لا يفهمونها، ويكرهونها درَّسهم من ليسوا أهلا لتعليمها، أما أنا، فما درسَّت من طالب، فرأيته يصغي إلي، ويعي ما أقول بسهولة إلا أخبرني بأنْ قد سبقني إليه في التعليم العام مدرس جيد، يعرف ما يدرس من العربية، ويحبها، ويتحمَّس لتعليمها. ولما كان هؤلاء قلة، كان من الممكن القول إن المتميزين

المحبين للعربية من المدرسين في التعليم العام قلة، ولو كانوا أكثر من ذلك لكان الحراص على تعلم العربية من الطلاب مثلهم.

ومن الأخطاء التي ترتكب في تعليم العربية تعليم تلامذة الطور الابتدائي قواعد النحو، وإنما كان ينبغي أن تصبَّ العناية في هذا الطور كله، وفي الطور المتوسط، على إكسابهم مهارات القراءة، والكتابة، والتحدث، والاستيعاب، وهي مهارات، تكتسب بالتعويد، لا بقواعد النحو، فإن هذه تحوج إلى تفكير، يؤود عقول الصغار قبل أن تقوى عليه. فإذا أجادها التلميذ، فقد أجاد العربية بالسليقة، وكانت حاجته إلى القواعد قليلة. لكن هذا يقتضي ألا يَسمع التلميذ في الفصل إلا العربية الفصحى وحدها، وفي المقررات كلها، ومن المعلمين كلهم، وألا يُسْمح له بالتكلم إلا بها، لا أن يُقصَر ذلك على حصص القراءة والأناشيد، تُشرَح بالعامية، ويكون كل ما عدا قراءتها من الدرس بالعامية أيضا، كما هي العادة المتبعة في التعليم العربي. فإذا انتقل إلى الطور الثانوي، ونضج عقله، وتهيأ لتحليل الكلام، واستنباط القواعد، وفهْمها، عُلِّم من النحو ما يلائم عقله، على أن يُقتصَد في التنظير، ويتوسَّع في التطبيق، ويعلَّم النحو من حيث هو مهارة في فهم الكلام وتحليله، لا من حيث هو قواعد نظرية، تعلم بمعزل عن النصوص، كما تعلَّم اللغات الميتة.

وإنما مردُّ حال العربية وما يُشتكى منها إلى أمور، منها الأستاذ، والطالب، والمناهج، وسياسة التعليم. فكثير ممن يتولون تعليم العربية -في أطوار التعليم كلها- غير مؤهلين لتعليمها، وإنما وجَّهتهم المعدَّلات والسياسة اللغوية إلى أقسام العربية، وهم غير راغبين فيها، ولا مؤهلين لدخولها، وأقسام العربية والعلوم الشرعية في الوطن العربي إنما يحال إليها جُفاء الثانوية[1]، وهي تقبل مَن قبلها، وإذا أغلقت الأقسام أبوابها دون ضعاف الطلاب كانت ملاذهم، وقلَّما يقبل عليها الطلاب الأذكياء ذوو المعدلات العالية، ولا تتخير كما تتخير الأقسام العلمية، ولذلك يشيع في بعض الدول العربية أن الطلاب يقولون: إذا لم نجد فرصة للتسجيل، التحقنا بكلية اللغة العربية، لا نصيب لنا، فلنلتحق بكلية اللغة

(١) التعددية اللغوية في الجزائر، ١٥.

العربيـة[١]. وهـي سياسـة متبعـة فـي الوطـن العربـي كله، مبناهـا علـى ازدراء العربية، وعـدم الوعـي بأهميتهـا، ومكانتهـا من الهويـة، وما يتسـم بـه كثير ممن يتولـون إدارة الجامعـات مـن ماديـة، وقلـة وعـي، وعـدم نضـج فكـري، وأنهـم لا يقيمـون كبير وزن لغيـر الأقسـام العلميـة؛ لضعـف العلاقـة بينهـم وبيـن الفكـر والثقافـة؛ فيجعلون أقسـام العلـوم الإنسـانية مسـتودعات لمـن لفظتهـم الأقسـام العلميـة مـن الطـلاب، ويؤثـرون الأقسـام العلميـة بأمثلهـم، وأصلحهـم للتعلـم، وهـي الأقسـام التي يرغب فيهـا الطـلاب أيضـا؛ لأن مسـتقبلها الوظيفـي خير من مسـتقبل تلـك. وكذلك الأمر فـي التعليـم الثانـوي، يَخُـصُّ الشـعب العلميـة بأفضـل الطـلاب، ويخـص الشـعب الأدبية بأضعفهـم، بـل بمـن لا يصلـح للدراسـة ألبتـة[٢]. وهـذا خـلاف مـا يكـون فـي الـدول المتقدمـة؛ فـإن أقسـام اللغـات فيهـا أقسـام النخبـة، ولا يقبـل فيهـا إلا صفـوة الطلبـة وخاصتهـم[٣]. وانظـر -مثـلا- مـا يقـول أحـد الباحثيـن فيمـن يقبـل قسـم العربيـة بجامعـة الإمـارات، وإن كان يصـدق علـى أقسـام العربيـة فـي سـائر الجامعـات العربيـة: كان يُشـترط لدخـول قسـم العربيـة الحصـول علـى معـدل ٦٠ ٪، فـي الثانويـة العامـة، ثـم جُعـل ٧٠ ٪، ولا يشـترط غيـر ذلـك، كتحسـين المعرفـة بالعربيـة، مـع أن بعـض الطالبـات -مثـلا- يعترفـن بأنهـن لا يملـن إلـى العربيـة، ولا يرغبـن فـي دراسـتها، ويعلمـن - مـع ذلـك- أن مصيرهـن - غالبـا - إلـى التعليـم، وكذلـك معظـم خريجـي العربيـة يُسـمَّون مدرسـين، والطالبات اللائـي لا يقبلن في قسـم مـن أقسـام العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة لتدني معدلهـن في الثانويـة، وعدم استيفائهن شـروط القبـول، يقبلـن في قسـم العربية، دون شـرط، والطالبـات اللائي يحصلـن علـى الإنـذار الأكاديمـي الأخيـر، فـي كليـات الجامعـة، أو التخصصـات الإنسـانية، واللائـي هـن علـى وشـك الحصـول علـى الإنـذار النهائـي، ينتقلـن إلـى قسـم العربيـة[٤]. ومـن البديهـي أنهن مـا انتقلن إليه إلا وهن موقنات أن سـينجحن، بحالهـن التـي أُنـذرن بسـببها، وكـدن يفصلـن مـن الجامعـة، لـولا قسـم العربيـة. وقـال أحـد الباحثيـن الجزائرييـن إن شـعبة اللغـة والأدب العربييـن فـي الجامعـة

---

(١) مقترحات لتيسير تدريس اللغة العربية، ٢٠٦.
(٢) تعليم الجهل في زمن العولمة، ٤٣.
(٣) تأهيل معلمي اللغة العربية: الواقع والطموح، ٢٥٢.
(٤) السابق، ٢٥١ - ٢٥٢

الجزائرية مخصصة لمن لم يحصلوا في الثانوية العامة على المعدل الذي تقبله التخصصات الأخرى، ولمن يخفقون في تخصصاتهم، فينقلون إليها. وهي الشعبة التي تستقبل أعدادا ضخمة من الطلاب كل عام[١]. فهي -باختصار- مَجْمع من ليسوا أهلا للدراسة في الجامعة. ويشكو الجزائريون هذا بعينه في الجامعات الجزائرية[٢]. وقد ترتب على هذا ما قال أحدهم من أن طلاب الشعب الإنسانية والأدبية أصبحوا أجسادا بلا أرواح، يقعدون على مقاعد الدراسة، وأذهانهم شاردة، ولا يجرؤ أستاذ على مطالبتهم بعمل يعملونه في المنازل؛ لأنهم يئسوا من التعليم والمتعلمين، ومن وعود السياسيين بتوظيفهم بعد التخرج، وهو ما تُبين عنه العبارة التي يرددها الطلاب في تونس: «تقرا ولا ما تقراشْ، المستقبل ما ثَمَّاشْ»[٣]، أي اجتهد أولا تجتهد، لا مستقبل لك. فلما لم تكن للتعليم في الوطن العربي غايات واضحة، تَيَسَّرَ لكل من ضاقت به السبل، وأغلقت في وجهه أبواب التعليم، أن يجد باب العربية مفتوحا، والطريق إليها لاحبا. وأعان على ذلك أن الطلاب لا يتابَعون في التعليم العام، ولا يراقبون مراقبة تربوية، تُعرَف بها ميولهم وقدراتهم، وما يصلحون له من التخصصات؛ ليوجَّهوا إليه؛ فكان من الكثير في الذين يقبلون في أقسام العلوم الإنسانية، ومنها قسم العربية، أن يكونوا من الذين حالت السياسة الأمنية بينهم وبين أن يفصلوا من الدراسة في أطوار التعليم العام، وجَعَلت مهمة من «يعلمهم» حراستهم من التسكع في الشوارع، وألزمت الأساتيذ أن ينجِّحوهم، ولو حصل أحدهم على صفر في الامتحان[٤]. ولهذا كان الذين «يصبرون» حتى ينالوا الشهادة الجامعية يتخرجون وهم يحتاجون إلى دروس لمحو الأمية[٥]؛ لأن من الكثير أن يتخرجوا وهم لا يحسنون القراءة والكتابة، ولا يكادون يفهمون لغة بعض الكتب المقررة عليهم، وفيهم من لا يعرف أكثر من كتابة اسمه؛ لأنه كان إما راغبا عن التعلم، وإما عاجزا عنه، وكان -مع ذلك- موقنا بأنْ سيُعطَى من الدرجات ما لا يستحق؛

---

(١) التعليمية وإشكالية التعريب في الجزائر، ٣١٤ وما بعدها.
(٢) السابق، ٢٤٨ - ٢٨٩.
(٣) تعليم الجهل في زمن العولمة، ٤٣ و٥٢.
(٤) صرخة مغربي، ٣١.
(٥) السابق، ١٩.

لما قد رأى من نجاح أمثاله. ومَن حاورهم، عَلِمَ مبلغ ضعفهم في كل شيء، ومبلغ ما يجتوون العلم، ولكن رغبتهم فيما يُنال به اضطرتهم إلى الصبر على ما يكرهون منه:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوًّا له، ما من صداقته بدُّ

مع أن الدراسة ما كانت تكلفهم غير الحضور وحده. أما الطلاب الذين هم أهل للدراسة، فمن النادر أن يجدوا صعوبة في العربية، وإنما يستوعبونها أفضل مما يستوعبون التخصصات العلمية، ويطربون لها، ولما يدرسون من نحوها وأدبها، وينالون فيها أعلى الدرجات. ولهذا يود أساتيذ العربية لو يوكل إليهم تدريس المقررات العربية العامة، مع أن الأصل أن الأساتيذ الجامعيين يرغبون عن تدريسها، لسهولتها، وقلة ما فيها من مادة علمية، ويسوءهم أن يوكل إليهم تدريس الأقسام الأدبية؛ لِمَا قد علموا من ضعف طلابها، وزهْدهم في التعلم، وكونهم غيرَ أهل للدراسة، فكل جهد يبذل في تعليمهم هدر، وليس له من ثمرة إلا العناء، وسخط الطلاب، ونسبة ضعفهم إلى صعوبة العربية، ورسوبِهم فيها إلى من يدرِّسها، مع أن العلوم كلها صعبة عليهم، وهم جديرون بالرسوب فيها جدارتهم بالرسوب في العربية، لكن من دأب الطالب الضعيف أن يذكر كل سبب لإخفاقه، إلا سببه الحقيقي[1]. وبعض الذين يُقبَلون في أقسام العربية يكونون من جُفاء الثانويات العلمية، فيكون ما درسوا من العربية يسيرا فيما درس طلاب الأقسام الأدبية، فيَجمعون إلى قلة الذكاء وضعف المعدل قلةَ الزاد من العربية، وإن كان من درسها منهم ومن لم يدرسها سواء في الضعف. ثم يكيف الأساتيذ الدراسة مع حالهم وحال أمثالهم من الطلاب، فيقدمون لهم مادة هزيلة، ثم ينجِّحونهم، وهم عالمون بأنهم غير جديرين بالنجاح. أما الطلاب المتميزون الذين يدخلون أقسام العربية قليلا أو نادرا، فمن الغالب أن يتجهوا إلى الدراسات العليا بعد التخرج، ثم إلى العمل في التعليم العالي، ولهذا يغلب على من يتولون التعليم العام أن يكونوا من الخريجين الذين ليسوا أهلا للتعليم، كما لم يكونوا أهلا للتعلم، فيتولون حذو الطلاب على أنفسهم، إلا أن يفلت منهم محظوظ، لأهله به عناية، أو ذو حظ من الذكاء، يغنيه عن معلميه

---

(١) العربية تواجه التحديات.

وما يقدمون له. وهذا عكس ما يقع في الدول المتقدمة؛ فإنها تنتقي لتعليم اللغة ذوي الكفايات والخبرات العالية من المدرسين في مختلف أطوار التعليم، ولا سيما الابتدائي والإعدادي، وربما اختيروا من ذوي الشهادات العليا كحملة الدكتوراه، ثم يعطون مزايا خاصة، لا يحظى بها غيرهم من ذوي التخصصات الأخرى، كصلاحية اختيار النماذج المناسبة للتلامذة، وتقليل العبء الدراسي، والحرية في اختيار الساعات المناسبة للحصص الدراسية، والحصول على وسائل التطوير المعرفي، وتخصيص ميزانيات مالية لأنشطة بعينها يقترحونها، فضلا عن الحوافز المالية والمعنوية الخاصة[1].

ومن عجيب الاتفاق أني وجدت ما يقول أساتيذ العربية في الجامعات الإيرانية، في طلاب العربية بها، في أطوار التعليم كلها، يطابق حال طلابها من العرب، في كل شيء، حتى كأنما يتكلمون عن تعليم العربية في قطر العربي، لا في إيران، كما قال أحدهم: معلمو العربية في التعليم العام إنما أَخَصُّوا في العربية للحصول على شهادة جامعية، تؤهلهم للالتحاق بعمل حكومي، وتحض المراسيم الوزارية المعلمين على تنجيح من ليس أهلا للنجاح من الطلاب، وتَعِدُهم الامتيازات الوظيفية إذا ارتفعت درجات تلامذتهم، وتتوعد من قلَّت درجاتهم عنده بالفَصْل والعقاب. ويترتب على هذا تخريج طلاب ضعاف، لا يفقهون شيئا مما درسوا، كما يترتب عليه كره العربية[2]. وقال بعضهم إن خريجي العربية الآن غير مُعَدِّين للتعليم إعدادا كافيا، وأكثر المدرسين لا يحسنون التكلم بالعربية، ويرتبكون في المناقشات وتقديم الطلبات، والحديث بالعربية، وإدارة الاجتماعات، وكتابة محاضر الجلسات، إلخ، وهم عوامٌّ في شرحهم وتعليمهم، ولا يقدِّمون لتلامذتهم حقائق بينة، ويضيقون ذرعا بالعربية، ويُرْسخون في نفوس التلامذة كراهيتها واحتقارها. وكلما سار الطالب شأوا في دراستها، ازداد نأيا عنها، وجهلاً بها، ونفوراً منها، وصدوداً عنها. وقد يَمْضي في التعليم الى آخره، فيتخرج في الجامعة، وهو لا يستطيع أن يكتب كتابا قصيرا[3].

---

(١) التحديات التي تواجه اللغة العربية المعاصرة في تعلمها والتعليم بها في دول الخليج العربي، ٣٣٢ وما بعدها.
(٢) واقع اللغة العربية في الجامعات الإيرانية، ٤.
(٣) واقع تعليم اللغة العربية وآدابها في الجامعات الإيرانية، ٢ وما بعدها.

ويدل التوافق الذي لا خفاء به على ما بين السياستين اللغويتين العربية والإيرانية تجاه العربية من شبه، وهو شبه لا يمكن حمله إلا على أن العربية ليست بذات بال عندهم، إذن لكان حرصهم على أن يتقنها الطلاب أشد من حرصهم على أن ينجح فيها من ليس أهلا للنجاح. إلا أن للإيرانيين من العذر ما ليس للعرب، فليست العربية بلغتهم، ولهم لغة غيرها، قد تكون عنايتهم بها أشد من عنايتهم بالعربية، وإن كانوا لا يُعذَرُون في التساهل في التنجيح فيها على هذا الوجه، ولا في جعْل تعليمها صوريا، كما لا يعذر فيه من يفعله، كائنا ما كان تخصصه، فإن التعليم إما أن يكون جادا منتجا، وإما ألا يكون، أما أن ينفق عليه من الأموال ما ينفق ثم تصدر المراسيم من الوزراء بأن تكون مخرجاته رديئة، وبأن يعاقب أو يفصل من عمله من لا يعين على رداءتها، ويكافأ من يعين عليها، فمما يعسر على المرء أن يجد له محملا في الخير. غير أنه هو ما يفعل العرب من المحيط إلى الخليج، إلا أنه لا تصدر به مراسيم في العلن كما تصدر في إيران. وقد شكا أحد الغربيين، درَّس في دول الخليج العربي من شيء كهذا، فقال إن كثيرا من الأكاديميين الغربيين يجدون صعوبة بالغة في معاملة طلاب، تعوَّدوا الحفظ والتلقين، وليست لهم عقول منفتحة للنقاش والجدل، ولديهم -مع ذلك- توقُّع مبالغ فيه لما يستحقون من الدرجات، ولأنهم مواطنون خليجيون لهم سلطان كبير، يتيح لهم أن يُلْحِقوا بمن يدرِّسهم ضررا كبيرا[1]، إلا أنه لم يقصر ذلك على تعليم العربية دون غيرها، بعكس ما فعل أساتيذ العربية في إيران. ومن نافلة القول أن خريج تعليم كهذا ليس أهلا لأن يعلم العربية، وإذا وكل إليه، فلن يخرِّج من هم خير منه.

على أن من الحق أن العزوف عن التعلم وبغضه ظاهرةٌ في التعليم العربي في أطواره كلها، وفي تخصصاته كلها، وأن بين المعنيين بالتعليم، كأولياء الطلاب، والمدرسين، والباحثين، والمسؤولين، وعامة الناس، ما يشبه الإجماع على تراجع قيمة المعرفة في نظر الطلاب، وضعف دوافعهم إلى التعلم، وأن علاقتهم بالمقررات علاقة نفعية، كثيرا ما تنتهي بانتهاء الامتحان والحصول على

---

(١) التجارة بالتعليم، ٢٤١ (هامش).

علامة النجاح[1]. وهذا من أسباب أن أغلب الطلاب إنما يعنون بالمقررات التي لها تأثير في المعدل، وأن كل وسيلة تبلِّغ أحدهم ما يريد من النجاح مشروعة، كالدروس الخاصة، والغش، وقد زاد الغشُّ الطينَ بِلَّةً، فأجهز على كل قريحة، وفرَّغ التعليم من معناه، فانقلب كل ما كان ينبغي أن يكون جميلا في التعليم إلى نقيضه[2]، وهو مستفحل في أطوار التعليم كلها، وصار «صناعة ثقيلة»، أعانت عليها ثورة التقنية[3]. هذا إلى ما يخامر الطلاب، ولا سيما الأذكياء والجادين، من شعور بعبثية التعليم، مما يرون من عدم وضوح الغايات، وعدم جد المدارس والجامعات في التعليم، وفقدان معايير التقويم فقدانا ساوى الذكي بالغبي، والجاد بالمهمل، وجعل لسان حال المدرسة والجامعة يقول: «النجاح مضمون»، فلا داعي للتعب والاجتهاد[4]، ومن لا يعبأ بالتعليم ينجح كما ينجح المجد الذي يحترق في الدرس والتحصيل. ومن المعلوم أن التعليم في تونس، في عهد زين العابدين بن علي تخلى عن الرسوب من السنة الأولى الابتدائية إلى السنة التاسعة، متعللين بأن التلميذ الذي قد ينقطع عن التعليم بعد السنة التاسعة قد يكون قادرا على دخول سوق العمل، وعدم الوقوع في الأمية من جديد؛ لأنه يكون قد اكتسب في السنين التسع كفايات أساسية، ومهارات عالية، ومنهجا في العمل، وحلِّ المشكلات، تؤهله للمشاركة المؤثرة في الاقتصاد وترقية قدرته على التعلم الذاتي طوال الحياة. فصار الطلاب كلهم ينجحون في السنين التسع، وصارت الجامعات تتكثر من الامتحانات عمدا، ليتهيأ للطلاب أكثر ما يمكن من فرص النجاح، فصار التعليم في أطواره كلها أشبه شيء بالمشروع الخيري[5]. هذا إلى إلزام بعض الجامعات أساتيذها أن يجعلوا الامتحانات، أو أكثرها، موضوعية، كأن تكون اختيارات، أو إشارة إلى العبارات بعلامتي (P) أو (×). فنتج من ذلك أن يتخرج الطالب في قسم العربية

---

(١) انظر مثلا: تقييم تجربة التعليم العالي.

(٢) صرخة مغربي، ٣٥.

(٣) التعليم في الوطن العربي: تقرير المرصد العربي للتربية، ١٣٧، وجامعتنا المريضة، ١٩٧، وتعليم الجهل في زمن العولمة، ٥٠.

(٤) صرخة مغربي، ٣٧.

(٥) تعليم الجهل في زمن العولمة، ٤٠ وما بعدها.

وهو لا يحسن القراءة والكتابة، وخطه رديء رداءة، يتعذر معها أن يُقرَأ، وإذا كتب كتب بالعامية، ولا يستطيع كتابة عبارة عربية صحيحة؛ فزهد الطلاب في التعلم، واحتقروا العلم والتعلم، وصاروا يمزقون الكتب والكراريس في آخر العام الدراسي، وينثرونها في الشوارع أمام المدارس، على مرأى ومسمع من الناس جميعا[1].

ولعل من أسباب ذلك ما يشعر به العرب -في الجملة- من ضياع، وسأم، وأن حياتهم تسير إلى غير غاية، وليس لهم من يقودهم إلى شيء مما تطمح إليه الشعوب السوية؛ فكان الكثير في الطلاب، بل في العرب كلهم، أن يجتووا العلم، كلَّ علم، ومن له صلة بالعلم، كما تبين عن ذلك عبارة رمزية، يقولها الطلاب في المغرب، أو وضعها أحد المربين على لسانهم: اللهم عذِّب المدرسين والمدرسات، الأحياء منهم والأموات، اللهم عذب مدرس الجبر، واجعل له في كل عظم كسر، اللهم عذِّب مدرس التاريخ، واقذفه بعيدا في المريخ، اللهم عذب مدرس الفيزياء، واحفظه في علب كالمومياء، من طلب العلم نام الليالي، ورمى الكتاب وقال: مالي؟![2]. ولا غرو أن تنالَ العربيةُ التي تَهْوِي عليها معاول الهدم من كل مكان، وتُشَنُّ عليها الغارة من الداخل والخارج، منذ ما يزيد على مائة عام، أعظمَ نصيب من تلك البغضاء، وأن تُلتَمس لتلك البغضاء علل، يكيِّفها من يكيدها مع ما يريد من إسقاطها، والتبدل بها.

وأما المناهج، فلا تَتَصوَّر الطرقَ الصحيحة إلى تعليم العربية، وكيف يَكسبها الطلاب، وهي مقصورة على تعليم النحو والصرف، والبلاغة، وتاريخ الأدب، تدرَّس بالعامية كما تدرَّس اللغات الميتة، ويُنهي الطالب تعليمه كله ما تفوه بعبارة عربية فصيحة، إلا أن يُعرِب جملة، أو يقرأ نصا، وربما تخرَّج وما قرأ نصا، ولا سُئل إعراب جملة، ولا سمع من يتكلم بها في شيء مما درَس من المقررات حتى ينال الدكتوراه، إن أتيح له أن يتمادى في الدراسة، وإنما يسمع العامية وحدها، أو العامية ممزوجةً بالفصحى، أو بلغة أجنبية، على وجه، يجعل تعليم العربية لا يختلف عن أحاديث الناس في أمور الحياة العامة؛ لأن المربين

---

(١) تعليم الجهل في زمن العولمة، ٤٣.

(٢) صرخة مغربي، ٣٣ وما بعدها.

-ومنهم العلماء، وأساتيذ الجامعات- لا يُعربون إلا حين يقرؤون في الكتب، فإن تكلموا، غرِقوا وأغرقوا طلابهم في العامية إلى أذقانهم، أو آذانهم[1]. هذا إلى أن ما يُدرَّس من العربية مقررات معدودة، تنسيها مقررات أكثر منها عددا، والزمن المتاح لها أطول، والناس على تعلمها أحرص وأشد إقبالا، وهي تدرَّس بالعامية أيضا. من أجل ذلك كان ما يَبْني مدرس العربية -إن بَنَى- يهدمه مدرسو سائر المقررات[2]. ومما أعان على هذه الحال إخلاء مقررات العربية من حفظ النصوص، وهو مما لا يتأتى تعليم اللغة دونه؛ فهو يهذِّب الصوت، ويصلح النطق، ويفتِق اللسان، ويرسخ صور الكلمات في الذاكرة؛ فيعين على صحة الكتابة، ويغني عن تعلم قواعد الإملاء، ويزود الطالب ثروة من الأساليب والمفردات، ولا سيما إذا كان المحفوظ قرآنا. وقد خسر الطلاب هذه الفوائد الجليلة وغيرها، مذ صرفهم التعليم عن الحفظ، وقصر علاقتهم بالنصوص على المرور عليها مرورا، لا يعين على رسوخ معانيها في القلب، ولا يتأتى معه استحضارها عند الحاجة، فصار الطالب يتخرج وهو نقي الذاكرة، كأنْ لم يمرر يوما على مدرسة ولا جامعة. وقد تمنى بعض الباحثين لو ازدهرت الكتاتيب من جديد، وأعيدت المحفوظات إلى المدارس العربية بعد ما اندثرت، لَمَّا رأى ما مني به الطلاب من خسارة، إذ جُرِّد التعليم من الحفظ، وقال إن من مزايا الحفظ أن المترجمين الدوليين من العرب الذين يحفظون القرآن الكريم متميزون وفائقون[3]. فإن خرج الطالب من المدرسة، وعاد إلى وسائل الإعلام، لم يكد يسمع إلا العامية وحدها. ثم يراد له أن يتقنها، فإن لم يفعل عُدَّ ذلك من صعوبتها وتعقيدها وموتها، وعدم صلاحيتها للحياة! واللغات التي يُعنَى بها أهلها، ويخدمونها، ويحرصون على تعليمها يُلزِم نظامهم المعلمين والأساتيذ جميعا أن يدرِّسوا بها، كائنا ما كان العلم والفن الذي يدرِّسون، كما يدل على ذلك شعار البريطانيين: «كل المدرسين مدرسون للإنجليزية»[4]. ولو أن العربية دُرِّست تدريسا صحيحا، بأن أُلزم المدرسون كلهم التعليم بالفصحى،

---

(١) نقد وإصلاح، ١٦٦.

(٢) اللغة وبناء الذات.

(٣) ازدواجية اللغة والمزاوجة بين اللغات، ٨٦.

(٤) مستقبل اللغة العربية، ٤٠.

وحُرِّمت العامية في المدارس والجامعات، فلم يسمع الطالب في أطوار التعليم كلها غيرها، لأجادها كما يجيد العامية، وكانت معرفته بها معرفة سليقية أو شبه سليقية، لا يحتاج معها إلى كثير من القواعد، وسهُل عليه أن يتكلم بها ويكتب على كل حال، ولو كانت غاية في الصعوبة، فما من لغة -مهما تبلغ من الصعوبة- إلا يمكن إتقانها بهذه الطريقة بسهولة[1]، فكيف إذا جُعِل من مهام وسائل الإعلام تتميم التعليم، تعليما وتوعية، ومُنِعت أن تَستعمل غير الفصحى في المهم من برامجها؟

والطريقة المتبعة في تعليم العربية اليوم هي الطريقة المتبعة في تعليمها منذ قرون، في بلاد العرب وفي بلاد العجم، كما يبدو من قول أحد علماء الترك: إني ليؤسفني عدمُ اهتمام أساتيذ العربية في تركية بغرض تدريسها؛ فلم أسمع يوما أن أحدهم أشار على تلامذتهِ بأنه إنما يدرِّسُهم العربية ليتكلموا بها، وما كان ليشير عليهم بذلك وهو لا يفعله؛ لأنه عاجز عنه، وإنما يقتصر على تحفيظ القواعد، وتدريس الآدابِ والمبادئ. لكن أي فائدة في ذلك إذا كان التلامذة يعجزون عن التكلم بها، بعد أن أنفقوا ثلثَ أعمارهم في دراسة القواعِدِ وحفظِها؟ إن في تركية من يعمل على بقاء تعليم العربية على هذه الحال؛ حتى لا يتمكن الترك من الاتصالِ بإخوانهم العرب، ومنهم من يواطئ الذين يقدسون الأسلوب العثماني العقيمَ، ويعلِّمون العربية بالتركيةِ، ويصرونَ عليه، ويتجنبون أن يتعدَّى اهتمامُهم حفظَ القواعد إلى التكلم بالعربية، أما إتقان العربية وسيلةً للتعبير، فمرفوضٌ عندهم ألبتة[2]. ولعله يعني أكثر شيء عهد الحكومات التركية القومية العلمانية التي كانت خاضعة للاتحاديين، وحزب تركية الفتاة، فإن التجهيل بالعربية كان من أغراضها، ومحاربتها من سياستها. وقد اشتكى من هذه الطريقة بعض العرب كما اشتكى الترك، فقال الدكتور محمد عطية الأبراشي إنه منذ ستين عاما أو تزيد إلى أن استقلت مصر استقلالا ذاتيا عام ١٩٢٣ كان تعليم العربية في المدارس مقصورا على القواعد، أما الأدب، فكان نصيبه من المناهج والحصص ضئيلا جدا، وكانت للسياسة اليد

(١) القديم والجديد، ٦٤

(٢) محاضرة في أهمية اللغة وتدريسها وأهدافها ودورها في بث العلوم والمعارف وتسهيل الاتصالات.

الطولى في ذلك، فقد حاربت العربيةَ، وحجبت آدابها حتى لا يستيقظ الشعب، وتوسَّعت في القواعد؛ حتى يمقت الشباب لغتهم كل المقت لصعوبة القواعد، وخلوِّ المناهج من الآداب، وهي غذاء الشباب الروحي، ومظهر اللغة الجميل؛ فيتطلعون بدلا منها إلى اللغة الأجنبية، ويعدُّونها لغة العلم والأدب والفن[1].

وما زالت تلك السياسة التي اتبعت في تعليم العربية في مصر هي المتبعة في سائر الوطن العربي، إذ كانت مصر رائدة التعليم الحديث، في الوطن العربي، وبمناهجها اقتدَى العرب، وتولى أساتيذها التعليم في كثير من الأقطار العربية، ولا سيما المشرق العربي، فضلا عن أن دراسة العربية على هذا الوجه هي المتبعة في العالم الإسلامي منذ قرون، وكان معروفا عند العلماء أن «العربية» هي النحو، وأن المتون هي الوسيلة إلى تعليمها، فإذا استظهرها الطالب، وتمرَّن على الإعراب عُدَّ عارفا بها، وإن كان أعجميا، لا يبين. وكثير ممن يتولون تعليمها اليوم خريجو مدارس عتيقة، أو تلامذة خريجيها، ولا يفهمون العربية إلا على هذا الوجه، وما تزال أقسام العربية في المشرق العربي تسير على هذه الطريقة، وتدرِّس الكتب التي كانت تدرَّس في العصور المتأخرة، كشروح الألفية. مع أن بعض المتقدمين من العلماء والأدباء ذم هذه الطريقة وحذَّر منها، ودعا إلى الاقتصاد في تعليم النحو، والاقتصار منه على ما لا بد منه، وأبانوا أن النحو دون ما يُظنُّ به، كما قال الجاحظ: «وأما النحو فلا تشغل قلبه (المتعلم المبتدئ) منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب، إن كتبه، وشعرٍ إن أنشده، وشيء إن وصفه. وما زاد على ذلك، فهو مشغلة عما هو أولى به، ومُذهل عما هو أردُّ عليه منه، من رواية المثل والشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع. وإنما يَرغَب في بلوغ غايته، ومجاوزة الاقتصار فيه مَنْ لا يحتاج إلى تعرُّف جسيمات الأمور، والاستنباط لغوامض التدبر، ولمصالح العباد والبلاد، والعلم بالأركان، والقطبِ الذي تدور عليه الرحى، ومَن ليس له حظ غيره، ولا معاش سواه. وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يَضطرُّ إليه شيء»[2]. وقال ابن حزم: «وأما التعمق في علم

---

(١) لغة العرب وكيف ننهض بها، ١٠.

(٢) رسالة المعلمين، ٣/ ٣٨.

النحو ففضول، لا منفعة بها، بل هي مشغلة عن الأوكد، ومقطعة دون الأوجب والأهم، وإنما هي تكاذيب، فما وجه الشغل بما هذه صفته؟. وأما الغرض من هذا العلم، فهي المخاطبة، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط. فمن يزيد في هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه، فحسن، إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل؛ لأنه لا منفعة للتزيد على المقدار الذي ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله معاشا»[1].

ومن الممكن أن يتعلم المرء اللغة، وهو لا يعرف قواعدها الصناعية، كما تعلمها أحمد شوقي ومحمود سامي البارودي وبرعا فيها، من غير أن يتعلما النحو والعروض، وإنما درسا الأدب، ومن دراسته اكتسبا العربية، وصارت معرفتهما بها كالسليقة؛ فكان لهما من التبريز في الأدب، والريادة في الشعر الحديث، ما كان. وقال مونتان إنه تعلم اللاتينية من دون أن يتعلم قواعدها؛ لأن أباه كان قد أجبر أسرته ومعلمه على أن يتكلموا بها وحدها، وما أن دخل جامعة دوجويين، وشرع في تعلم النحو حتى نسيها، بعد أن كان يتكلَّمها بطلاقة[2]. وتُروَى عن العرب الأولين قصص كهذه، فحواها أن تعلمهم النحو أفسد سليقتهم؛ لأنهم ما استطاعوا تصور قواعده. وقال أولين هج -وكان يرى ضرر تعليم اللغة بالنحو-: كان تعليم اللغة الثانية إلى زمننا هذا يبدأ بتعليم النحو، فيُعلَّم المتعلِّم بناء الجمل والعبارات أولُ، ثم يعلَّم كيف يستعملها إذا تكلم. وكان من المفيد أن يتعلَّمَ الكلامَ، ثم يتعلم النحو[3]. وهذا دليل على أن الخطأ الذي يأتيه العرب في تعليم العربية يأتيه غيرهم في تعليم اللغة، ولعله هو المنهج الذي كان متبعا في تعليم اللغات كافة. وسبب ذلك أن اللغة لا تتناهى، ومدة الدراسة متناهية، وما يلائم ذلك أن يعلَّم في المدة المتناهية ما يتناهى، وهو النحو، ثم يُخلَّى بينه وبين سائرها، يتعلم منه ما في وسعه. ولا جرم أن بعض الشعوب الإسلامية غير العربية قد أفادت كثيرا من دراسة متون النحو وتعليم قواعده، لهذا السبب، إلا أنه كان من الممكن الجمع بين الأمرين،

---

(١) رسالة مراتب العلوم، ٤/ ٦٦ وما بعدها.

(٢) تعليم اللغة العربية في إيران، ٣٣.

(٣) السابق، ٣٩.

بحسب الإمكان، ولا سيما إذا كان الدارس عربيا، يعرف القواعد بالسليقة، وإنما يحتاج إلى التنبيه عليها، وهو إلى تقريب عاميته من الفصحى أحوج منه إلى القواعد النظرية البحت.

أما الأدب، فيُقتَصر من تعليمه على تاريخه، وهي طريقة يبدو أنها تُتَّبع في بعض الدول الغربية، في الأقل، كما يبدو من قول تزفتيان تودوروف (فرنسي) إن المدرسة لا تعلمهم عم تتحدث الأعمال الأدبية، وإنما عم يتحدث النقاد، وموضوعات المعرفة هذه كلها أبنية مجردة، ومفاهيم، صاغها التحليل الأدبي لتناول الأعمال الأدبية، ليس فيها ما يتعلق بما تتحدث عنه الأعمال نفسها، ومعناها، والعالَم الذي تستحضره[1]. ولا عهد للتعليم العربي القديم بهذه الطريقة، وإنما كان العلماء يدرِّسون نصوص الأدب، ولا سيما الشعر، وإن كان تدريسها يقتصر -غالبا- على اللغة والأخبار، كما تُبِين عن ذلك طريقة المبرد في «الكامل»، والقالي في «الأمالي»، وكان الأمالي -مثلا- دروسا، يمليها القالي أيام الأخمسة بجامع الزهراء بقرطبة[2].

(٤)

ويُشعر كلام بعض المعنيين بشأن العربية أن العربية معضلة من المعضلات، يجب أن تسهَّل، وألا يُحمَل الناس منها على عنت، وألا يكلَّفوا ما لا طاقة لهم به، وإلا هجروها. وتسهيلها أن يُلْغَى بعضها، ويقرَّب بعض من العامية، ويحذى بعضٌ على اللغات الأجنبية، صرفا وأساليب، ويُقبَل ما يقع فيه المتكلمون بها من لحن، ليكون كل من تكلَّم بها أصاب، وإن كان لا يعرفها، ولم يُعَنِّ نفسه ساعة في تعلمها كما عنَّاها أعواما في تعلم غيرها، وأن يُفتحَ الباب على مصراعيه للدخيل. ويظنون أن ذلك سيغني من الأمر شيئا، وهيهات هيهاتَ! فلا سهل على من لا يريد أن يتعلم، وإنما يريد أن يجد نفسه عارفا بما لم يتعلم معرفته بما تعلَّم، وليس في العالم لغة أو علم يعرفان من غير تعلُّم؛ فمن الخير أن يُكفَّ عن دعوات التيسير؛ لئلا تُمْسَخ العربية مجانا لمن لا تهمه، ولا

---

(١) الأدب في خطر، ١٢ وما بعدها.

(٢) انظر: الأمالي، ١/ ٥.

يريد أن يتعنّى ساعة في تعلمها؛ فإنّ عاقبة مسخها لا تختلف عن المخوف، وهو زوالها، وصيرورتها لغة أعجمية، ليس فيها من العربية إلا بقايا مفردات، تغيرت دلالاتها، كما تغيرت بنيتها، وأُغْرِقت في بحر من الكلم الأعجمي. ولا فرق بين هذا وبين أن يُعدَل عنها إلى الإنجليزية أو الفرنسية، بل العدول عنها إليهما وتَرْكها صحيحة سالمة خير لها؛ فإن إحياءها -إذا تغيرت الحال- أيسر من إصلاحها بعد المسخ، إن كان يمكن إصلاحها، ويمكن أن تبقى طويلا؛ فإن الممسوخ لا تعمَّر.

وفي بعض ما يريدون بالعربية غموض كبير؛ لأنهم لا يبنون ما يقولون على أساس من العلم، ولا يتصورون ما يريدون أن تصير إليه، كأنَّ ما يرون ويريدون هو أن تتغيَّر. وسبب ذلك خوف بعضهم التصريحَ بحقيقة ما يريد، فإن صرَّح بشيء لم يكن إلا ترداد ما قُتِل بحثا، وبُيِّن ما فيه من أفْن، حتى لم يبق فيه مجال للقول. ومن أمثلته ما قال عبد الله العروي، من أن تغيير العربية أمر لا بدَّ منه، لصعوبتها، ولأن تركها على ما هي عليه عظيم التكلفة؛ لما يقتضي من أن يُبذَل في تعلمها أضعافُ ما يَبْذُل بعض الشعوب في تعلم لغاتهم، وأن على العرب أن يعترفوا بأن العربية بالصورة التي هي عليها الآن ليست سوى طور من مسيرة لغوية، لا نهاية لها؛ فيجوز أن تُدخَل عليها إصلاحات في الحرف، والصرف، والنحو، والمعجم، قد تصير معها لسانا، يختلف عن اللسان الحالي اختلافه عن لغة الشعر الجاهلي، وبهذا يبدعون وسيلة للتفاهم سهلة وطيعة، وقادرة على حمل ثقافة جماهيرية وعصرية، أي حاملة في كنهها الإصلاحَ الضروري للتواصل. وهو -كما قال- لا يرى أن تُستبدل العامية بالفصحى، وإنما يرى أن يُقبَل الإصلاح، وما يترتب عليه من تغير حتمي، لا يمكن أحدا أن يتوقع نتيجته[1]. غير أن مقتضى الحكم فيما ستؤول إليه العربية بعد «الإصلاح» المقترح بالسهولة أن يكون عارفا به؛ لأن الحكم على الشيء فرع تصوره، لكنه رغب عن التصريح به، وآثر أن يقول إنه لا يمكن أن يتوقَّع. ولعله يعني أن تُصطنع طرائق اللغتين اليونانية واللاتينية في النحت، والتفئيم[2]، وإسقاط الإعراب، وإبطال التذكير

---

(١) ثقافتنا في ضوء التاريخ، ٢٢٥ - ٢٢٨.

(٢) التفئيم: ما يزاد في الكلمة من سوابق ولواحق وحشو (انظر: نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها، ٣).

والتأنيث، ولزوم طريقة واحدة في الجمع، إلخ ما اقتُرِح قبله، وما يزال يُقترح. وإن كانت العلاقة بين اصطناع طرائق اليونانية واللاتينية وصيرورة العربية لغة جماهيرية غيرَ بينة؛ إذ الذي يصيِّر اللغة جماهيرية أن تكون لهجة، يتفق عليه أكثر الناس، أو لغة قريبة منها، فاللهجات وما قرب منها هي ما تعرفه الجماهير، واصطناع نظام التفئيم اليوناني واللاتيني لا يقرِّب العربية من الجماهير، وإنما يبعِّدها؛ فليس من لهجاتها، وإنما لهجاتها اشتقاقية مثلها. ولا يتضح المراد من أن اللسان الحالي سيختلف عن اللسان الجاهلي أيضا، فاللسان العربي الفصيح لا خلاف بينه وبين العربية الجاهلية إلا في الغريب والحوشي، وما نال دلالة بعض الكلم من تغير، والغريب والحوشي قد ذهبت مقتضيات استعمالهما. أما تغيير الحروف، فيرى أن العرب لو عملوا بمنطق اليُسْر والاقتصاد، لكتبوا العربية (الفصحى والعامية) بالحرف اللاتيني، كما فعلت إندونيسية، وماليزية، والمتكلمون بالسواحلية في شرقي إفريقية، والمتكلمون باللهجات التارية، في آسية الوسطى. ويرى أن بين إصلاح الحروف وانخفاض الأمية في بعض الأقطار التي استعملت الحرف اللاتيني علاقة سببية بيِّنة، كما يبدو من الموازنة بين ماليزية وباكستان وتركية ومصر، وإن كان لا يجزم بذلك[1]. ويرى أن اللهجات العامية ما منعها أن «ترقى»، فتغدو لغات كاللغات التي تفرعت من اللاتينية إلا الحروف العربية، ولو كتبت بالحروف اللاتينية التي تضبط الصوائت، لانفصلت عن الفصحى[2]. كأنه يرى أن انفصال اللهجات عن الفصحى مزية، يُحرَص عليها، مع أنه ادَّعى أنه لا يريد استبدال العامية بالفصحى، ومَن ظنَّ به ذلك، فهو مغترض أو متسرِّع، مع أن قوله هذا يكاد يكون تصريحا بأنه يريده، ولا سيما إذا ضم إليه ما يتوقع من أن تكون العربية الفصحى إذا غيرت لغة جماهيرية، وما يرى من أن تكتب العربية بالحرف اللاتيني. وهو شبيه بما دعا إليه عبد العزيز فهمي من استقلال اللهجات العربية عن الفصحى، وأخذه على العرب أن لم يصطنعوا لهجاتهم لغات، كما فعل بعض دول أوربة. وإن كان قول العروي هذا يخالف قوله إن ما تفرضه الممارسة الحالية هو اصطناع العامية

---

(١) من ديوان السياسة، ٤٧.

(٢) السابق، ٥٦.

في كل ما هو شفهي، مهما تكن الوسيلة والمقام، واصطناع الفصحى فيما هو فكري تأملي، رمزي، أدبا وعلما وفلسفة وتقنية. ويرى أن العامية إذا كتبت، فصُحت، وإذا نُطِقت الفصحى اقتربت من العامية[1]. ومن المعلوم أن ما يرى العروي من الفصل بين الشفهي والكتابي هو ما عليه العرب منذ عقود، ومع ذلك لم يحلَّ إشكالا، ولم يصير العرب إلى خير مما هم عليه، وإنما أوقعهم في ازدواج لغوي، قد رأينا ما ترتب عليه من تبعات.

ويتسم بعض اللغات الأجنبية بالصعوبة، ولكن أهلها لا يغيرونها، لا حين يعلِّمونها أبناءهم، ولا حين يعلمونها غيرهم. فالفرنسية -التي أُغرم بها بعض العرب- فيها من الصعوبة ما يعده أهلُها وغير أهلها معضلات، كما قد رأينا، وقد ذكر الدكتور محمد جابر الأنصاري أنه أُعْجِبَ مرة برأي أنيس فريحة في تيسير العربية، وما كان يسوِّغه به، ثم قُدِّر له أن يدْرس الفرنسية بعد ذلك بعشرين عاما في فرنسة، فهاله ما رأى من تمسُّك الفرنسيين بقواعدها، كأنها نصوص مقدسة، يقدمونها للأجنبي بأفعالها الصعبة المعقدة، وإملائها، وطريقة لفظها التي يشبه المستحيلَ أن يتعلمها غير الفرنسي، دون أدنى تيسير، إلا في طريقة العرض السمعي والبصري، فمن أرادها، أخذها كما هي باستثناءاتها النحوية، وعُقَدها اللفظية، فهي هكذا خلقت، وهكذا تُنطَق، وكذلك تبقى. ووجد أنهم لا يشعرون بعيوبها؛ كعدم اشتمالها على ألفاظ مفردة لما بعد الستين من ألفاظ العقود والأعداد المعطوفة، ولم يقترح أحد من علمائهم ألفاظا لهذه الأعداد تجنِّبها التعقيد، كأن يستعار لها لفظ من الإنجليزية مختصر، يدل عليها[2]. ويريد بعض العرب أن يُغيِّر كل باب من أبواب العربية يجد فيه صعوبة، وإن لم يكن صعبا، كأن يُجعَل فيه وجه واحد، هو أيسر وجوهه، ويلغى ما سواه، ويستبدل كل لفظ يُستثقل، وإن لم يكن ثقيلا. فقد كان من أهم القضايا التي ناقش مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٤٤ أن تسهَّل العربية لغة ونحوا وصرفا، فلا يُلْتَفت إلى ما ورد في الجموع والتأنيث والتذكير وغيرها، ويحذف المترادف من

(١) من ديوان السياسة، ٥٧.

(٢) تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، ١٩٠ وما بعدها.

المعجمات، وكلُّ ما كانت له أسماء كثيرة من المسميات[1]. ودعا بعضهم إلى إلغاء المثنى، وجمع التكسير، والسماح للدارسين بأن يجيئوا بقواعد أو ضوابط أيسر من القواعد[2]. وعدَّ بعضهم من صعوبات العربية ما في الأفعال من مجرد ومزيد، وما يتبع الفعل الثلاثي من «أوزان مختلَّة»، وتعدُّد مصادر الفعل، وبناء الأفعال للمعلوم والمجهول، والإعلال والإبدال، والمعرب والمبني[3]. ودعا إلى أن يعاد النظر في أحكام العدد، فإن قواعد جنس العدد في العربية تعوق تفكير القارئ والمتكلم، فالمتكلم مضطر إلى أن يقف عند كل عدد ليتبين ما يكون عليه تمييزه، ثم يردُّه إلى المفرد، ثم يبحث عن المفرد وجنسه، ثم يطبق القواعد على العدد، ثم ينطق به! وهذا مما ينبغي أن يُعفَى منه غير المتخصصين في النحو، إذ يستحيل عليهم أن يظلوا محافظين على سلامة اللغة مع اتصالهم بالموضوع، إذا كثرت الأعداد فيما يكتبون أو يقرؤون. واقترح أن يُفْصَل بين العدد والمعدود بـ «مِنْ»، ويُلزَم العدد المفرد من ثلاثة إلى عشرة التأنيث، فيقال: خمسة من الرجال، وخمسة من النساء، ويكون سائر الأعداد ثابتَ الجنس (مذكرا أبدا)، على هذا النحو: واحد، اثنان، أحد عشر، اثنا عشر، ثلاثة عشر، واحد وعشرون، اثنان وعشرون، ثلاثة وعشرون، مائة وواحد، مائة واثنان، مائة وثلاثة، ويلي ذلك أبدا تمييز مسبوق بـ «من»، نحو: «من الرجال»، أو من النساء»، فبذلك يكون النطق بالعدد صحيحا وسهلا على الناس جميعا. إذ المهم في اللغة أن يتعود الطالب الكلام بها صحيحة، وألا يكون في حاجة إلى تذكُّر قواعدها في كل حال، وإلا أخطأ فيها؛ إذ كان في ذلك ما يحول دون تفرغه للتفكير في موضوعه[4]. ويُجعَل إعراب العدد على صورة واحدة، ويقدَّر قبله «عدد»، فيقال مثلا: دخل المدارسَ مليونين وثلاثمائة وخمسة عشر ألفا وأربعمائة وخمسة، بالجر دائما على تقدير «عدد». فإن أريدت قراءته، جُعِلَ العدد مبنيا على السكون في «مائة» و«ألف» و«مليون»، فهذه العبارة: دخل المدارسَ من الطلبة ٢٣١٥٤٠٥، تقرأ هكذا: اثنين مليون وثلاثمائة وخمسة

(١) المذكرات، ٢/ ٤٩٥.
(٢) العربية تواجه التحديات.
(٣) رأي في جنس العدد، ١٣٣ وما بعدها، والمذكرات، ٢/ ٥٠٠.
(٤) انظر: أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٣٦٨ وما بعدها، ورأي في جنس العدد، ١٣٣ وما بعدها.

عشر ألف وأربعمائة وخمسة، على ما يشبه الحكاية، وكأن الرقم مستقل، لا علاقة له بالمعدود[1].

وهذا التفكير يدل على ثقافة الكسل التي تريد كل شيء تمرا، وتريد العربية لغة كلغة بعض القبائل البدائية قبل التاريخ، ساذجة بألفاظها وتراكيبها، لا شواذَّ فيها، ولا مركبات، وإنما هي بسائط، يتعلمها من يتعلمها في بضع ساعات، أو بضعة أيام[2]. وصعوبة اللغة وعيوبها -إن كانت- لا تسوغ تغييرها على هذا الوجه، وإنما ينبغي أن تعدَّ قدَرا، كالموقع الجغرافي، والتضاريس، والمناخ، والألوان، والصور، يُصبَر عليها، ويتكيف معها. واللغة لا تغيَّر، على التخصصات، ولا تصنَّف كما تصنَّف المقررات الدراسية، وإنما هي لغة واحدة للناس كافة، وهذا هو الذي جعلها وسيلة تواصل بينهم، وتخصُّص المرء في العلوم وغيرها لا يعفيه من تعلمها، ولا يبيح له انتهاك قواعدها دون المتخصص في غير العلوم. والعدد في الفصحى لا يخالف العدد في العامية إلا في الإعراب، والتذكيرِ والتأنيث، وهو ألفاظ معدودة، وضبطها يسير جدا، وهو إما مبني وإما معرب، ومن رغب في تعلمه، أمكنه تعلمه من غير مشقة، في عشر دقائق، وبقليل من المران تصير المعرفة به سليقة، أو كالسليقة. ولا معنى لعيب المثنى على العربية، ولا لإسقاط جموع التكسير، فما أكثر ما يمكن أن يُذَمَّ ويقترح تغييره من الإنجليزية والفرنسية. والكلام من غير تفكير لا يتجه، ولا ينتج إلا الهذيان، واستحضار قواعد اللغة عند الكلام تفكير، لا غنى لمتكلم عنه، ولو كانت اللغة غير معربة، والمرء يفعله بالفطرة؛ لأن مبناه على معرفة معاني الكلم، والعلائق بينه، والوجه الذي ينبغي أن يُنظَم عليه، ومن عرف هذا عرف الإعراب معرفة تلقائية، إن كانت اللغة معربة؛ لأن الإعراب أثر للنظم. فمن عرف أن هذه الكلمة مبتدأ، وتلك خبر، وهذه حال، وتلك مفعول لأجله، كان أيسرَ شيء عليه أن يحركها بالحركات التي يقتضيها العامل الإعرابي. وتعوُّد التكلم بالفصحى يجعلها كالسليقة، يتكلم بها المرء عن غير وعي بقواعدها، إذ اللغة مزاولة وتعود، وليست بقواعد، تُستظهر، والعادة طبع

---

(١) النحو المعقول، ٥٩.

(٢) المذكرات، ٢/ ٥٠٠.

ثان، وإنما يحول بين مثقفي العرب وذلك استمساكهم بالعامية على كل حال، وعزوفهم عن الفصحى، وهذا لا يترتب عليه إلا صعوبة الفصحى عليهم، وإن سُهِّلَت كما يريدون، وأكثر مما يريدون؛ فالعبرة في اللغة بالتعود، لا بسهولة القواعد، ولا بصعوبتها، فأصعب اللغات لا يشعر أهلها بصعوبتها لما تعودوا من استعمالها، وأسهلها يعسر التكلم به على من لم يتعوده. والذين يريدون أن يطَّرحوا العربية -لما يزعمون من صعوبتها- لم تَحُل بينهم وبين تعلم الفرنسية والألمانية والروسية صعوبتُها، ولا حالت بينهم وبين أن يبعثوا أبناءهم لدراستها في فرنسة، وروسية، وألمانية[1].

واللغة حقيقة اجتماعية، وهذا يعني أن لها وجودا مستقلا عن الفرد، وبمعزَل عن رغباته، وأن من يعطيها الحياة، والوجود، والمعنى، والسيرورة، هو المجتمع[2]، وهو الذي يتصرف فيها. ويجب تمييز النحو نظاما طبيعيًا مخزونا في عقول جماعة من الناس، من النحو الذي هو وصف لذلك النظام الطبيعي. فالنحو بالمعنى الأول خارج عن إرادة الأفراد ورغباتهم، ويتميز بالثبات والاستقرار، وليس مما يَتصرَّف فيه اللغويون، أو يعدُّ في المختبرات، والنحو بالمعنى الثاني عمل فرديٌّ، وكلُّ ما هو فردي عرضة للتبدل والتغير على حسب الاهتمام والأغراض الطارئة. وعدم التمييز بين النوعين من أسباب إخفاق تجارب تيسير النحو العربي في هذا العصر، ومآل كل تجربة اتجهت تلك الوجهة الإخفاق، لا محالة[3]؛ لأنها تفرض على اللغة قواعد من عند اللغوي، أو مستمدة من لغات أخرى، وتجعلها كقطعة الصلصال، يصورها أحدهم كيف يشاء، أو آلات تُركَّب في المصانع، أو أجهزة، يبرمجها المتكلم ليلا، فإذا استيقظ صباحًا فلم يظفر منها بما أراد، غير نظامها[4]. وما من لغة إلا وفيها ما يؤخذ عليها، إذا ووزنت بغيرها، ومع ذلك يُبقي عليها أهلها كما وجدوها، ولا يغيرونها، وفيها ما لا يقبل التغيير إلا ببطء شديد، كالنحو،

---

(١) دراسات لغوية، ٩ وما بعدها.

(٢) العربية تواجه التحديات.

(٣) التبعية اللغوية، ١٢ وما بعدها.

(٤) العربية تواجه التحديات، والتبعية اللغوية، ٨.

والصرف، والأصوات، وفيها ما يقبل التغير والتجدد باستمرار، كالمعجم[1].

ومن التناقض الذي لم يفطن إليه المرحوم محمد كامل حسين، صاحبِ الرأي السابق في العدد، أنه يَنْحَل ما يقول صفة العلم، ويدَّعي أنه يتكلم في كل ما يقول بلسانه، مع أن بعض ما يقول في اللغة مناف للعلم، كقوله إن السليقة اللغوية -كما فهمها الأقدمون- خرافة، وإن اللغة احتذاء وقياس وذوق. وكل كلام له سند من أحد هذه الثلاثة يجب أن يعد صحيحا، وإن خالف القواعد الوضعية[2]. فإن معنى السليقة عند اللغويين أن يتكلم المرء اللغة بطبعه، من غير أن يتعلمها. ومن المسلَّم به أن المرء يكتسب اللغة من مجتمعه اكتسابا تلقائيا، وأنه يكون في السنين الأولى من عمره مزودا قدرة تلقائية على إدراك القواعد والقياس عليها، من غير وعي بها. والسليقة بهذا المعنى شرط ما سماه هو احتذاء وقياسا وذوقا، فبها يحذو المرء ويقيس حذوا وقياسا تلقائيين، من غير أن يتعلم قواعد الحذو والقياس، وهي التي بها يُستحسَن ويستقبَح، ويُسمَّى المعيار الذي يُستحسَن به ويُستقبَح ذوقا، وهو أثر من آثارها، وليس ضدها. غير أن كلام محمد كامل حسين يدل على أنه لم يكن يفهم السليقة هذا الفهم، كما يبدو من قوله إن اللغويين بنوا علومهم على ما سمعوا من أفواه العرب، ولم يكن عندهم أساس غيره، ومن هنا جاءت النظرية التي قالوا بها، وهي أن العربي لا يخطئ[3]، فلما تذكَّر المسألة الزنبورية، وما ورد فيها من تخطئة النحويين أعرابَ الحليمات الذين اعتمد عليهم الكسائي في محاجَّة سيبويه، قال إنها «مسألة سياسية وشخصية، ولم تكن في جوهرها مناقشة لغوية»[4].

ومن المعلوم أن اللغويين البصريين احتاطوا احتياطا شديدا فيمن يأخذون عنه من العرب، فتخيروا أبعدهم من العجم دارا، وأجدرهم بالبقاء على السليقة، وقدَّروا، كما يقدر اللغويون، قديمهم وحديثهم، أنهم يتكلمون على وجه لا يخطئ صاحبه، إذ لا مقتضى لخطئه، فليس في مقام ضرورة، كالشعر والسجع، وليس بعقله خلل، واللغة التي يتكلمها يتكلمها بالسليقة، وهو يتكلمها في

---

(١) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٥٧.
(٢) النحو المعقول، ٢٦.
(٣) أخطاء اللغويين، ١١٠.
(٤) الموضع السابق.

أحوال عادية، فالأصل ألا يُخْطِئ فيها، ومن رأوا بكلامه -مع ذلك- خطأ خطَّؤُوه، كما خطَّؤوا بعض شعراء الجاهلية، فمَنْ بعدهم، وتنكبوا الأخذ عن بعض، وعن بعض الأمويين، وخطؤوا بعضا، وإن كانوا يثقون بسليقته، كعمر بن أبي ربيعة، وذي الرمة، وخطَّأ أبو عمرو بن العلاء أبا خيرة، وهو أعرابي، وقال له: «لان جلدك، يا أبا خيرة»، أي فسدت سليقتك، لتأثره بلغة أهل الحاضرة، وتنكبوا الأخذ عن نصارى العرب، ومن جاورهم من الأمم، وخطؤوا بعض قراء القرآن، وأبوا أن يحتجوا بأكثر الحديث، ولَحَّنوا رواته. ولم تكن ثقتهم بمن وثقوا به اعتباطا، ولا ضربة لازب. أما الذوق عنده، ولا سيما ما قال في مقاله هذا (النحو المعقول)، فأقرب إلى ما يخف على نفس من لا يريد أن يَكْلَف شيئا.

وقد رأيت التناقض، وعدمَ التساوق، والحرص على التحلل من قواعد اللغة، وترْكَ الحبل على الغارب لكل من تعاطَى القول، وإن كان غير أهل لأن يتعاطاه، وطولَ الانتقاد على اللغويين الأولين والآخرين، ووسْمهم بالتحكم، وعدَّ اللحن عونا على التقدم، ولزومَ الصواب عوقا عنه، سمةً من سمات ما يكتب محمد كامل حسين -رحمه الله-، وهي ظاهرة فيما يكتب الذين يقحمون أنفسهم في الكتابة من غير أن يُعِدُّوا لها عدتها من اللغة والأدب، ويضيقون ذرعا بأن يؤخذ عليهم ما يقعون فيه من خطأ، الأصل ألا ينجو منه من كان مثلهم؛ فيبغون اللغة عوجا؛ لئلا يُخَطَّأ من لا علم عنده، إذا أخطأ. وله في ذلك كلام كثير، يتجرد من العلم، على وجه، يعرفه كل من تعوَّد أن يقرأ كلام أمثاله. وهو دليل على صحة ما قال عبد الصبور شاهين، من أنه «لم يكن لغويا بالمعنى الصحيح، بل كان من هواة المباحث اللغوية في مجال واحد، هو مجال الاصطلاحات، فحسب، وكان هذا هو مقدار اللغة العلمية عنده، بعامة»[1]. ومما يصدِّق ذلك قوله: ليست العربية بدعا من اللغات، ومن المستحيل أن يكون فصحاء العرب أَلَمُّوا بهذه القواعد إلماما تلقائيا، مهما تكن سليقتهم مبرأة من كل عيب[2]؛ فمن المسلمات أن كل قوم يعرفون لغتهم بالسليقة معرفة غير واعية، مهما تبلغ من

---

(١) العربية لغة العلوم والتقنية، ٨٦.

(٢) النحو المعقول، ٢٦.

الصعوبة والتعقيد، في نظر غيرهم. فإن كان لا يعرف هذا، فهو لا يعرف ما ينتقد على لغويي العرب ما قالوا في السليقة؛ لأنه لم يفهم ما أرادوا بها، وإن كان يعرفه، فهو يشكك في أمانة اللغويين الذين دونوا العربية، ويتهمهم بالزيادة في قواعدها ما ليس منها، وهو مما صرح به في بعض ما كتب، كإنكاره ما ذكر اللغويون من فروق بين معاني مفردات بعض الحقول الدلالية، وقوله إن ذلك كان من صنعهم، وليس فيه ما يصح[1]، مع أن بعضه ما يزال معروفا في بعض العاميات العربية، كالفروق بين أسماء اللبن، وإنكارُه من إنكار الضروريات. وما دام هذا الخلل موجودا، وكل من بدا له أن يقول في العربية قال، من غير أن يكون مؤهلا للقول، ووجد من يسمع له، ويعتدُّ بقوله، فلن تقوم للعربية قائمة، وإن صيغت على غرار الإسبرانتو، فما العبرة بسهولة اللغة أو صعوبتها، وإنما بالذين يرادون على تعلمها، فهم أمة «منسحبة من الحضارة»، يتملَّكها الكسل، والأثرة، والزهد في الكمال، والرضا بما دون الكفاف من العلم والحضارة، والرغبة عن التفكير في بناء أمة، ينال المرء فيها ما ينال المرء في الدول ذات الشأن. ولقد كان ينبغي أن يشعر كل من يقول برأي من هذه الآراء ببالغ الحرج، إذا هو عرف صبر الصينيين واليابانيين على ما قد رأينا من لغتيهم، وعَلِم ما بَلَغوا بهما من تقدم في كل شأن من شؤون الحياة.

ومن قرأ مقترحات محمد كامل حسين وجدها تميل إلى التحكم في العربية، والتوجه بها وجهة تجعلها لغة ساذجة ليس لها نظير في اللغات، ويتجلى ذلك أكثر شيء فيما سماه «النحو المعقول»، وقد أوجزه في عبارة قصيرة، هي: «ليت علي بن أبي طالب قال لأبي الأسود الدؤلي: انْحُ هذا النحو: ارفع الاسم بالخبرية، وانصبه بالتكملة، وجُرَّه بالحروف أو الإضافة، أما الفعل فارفعه حيث لا يكون منصوبا بالغائية، أو مجزوما بنقص أو شرط، واجعل بناء الكلمات التي لا تعرفها على نسق ما تعرفه من مأثور القول؛ إذن لكانت الفصحى اليوم سهلة على جمهور المتعلمين المثقفين، ولكانت صحة الكلام ميسَّرة على أكثر الناس»[2]. ومن رأى بضع الصفحات التي كتب بعد هذه العبارة، علم أن ليست

---

(١) أخطاء اللغويين، ١١٢.

(٢) النحو المعقول، ٢٤.

فيها مبالغة، في نظره، وإنما هي مُبينة عن مذهب الرجل فيما يرى أن يكون عليه نحو العربية، من تيسير مخل؛ فقد استحوذ على فكره «التيسير»، حتى قاده إلى ما لا يعقل، وانتهى به إلى لغة بدْع من اللغات، لا يمكن المرءَ أن يتخيلها، فضلا عن أن يتعلمها أو يفهمها. يظهر ذلك فيما سماه «التكملة»، التي رأى أن يُنْصَب عليها الاسم، فإن من المعلوم أن المنصوبات أكثر المعمولات في العربية، وأن الاقتصار على تسميتها تكملة، لو فرضت دقتها ووضوحها، لا يعين على تعلمها ولا تعلّم العربية، إذ كان لكل منصوب من المعاني ما ليس لغيره، فمعنى الحال وأحكامها غير معنى التميز وأحكامه، ومعنى الظرف وأحكامه غير معنى المفعول المطلق وأحكامه، إلخ. وإذا تعلم المرء قاعدة واحدة، أو بضع قواعد، لا تحيط بقواعد اللغة التي يريد تعلمها، ولا تبين عن معانيها، فهل يصح القول إنه تعلمها؟ أو أن ما اقتصر عليه خير مما ترك؟! ولعله لم يكن يميز مقام التعليم، وما يجب فيه من تفصيل، من مقام التفلسف، وما يكون فيه من إجمال وتعميم، مأتاهما من تطلب الصفات الجامعة بين المختلفات في الظاهر، المتفقات في الماهية، وأن ما يصلح لأحد المقامين لا يصلح للآخر، فتسمية المنصوبات كلها تكملة لا تعلّم العربية، ولا تعين على تبين وظائف الكلم في الجملة، وإن كانت مستحسنة في مقام التفلسف.

ومن سمع بعضَ هؤلاء يذكر صعوبة العربية سمع امرأ مكلوما، يجتويها، ويضيق بها ذرعا، ويجعلها سبب كل ما بالعرب من جهل وتخلف، مع أن المرء حين يحلل كلامه يجده لا يأوي إلى ركن من العلم، وإنما هي عواطف، تستفزها دوافع خفية، تنتحل العلم، وتدعي الغيرة على العربية، والحرص على تطويعها للعلم. ومما لا ينبغي أن يُختلَف فيه أن السهولة والصعوبة إضافيتان، وأن من جهل شيئا عاداه، ومن رغب عنه، اجتواه، ولا معنى لالتماس المخارج لمن كان كذلك، ولا لحَمْلِ ما يقع فيه مِنْ خَطَأ على وجه في اللغة، لا يكون إلا شاذا، أو تخريجا ضعيفا من تخاريج النحويين الذين لا «يُخَطِّئُون»؛ فإن هذا أشبه ما يكون بالعبث بالعربية، وجعْلها بدعا من اللغات، ليست لها قاعدة إلا يمكن خرقها، والإفلات من قيودها، حتى تكون كعدمها. ومن أمثلة ذلك قول أحد المعاصرين -نقلا عن ابن هشام اللَّخمي: «من اتّسع في كلام العرب

ولغاتها لم يكد يلحِّن أحدا؛ ولذلك قال أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد (الأخفش): «أنحى الناس مَنْ لم يلحِّن أحدًا»، وقال الخليل -رحمه الله-: «لغة العرب أكثر من أن يلحَّن متكلم»، وروى الفرَّاء أن الكسائي قال: «على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن فيه إلا القليل»[1]. والذين كتبوا في لحن العامة، وتقويم اللسان، وإصلاح الخطأ قديما وحديثا، فئتان: فئة تقرِّع من يَقلُّون عنها في الصواب، وتخاطب من تعدُّه مخطئا بلهجة، كلُّها تَعَالٍ، وأفعالُ أمرٍ وزَجْر: قُلْ ولا تَقُلْ! فتُشْعِره بالخزي والتقصير، وفئة تلتمس لكلام العامة أصلا في الفصحى[2]. وهو كلام محرف عن موضعه، ومحمول على غيره وجهه، ولو صح أن هذا هو معناه ما كان للعربية نحو، ولا احتيج إلى تعلمها؛ لأن كل من تكلم بها أصاب، وكل قاعدة انتهكها من يجهلها كان لانتهاكه وجه، يُحمل عليه، لا تقل حجيته عن حجية القاعدة. وإنما أراد الفراء والكسائي والأخفش والخليل العرب الأولين الذين كانوا يتكلمون بالسليقة ولا يتخيرون، لبداوتهم، ولم يريدوا أهل الحاضرة؛ فقد علم أهل الحاضرة أن عرب الأمصار تخيروا من لغات العرب لغة، يتكلمون بها جميعا، وعدلوا عن غيرها، ولم يرتضوه، فلا يجوز أن يستعمل في غير ضرورة، كما قال الفراء: «واعلم أن كثيرا مما نهيتك عن الكلام به، من شاذ اللغات، ومستكره الكلام، لو توسَّعتُ بإجازته لرخصت لك أن تقول: رأيت رجلان، ولقلتَ: أردت عن تقول ذاك. ولكنْ وَضعنا ما يتكلم به أهل الحجاز، وما يختار فصحاء أهل الأمصار؛ فلا تلتفت إلى من قال يجوز، فإننا قد سمعناه، إلا أننا نجيزه للأعرابي الذي لا يتخير، ولا نجيز لأهل الحضر والفصاحة أن يقولوا: السلام عليكِم، ولا جئت من عَنْدك، وأشباهه، مما لا نحصيه، من القبيح المرفوض»[3]. وتفسير كلام الفراء بكلامه أولى من تحميله ما لا يحتمل. وقال ابن جني في الباب الذي عقد لأغلاط العرب، عن أبي علي الفارسي: «إنما دخل هذا النحو في كلامهم؛ لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها، ولا قوانين يعتصمون بها، وإنما تهجم بهم

---

(١) المدخل إلى تقويم اللسان، ٥٥.

(٢) حول رد العامي إلى الأصل، ١٣٠ وما بعدها.

(٣) تكملة إصلاح ما تغلط به العامة، ٥.

طباعهم على ما ينطقون به، فربما استهواهم الشيء، فزاغوا به عن القصد»[1].

وإنما روى اللغويون ما رووا من لغات العرب المخالفة للفصحى المرتضاة لغرض علمي بحت، هو معرفة اللسان العربي كله، ما يُرتَضى منه للاستعمال وما لا يُرتضى، وما يُستحسن وما يستقبح، وليخرِّجوا عليه بعض المروي من شاذ كلام العرب، كشواذ القراءات، وبعض الأشعار، ونحوها[2]، لا لتستعمل، أو يخرَّج عليها كلام من لا يعرف العربية، فإن الجاهل لا تلتمس له المخارج، وإنما تلتمس للعالم لأنه يأتي ما يأتي عن جهل، فيوافق لغة من اللغات التي لم ترتض في الاستعمال الفصيح، كما قال إبراهيم اليازجي: «التخريج إنما يُنْحى فيما يصدر عن قائله سهوا أو لضرورة، لا فيما يُرتكب عن جهل، أو في سعة من اجتنابه، ولا على أن يُجعل قاعدة، يسوَّغ بها ركوب الشطط، ثم تُتكلَّف له الأعذار الباردة، والحجج الواهنة»[3]. ورمى بعضهم الذين تعرضوا للإصلاح اللغوي بالتشدد[4]، وردوا عليهم بتصحيح بعض ما خطَّؤوا، وهو حكم غير دقيق، فالمرء إنما يخطِّئ ويصوِّب بحسب علمه، والشواهد التي استدل بها راموهم بالتشدد لم يكونوا يعرفونها، ولو عرفوها ما خطؤوا من وافقها، وفوق كل ذي علم عليم. وإنما يصح الحكم بالتشدد على من يعرف ما استشهد به هؤلاء ثم رفضه لسبب غير مقنع، أو ذهابا إلى وجه ضعيف. على أن بعض هؤلاء اللغويين كان له مذهب صحيح في منع بعض ما روي عن العرب، هو أن لهجات العرب لا تنتهي، ويجب أن تتخير للناس لغة ذات قواعد، يلتزمونها، ولا يرخص لهم في الحيدة عنها، وإنما يُقبل غيرها من اللغات واللهجات من أهله؛ لأنهم لا يعرفون غيره، وكانوا أعرابا لا يتخيرون، ولا علم لهم بالقواعد، ولا بما اختار أهل الحاضرة، ومنهم من سبق تدوين اللغة وقواعدها. وكما لا يُرتضى استعمال بعض اللغات المروية عن العرب، كالكشكة، والكسكسة، والتلتلة، والطمطمانية، والاستنطاء، إلخ، وهي لغات صحيحة، وقرئ ببعضها القرآن، واستعمل في الشعر، وغيره من الكلام الفصيح، وكان بعضها أشيع وأكثر

---

(١) الخصائص، ٣/ ٢٧٣.

(٢) انظر: لغة قريش، ٣٨١ و٤٥٣.

(٣) لغة الجرائد، ١٣.

(٤) النقد اللغوي بين التحرر والجمود، ٣٧ وما بعدها.

ستعمالا من ضده الذي ارتُضي في الفصحى، لا يقبل بعض اللغات[1]، في غير ضرورة، حرصا على طرد القاعدة، وتيسيرا على المتعلمين. وما فعل هؤلاء هو ما تفعله الأمم التي تصطفي من لسانها لغة، تجعلها هي اللغة الرسمية التي يفيء إليها الشعب كله. وقد كان اللغويون الأولون يعون ما فعلوا من أول يوم، كما يبدو من قول بعض اللغويين الأقدمين: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغة. والسماح بالعدول عن اللغة المرتضاة يوقع العربية في فوضى، يستحيل معها ضبطها، فإن كثيرا من الوجوه التي يخرَّج عليها ما خالف اللغة المرتضاة مأخوذ من الشعر، ومعلوم ما بني عليه الشعر من ضيق وضرورة، وروايات، لا يُعلم مبلغ صحة بعضها، وهي إذا خالفت رواية الصُّدُق الأثبات وجب أن يرتاب فيها. وما يقوله بعض منتقدي التخطيء كان يقوله بعض القدامى، وإن اختلفت الدوافع: كان القدامى يحرصون على دفع الخطأ عن الأولين؛ «لأن اللغة والإعراب عنهم أخذا، فلو جعلوا ما جاء عنهم غير جائز في لغتهم بطل الاستشهاد بأشعارهم»، لكنهم ما كانوا يجيزون ما وقعوا فيه لغيرهم[2]. هذا إلى ما قال القاضي الجرجاني من أن الأولين «جُدُّوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة»، ولولا ذلك، «لوجدتَ كثيرا من أشعارهم معيبة مترذّلة، ومردودة منفية، لكن هذا الظن الجميل، والاعتقاد الحسن، ستر عليهم، ونفى الظنة عنهم، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام»[3]. غير أن كل ما خرَّجوا عليه أغاليطهم يشهد القلب أن المحرك له، والباعث عليه «شدة إعظام المتقدم، والكَلَف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد، أو ألِفته النفس»[4]. وقد خطأهم فيه بعض العلماء، فقال ابن قتيبة إنهم لم يأتوا بشيء يرضى، ولا يخفى «على أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيال وتمويه»[5]، وقال أحمد بن فارس: «وكل الذي ذكره النحويون في إجازة ذلك، والاحتجاج له، جنس من التكلف. ولو صح ذلك، لصلح النصب

---

(١) النقد اللغوي بين التحرر والجمود، ٤٥.

(٢) التذكرة الحمدونية، ٢/ ٣٧٥.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ٤.

(٤) السابق، ١٠.

(٥) الشعر والشعراء، ١/ ٨٩ وما بعدها.

موضع الخفض، والمد موضع القصر»[1]. بل ذهب ابن حزم إلى ما هو أبعد من ذلك، فقال إن التعمق في علم النحو فضول، لا منفعة بها، وإنما هي تكاذيب[2].
أما المحدثون، فدافعهم فيه التيسير، وجعْل كل من تكلم بالعربية، أصاب، وإن أخطأ. وقد أخطأ هؤلاء وأولئك بما تنكبوا من سبيل العلم، وعصموا من غير المعصومين، وصححوا من الأخطاء، حتى تلك التي ليس لها علاقة باللغة، كالتماس المخارج لمن سمى سليمان سلاَّمًا، ونسب قُدار بن سالف إلى عاد وهو من ثمود، وفتحوا من أبواب اللغة فتحا تعذر معه أن تضبط ويحاط بمعرفة المدون منها؛ لأن كل شيء رُوِيَ يُروَى ضده، بناء على رواية لم يُتحقَّق من صحتها، أو ضرورةٍ، اضطر إليها الشاعر، أو خطأ صريح، وقع فيه، أو تغيير تعمده أحد اللغويين لحاجة في نفسه. وظن هؤلاء أن في هذا تيسيرا ورفعا للحرج، وقد يكون كذلك في حق من يخرِّج خطؤه على وجه صحيح، أو يحمل على ما يدفع عنه الخطأ، لكنه عسَّر على غيره من متعلمي اللغة، بما خرق من قواعدها خرقا ضاعفها، إذ كل شذوذ عنها يساويها في الحجية، وجواز العمل به. ولا بأس بذكر كل خلاف وشذوذ في كتب النحو المتخصصة، على سبيل استقصاء ما في اللسان العربي من وجوه ولغات، لا لتنقض به القواعد، ويشغب على النقاد اللغويين دفاعا عمن لا يعرف[3]، أو لاستعراض القدرة على التمحل، والتماس المعاذير لأخطاء الجاهلين. وخير من هذا ونحوه وأجدى على العربية أن يُردَّ المخطئ إلى الصواب، ويبين وجه الخطأ فيما أتى، بدلا من أن تنقض القواعد، وتتجاوز حقائق اللغة وثوابتها. أما زعم أن «التمسك بالأفصح مبدأ يضر باللغة، ويحرمها صيغا وأساليب كثيرة، ويجعلها في نظر المتكلم وعرة الجانب، عزيزة المنال»[4]، فما يقوله إلا من ينظر إلى القضية من جانب واحد، فكثرة الصيغ في معنى واحد، وكثرة الوجوه، والمستثنيات، هي التي تجعل معرفة اللغة وعرة الجانب عزيزة المنال، ليست لها قواعد، فكيف إذا لم يكن للصيغ والوجوه مزايا في نفسها، وهي -على تعددها- تؤدي معنى واحدا؟.

---

(١) ذم الخطأ في الشعر، ٢٣.
(٢) رسالة مراتب العلوم، ٤/ ٦٦ وما بعدها.
(٣) قل ولا تقل، ١/ ٢٠.
(٤) النقد اللغوي بين التحرر والجمود، ٤٦، ١٠.

ومن طريف ما يذهب إليه بعضهم أنهم إذا وجدوا المرء تنكب الصواب، التمسوا له مخرجا في الشذوذ، فإن قاس الشاذ على المسموع (كأن يبني «هْرِع» للمعلوم، فيقول «هَرَعَ»، على خلاف المسموع عن العرب، قالوا إنه تكلم على الأصل، فما ينبغي أن يخطَّأ. ولزوم المسموع واجب كلزوم المقيس، ومن رجع بالشاذ إلى القياس، فقد أخطأ، كما أن من خالف القاعدة، فقد أخطأ، وأن القياس متمكن في طباع الذين يتكلمون اللغة بالسليقة، فإذا حادوا عنه، فما ينبغي أن يردوا إليه، ولا أن يؤذن لغيرهم أن يلتزموه، وإن كان هو الأصل. والأصل في اللغة السماع، أما القياس، فلا يلجأ إليه إلا عند عدم السماع؛ لأن غايته تبيُّن حكم مجهول من معلوم، فإذا لم يكن مجهول، بطل القياس. وما أظن أن الإنجليز يسوغون لمن لا يعرف الإنجليزية أن يجمع foot وtooth و man بزيادة سين في آخرها، لأن ذلك هو القياس، بدلا من جمعها على feet وteeth وmen، ولا أنهم يجيزون جمع الكلمة التي توافق واحدة من هذه الكلمات في وزنها كما تجمع، كأن يجمعوا fan على fen، كما تجمع man على men؛ لأنها على وزنها. ولقد كان خيرا من هذا أن يرشَد المخطئ إلى الصواب، بدلا من أن يصوب خطؤه، ويُرَى أن جهله تمكُّن سليقة، فيتجرأ غيره على أن يحذو حذوه، ولا يلتفت إلى دراسة اللغة تعويلا على أن ما خطر له سيكون له وجه في الصواب، يغنيه عنها. ثم إن ما تنكب العرب قد استعملوا ما يقوم مقامه، واستعماله هو الذي ينبغي. وخيرٌ من المعادل وبنيات الطريق التي كَلِف بها بعض النحويين أن يتجه اللغويون إلى الإقناع باستصدار التشريعات اللغوية الصارمة، والقيام في العمل بها، وفرْض مصححين لغويين على وسائل الإعلام، وفرض رقابة لغوية على ما يصدر عنها، وأن يُفرَض تعلُّم العربية على الشعب كله، وتُفرَض الطرق الصحيحة لتعليمها، والتوعية الجادة التي تُحْدث نقلة ثقافية في المجتمع، تخرجه من البؤس الثقافي الذي يحتلُّ عقوله، ويغتال همه. وإذا كان ذلك، وَجَد الناس أن ما يذيع به بعض الكتَّاب ووسائل الإعلام من صعوبة العربية وهْم كبير، وغُول، يَصرِف بها الكاشحون عن العربية، وينفِّرون منها، ويضعون لها البغضاء في القلوب، وهو جزء من الحرب التي يشنها الاستعمار الغربي على العرب منذ أكثر من قرنين.

وما يرى محمد كامل حسين من صعوبة الإعراب مبالغ فيه، وهو الذي حمله على أن يقترح على مجمع اللغة العربية بالقاهرة ما قد رأينا آنفا في العدد، وبعض قواعد العربية. وما وصَفَ لغوي، عربيا كان أو غربيا، لغة بالتعقيد والصعوبة، ولا نسبها إلى الفوضى والخلط الدلالي، أو نعَتَها بالغموض وصعوبة التحديد، ولا علَّق بها المساوئ المتفشية في الأمم المتخلفة، وإنما ذلك شيء يقوله بعض العرب المحدثين في العربية[1]، وإن لم يكن في وسع واحد منهم أن يقيم دليلا عليه. أما نفي التحديد وعدم النظام عن لغة من اللغات، فيبطلها؛ إذ كان النظام أخص خصائص اللغة، ولا يعقل أن تكون لغةً وليس لها نظام. أما وصْف لغة بالصعوبة والتعقيد، فلا يكون إلا ممن يشتد إعجابه بلغته؛ فيتوهم أن غيرها معقَّد وصعب، وأهلها لا يُبِينون، أو لغوي ساذج، يتوهم أن حقيقة العربية لا يعرفها إلا لغويو الغرب أو أتباعهم من المتغربين، ويرمي العرب بالعَمى اللغوي والثقافي؛ لأن رأيه في التربية والتعليم بالعربية عقيدة، يتقلدها[2].

وإنما كان محمد كامل حسين -رحمه الله- طبيبا، ولم يكن له كبير علم باللغة، وكان -إلي ذلك- مصابا بما أصيب به غيره من العرب عامة، والمصريين خاصة من «عقدة الخواجة»، وما يصاحبها من شعور بهوان النفس، وجلال الغير، والتوق إلى مماثلته، والانحلال فيه، وعدِّ ذلك سبيل الخلاص، وشرطَ النهْضِ والتقدم. أما محمد معموري - وقد اتهم العربية بالصعوبة والتعقيد، والفوضى والخطل الدلالي-، فواحد من الدعاة إلى العامية، وكانت له فيما يقول مآرب، أبان عنها الدكتور محمد الأوراغي، تلميحا وتصريحا، إذ قال إنه يعمل في إحدى الجامعات الأمريكية (جورج تاون)، وقَدِم المغرب مرة موفدا بتمويل من البنك الدولي للاشتراك في ندوة تعليم اللغات التي نظمتها وزارةُ التربية الوطنية في الرباط عام ٢٠٠٠. ولهذه الإشارات دلالات وجيهة في تخطيط السياسة اللغوية بالمغرب[3]، ولم يكن فيما قال مدفوعا بغاية علمية، ولا متقيدا بقيود العلم عامةً، ولا بقيود علم اللغة خاصة، على ما ينتحل من

---

(١) التبعية اللغوية، ٣.

(٢) السابق، ٣.

(٣) مستويات لغوية، ٢٦.

ذلك. على أننا لو سلَّمنا بصحة ما نسب هؤلاء وغيرهم إلى العربية من عيوب، ما كان لذلك من فائدة عملية، وإنما ينبغي أن يعدَّ وصفا نظريا مجردا، ليس له أثر عملي في وظائف اللغة، ولا يعني أنها -إذِ اتصفت به- أقلّ من غيرها شأنا، ولا أن غيرها -إذ سلِمَ منه- خير منها، ولا يفيد سوى المعرفة بخصائص اللغة، وموازنتها بنُظم غيرها من اللغات، وهي «عيوب»، إنما يصح أن تنسب إلى عقول من صنعها من أهل اللغة الأولين، وثقافتهم، أما الآن، فقد نفت العيبَ عنها العادةُ وكثرة الاستعمال؛ لأن الأشكال اللغويَّة تُبين، فيما تُبين عنه، أطوارا سابقة من الثقافة، لا علاقة للثقافة المعاصرة بها[1]. ولهذا كان ما يسميه بعضهم عيوبا لا يعني أن اللغة غير صالحة للعلم والحضارة؛ لأن تلك العيوب إضافية، وإنما ينسبها الناسبون إلى اللغة إذ يوازنون بينها وبين غيرها، وهم الذين يدركونها وحدهم، أما أهل اللغة، فليست «عيوب» لغتهم عيوبا عندهم، ومن الغالب ألا يدركوها، إلا أن ينبهوا عليها، ولا سيما إذا جهلوا غيرها من اللغات، ولم يدرسوا لغتهم دراسة موازِنة، ولذلك يبلغون بها -على ما يكون من «عيوبها»- ما يبلغ غيرهم بلغته «الكاملة»، «المبرأة» من كل عيب، ولا يجدون منها تصعُّبا ولا شِماسا على ما يريدون منها، بل يرونها خير اللغات وأطوعها. لقد قال فندريس -مثلا- إن في الفرنسية كلمة واحدة، تدل على «يؤجِّر ويستأجر»، هي: louer، وفي الألمانية كلمتين لكل من المعنيين: miethen (يستأجر)، وvermiethen (يؤجر)، غير أن في الألمانية فعلا واحدا، يدل على الإعارة والاستعارة، هو lehnen، وفي الفرنسية فعلان يدلان على هذين المعنيين، هما préter (يعير)، و emprunter (يستعير). غير أن السياق يوضح ما يراد من كل كلمة، وإذا لم يكْفِ السياق لم تعدَم اللغة وسيلة لتجنب هذا النقص. ولا تشكو الفرنسية غموضا في louer، ولا الألمانية في Lehnen، كما لا تشكو البريتانية من أن ليس فيها إلا كلمة واحدة (glas) لـ «الأخضر والأزرق»، وهي تستعملها في نحو: «السماء زرقاء»، و«الفاصولياء خضراء»[2]، كما لا يشكو الناطقون بالإنجليزية من أن الإنجليزية ليس فيها سوى ضمير واحد للمخاطب بأنواعه، هو you، وأن الفعل

---

(١) اللغة والمحيط، ٤٨.

(٢) اللغة، ٣٠١ وما بعدها.

المضارع والأمر ليست لهما إلا صيغة واحدة، وأن الماضي والمضارع والأمر واسم المفعول قد تكون لها صيغة واحدة، وأن اسم الذات والفعل المضارع قد يكون لفظهما واحدا، ولا يشعرون بما يأخذ عليها الناطقون بالبنغالية من أنها ليست فيها مفردات، تمد ظلالها لذوي القربى في الأسرة الممتدة، فالأعمام والأخوال، والعمات، والخالات، ليس لهم ما يميز قرابتهم من الأم في الإنجليزية، ولا ما يميز أعمارهم، وكأن ذلك فيها غير مهم، ولا يشعر الناطقون بالبنغالية بما يأخذ الإنجليز على لغتهم من أنها ليس فيها إلا كلمة واحدة للزمن، هي «كال»، للماضي والحاضر والمستقبل[1]. غير أن المدرس الإنجليزي إذا خاطب تلامذته في الفصل، علموا ما يريد بـ you، هل يعنيهم جميعا، أو يعني بعضهم دون بعض، فإنه إذا عناهم جميعا، قال: you are good pupils، وإذا عنى اثنين منهم، قال: both of you are good pupils، وإذا عنى واحدا، قال: you are a good pupil، هذا إلى ما يصحب كلامه من الإشارة والنظر إلى المراد، وإلى المقام الذي هو فيه، هل يقتضي خطابهم جميعا، أو يقتضي خطاب بعضهم دون بعض. أما الكاتب، فله من القرائن اللفظية والمعنوية ما يكفي ليدل القارئ على ما أراد، كأن يقول -إذا كان يتحدث عن امرأة: He told her: you are clever، أو: you are a clever lady. فـ you في الإنجليزية تؤدي ما تؤديه «أنتَ»، و«أنتِ»، و«أنتما»، و«أنتم»، و«أنتنَّ»، والفرق بين اللغتين أن العربية تنص على المراد بكلمة تخصصه، ونصها عليه أغناها عن غيرها من الألفاظ والقرائن المعينة على البيان عن المراد، وأن الإنجليزية تحتاج إلى ألفاظ وقرائن، تُخرج بها الكلمة من الاشتراك إلى التخصيص. غير أن اللغتين متكافأتان في الإبانة عن مراد العرب والإنجليز، ولا يشعر الإنجليز بأنهم في حاجة إلى لغة أخرى للبيان عما يريدون، بل لا يرون أن للغة من اللغات -كالعربية- فضلا على لغتهم، ولا أنها أغنى منها وأدق، ولا أن الكلمة الواحدة تعجز عن البيان عما تبين عنه الكلمات العربية، بل قد يذهبون إلى أن تخصيص المخاطبة بضمير (أنتِ) يختلف عن ضمير المخاطب (أنتَ)، والمخاطبات بضمير (أنتنَّ) يختلف عن ضمير المخاطبين (أنتم) تمييز بين

---

(١) طريق العودة، ٣٠ وما بعدها.

الذكور والإناث، لا داعي له في أحسن الأحوال، إن لم ينسبوه إلى علة ثقافية، وأن تمييز المثنى من المفرد غير منطقي؛ لأن الجمع عندهم ما زاد على الواحد، إلخ. وهذا يعني تكافؤ اللغات، في الجملة، ووفاءها بما يريد أهلها، على ما قد يرى فيها غيرهم من نقص، إذا وازنوها بما عهدوا من لغاتهم، وأن غنى اللغة في جانب لا يعني غناها في كل جانب، ولا أنها خير من غيرها بإطلاق؛ أن فَضَلتْه في شيء، فإن اللغات يفضل بعضها بعضا في أمور دون أمور، فإذا كان في الألمانية -مثلا- لفظان لـ «يؤجر» و«يستأجر»، وليس لهما في الفرنسية إلا لفظ واحد، ففي الفرنسية لفظان لـ «يعير ويستعير»، وليس لهما في الألمانية إلا لفظ واحد. والسياق الذي ترد فيه المفردات يعين على البيان عن المراد، بما يجعل النقص كالكمال، والكمال كالفضول، كما يبين السياق عن المراد من «glas» في البريتانية، هل هو الخضرة أو الزرقة. وليس معنى أن المعنى الذي ليست له مفردة تخصه في اللغة لا وجود له في عقول أهلها، ولا أنهم لا يستطيعون الإبانة عنه، فقد يكون له وجود، ويعبر عنه تعبيرا مبينا، لا يقل عن بيان اللغة التي تخصه بمفردة ثابتة، كما قالت الكاتبة الصينية، أيمي تان -ردا لقول الأمريكيين إن الصينيين، لما يتسمون به من الحياء، ليست في لغتهم مفردات كـ«نعم ولا»- إن سبب خلو الصينية من «نعم ولا» ليس حتما أن يكون الحياء، وإنما جرت عادتهم بأن يستعملوا بدلا منهما ألفاظ السؤال، فإذا سئل الصيني -مثلا- هل أكل، قال: لقد أكلت، أو لم أفعل، وإذا سئل هل عنده تأمين على سيارته، قال: صحيح، أو: ليس لدي. وإذا سئل هل عدل عن ضرب زوجه، قال: لقد عدلت، أو: لم أعدل، أو: لست متزوجا. هل يريد الأمريكيون جوابا أوضح من هذا؟[1]. وينبغي أن نسأل نحن: هل يصح القول إن الإنجليزية أقدر من الصينية على الإجابة عن هذه الأسئلة؛ لأنها تجعل جوابها بـ«نعم» أو «لا»؟!

وليس معنى أن الناطقين بالبنغالية يدلُّون بـ«كَلْ» على أصناف الزمن كلها (الماضي والحاضر والمستقبل)، وأن بعضهم ربما عسر عليه تمييز بعضها من بعض، إذا تعلموا لغة أجنبية، كالإنجليزية[2] أن ليس في لغتهم ما يبين عن أن

---

(١) نعم ولا، ٣٥ و٤٤.

(٢) طريق العودة، ٣٠.

الفعل وقع في الماضي، أو يقع الآن، أو سيقع، ولا أنهم لا يميزون الماضي من الحاضر من المستقبل، ولا يعقلونها، بل يميزون بينها، ويستعملون من الأفعال ما يدل عليها، فيقولون -مثلا-: كَلْ سُو گَيْ (نمتَ أمس)، وكَلْ سُو گا[1] (سأنام غدا)، وآجْ كَلْ سُورا ها[2] (هو نائم الآن)، فتصاريف الفعل المساعد «گَيْ» مع «سو»، ويعني النوم، تدل على الماضي، كما في المثال الأول «گَيْ»، والمستقبل، كما في المثال الثاني «گا»، و«آج»، وهي بمعنى الآن، تدل على الحاضر، وإذا أريد توكيد الدلالة على الماضي، قيل: «كل گوزشتا»، أو أريد توكيد الدلالة على المستقبل قيل: «كل آئندا». وإذا صح ذلك، بان أن اللغة الغنية التي فيها لكل معنى لفظ يخصه، واللغة «الفقيرة» التي يكثر فيها اشتراك المعاني في الألفاظ متساويتان. واللغات في ذلك كأعضاء البدن، تؤدي أعمالها كما يتطلب البدن الذي تكون فيه، وإن فاق بعضها بعضا في الحسن والقوة. فالفرنسية -مثلا- تسمي «سبعين» «خمسين وعشرين»، ولا تخصه بلفظ مفرد كما يخصه به بعض اللغات، وكما تخص هي غيرَه من الأعداد بلفظ مفرد، غير أن هذا اللفظ المركب الذي وضعه الفرنسيون الأولون وما شاكله من الألفاظ يؤدي ما يؤدي اللفظ المفرد في غير الفرنسية، حتى لا فرق بينهما عند الفرنسيين، ولا يشعرون بأنه ثقيل، أو طويل، كما لا يشعرون بما فيه من سذاجة، إذا ووزن بغيره، ولا يعوقهم عن الإبانة عما يبين عنه غيرهم بلفظ واحد، فهو كـ«ميزاب» في الفارسية، أصله «ماز آب»، بمعنى: «الذي يبول الماء»، ويسميه العرب «المِثْعَب»، ولا يجد الفرس في كلمتهم المركبة ثقلا، ولا طولا، ولا يشعرون بما يرى فيها غيرهم من سذاجة. وكأسماء القرابة التي تتبعها (in-law)، في الإنجليزية، مثل mother-in law، لا يشعر الإنجليز بما فيها من طول وسذاجة، إذا قيست بمقابلها العربي الذي لا يزيد على كلمة واحدة (حماة). ومن العادة أن يَنْسى أهل اللغة أصل الكلمة، وتركيبها، إن كانت مركبة، فلا يبقى له وجود في أذهانهم، ولا يستحضرونه إذا نطقوا بها، كما نسي العرب أن أصل «ليس» «لا أيس»، ونسيت قبائل الماندنغو في

---

(١) الألف في «گا» ممالة.

(٢) الألف في «ها» ممالة.

إفريقية أن «كُونوا» -وإن لم يكن مركَّبا- كان بمعنى بطْن، و«كنعْ» كان بمعنى عُنق، وأنهم استعملوا «بطن»، بمعنى «في»، و«عنق» بمعنى «على»؛ لأن البطن في وسط البدن، والعنق في أعلاه، لمَّا لم يكن في لغتهم ما يدل على معنى «في»، و«على»، فهم يقولون: «ضع القلم بطنَ الدواة»، و«اكتب عُنق السبورة»، أي: ضع القلم في الدواة، واكتب على السبورة[1]. فـ«كُونوا»، و«كَنَع» عند الماندنغو مرادفان لـ«في»، و«على»، في العربية، مرادفة تامة، ولا يجدون لهما معنى وراء معنييهما الحاليين، وقد أذهب طول الاستعمال ما كان فيهما من سذاجة وبدائية. وإذا نُسِبت السذاجة في شيء من هذا إلى أمة، فإنما ينبغي أن تنسب إلى سلفها الأول الذي استعمله أول مرة، أما غيره، فإنما جرى على عادة، أُلْفَى عليها سلفه، وليس هو الذي سنها. وقد بينت الدراسات اللغوية أن العبارة تتغير على القرون، فما كان مركَّبا زال تركيبه وغمُض معناه؛ لأنه في حال تركيبه يمكن تحليله وردُّه إلى أصوله، ويكون لهذه الأصول دلالات معينة، وإذا اتَّحدت أجزاؤه اتحادا كلِّيا أصبح لفظا واحدا، لا يستطيع ردَّه إلى أصله المركَّب إلا المتخصصون، وقد يستعصي الأمرُ على الضليع منهم. من ذلك أسماء بعض الأماكن نحو: (Essex)، و(Norfolk)، و(sutton)؛ لا يردُّها إلى أصلها إلا المتمكن من تاريخ الأنجليزية، فهو الذي يعلم أن أصلها على الترتيب (East Saxon)، و(north Folk)، و(South Town)، أمَّا غيره، فإنما يعدُّ كلا منها كلمة واحدة[2]. ووجه السذاجة فيما قد رأينا أن يعبَّر عن الذات بجملة، فيها ما يدل على الحدث والتجدد، كالفعل، أو بعبارة، قد تخفى العلاقة بينها وبين ما تعني، كخفاء العلاقة بين brother-in-law، وmother-in-law، وfather-in-law، إلخ، وما تدل عليه في الإنجليزية على من لا علم له بالثقافة الإنجليزية. ولكن الموازنة بين اللغات تجعل إحداها معيارا، ومحدِّدة للمنطق والتعبير الذي يحتكم إليه، والأخرى محل اتهام وقصور، وغير مهمة، وشديدة البساطة، أو شديدة التعقيد، ومائعة الأصوات، أو نشازا[3].

(١) نشأة اللغات وحاجة الأمة للمجمع اللغوي، ٣٤.

(٢) طريق العودة، ٣٠.

(٣) نعم ولا، ٤٢.

(٥)

وتصدر من بعض العرب دعاوي كثيرة، يعارضون بها العربية الفصحى، من أجل أن يسقطوها من الحياة، لكنها دعاوي قائمة على المبالغة، وقلة العلم بحقائق اللغة، أو تجاهلها، وغض الطرف عن نظير ما يأخذون عليها من اللغات التي يدَّعون لها من الكمال والتميز ما ينزعون من العربية، كقول شريف الشوباشي إن المتكلم بالعربية الفصحى يتكلف ما ليس في طبعه، وكثيرا ما يخطئ في كل جملة يقولها[1]. يعني أنها بخلاف العامية، فإن العربي يتكلم بها فلا يلحن؛ لأنها لغة طبيعية، فلذلك كانت هي «اللغة العربيَّة التي يريدها أن تحيا»[2]، أما العربية التي يريدها أن «تسقط»، فعربية سيبويه، أي العربية الفصحى. والذي يتكلف ويلحن في كل جملة يقولها إذا تكلم بالعربية هو مَنْ ضنَّ بنفسه على تعلمها، واقتصر من دراستها على ما عُلِّم في التعليم العام، مما يعرف قيمتَه كلُّ مطلع على مناهج العربية في الوطن العربي، وكيف تدرَّس، ومن يدرِّسها، وغايات تدريسها، ويريدها مع ذلك طوعَ بنانه، وأن ينقاد بها لسانه -إذا تكلم- كما ينقاد بالعامية. وإذا كان متكلِّفًا، ويتكلم بلغة غير طبيعية، كلُّ من عَدَل عن العامية إلى الفصحى، وكان عرضةً للخطأ، فجلُّ العالم متكلِّف، وعرضة للخطأ، ولغاته الفصحى لغات غير طبيعية، وإنما الطبيعي اللهجات العامية؛ إذ أكثر لغات العالم فيها الفصحى والعامية، ولكل منهما مقام، ولبعض الشعوب وراء العامية والفصحى لغات إقليمية، تتكلم بها في مقامات أخر، كالبروتانية، في فرنسة، فهي تنتمي إلى الكلتية التي كان يَتكلَّم بها الغاليون قبل الغزو اللاتيني، وأهلها مجبرون على الفرنسية الفصحى في المقامات الرسمية، منذ الثورة الفرنسية إلى اليوم، وهم يتكلمون مع عوام الفرنسيين بالعامية الفرنسية، ويتكلمون بالبروتانية فيما بينهم. وفي فلسطين المحتلة شعوب مهاجرة من أصقاع العالم، لكل منها لغته، ولكنهم جميعا يتكلمون بالعبرية في المقامات الرسمية، ولا يُسْمَح لهم باللحن، ويُلزَمون أن يتكلموا بما يُقِرُّ المجمع العبري، وللمجمع من السلطان القانوني ما يُمْضي به قراراته، ويلزم الإدارات والمؤسسات الخاصة والعامة أن

---

(١) لتحيا اللغة العربية، ١١٠.

(٢) امتحان الكفاية اللغوية، ٨ وما بعدها.

تعمل بها، بعد أن يمضيها وزير التعليم والثقافة، وتنشر في الجريدة الرسمية، فتلزمها الدوائر الحكومية والأهلية[1].

ويذهب شريف مذهبا أبعد من هذا، يرى أنه أبلغ في تبيان ما يرى أنه حقيقة العربية، وما بها من صعوبة، جعلتها غيرَ صالحة للحياة، وهو عيب ذاتي فيها، لا يد للعرب فيه. ويعرض مذهبه هذا في صورة سؤال، يرى أنه مُخْرِج لمن يُسْأله من العرب؛ لأنه ذكي، وما اهتدى إليه أحد قبله، ولأنه كذلك كان محرَّما في الثقافة العربية، ومحرَّما أن يُفكَّر فيه، هو: كيف هجر العرب هذه اللغة طوعا، على عشقهم إياها، وتمسُّكهم بها؛ «لأنها اللغة التي نزل بها كتابهم المقدس»؟ ولماذا غدت كأنها لغة إجبارية في تحصيل العلوم والكتابة الرسمية فقط؟ إن الإجابة التي ليس لهذا السؤال إجابة غيرها هي صعوبة العربية وتعقيدها، فهما اللذان جعلا العرب يُعرِضون عنها بالفطرة إلى اللهجات العامية، وجعلاها لا تلائم مقتضيات التفاهم، ونقْلِ المعلومات، وتفسير حقائق العالم[2]. واللهجات العربية لم تستحدث في هذا العصر، وإنما كان يتكلَّم بها العرب منذ الجاهلية، قبل أن تكون الفصحى، ولم يكن استعمالها فرارا من الفصحى، ولا استصعابا لها، وإنما هي من تغير اللغة بالاستعمال تغيرا طبيعيا، وهي موجودة في أكثر لغات العالم، وأسبابها واحدة، أو كالواحدة. أما تعلم العربية فلم يعجز عنه ولا وجده صعبا إلا من يريدها تمرا، ويريد أن توهب له من غير تعلُّم، وأن يكون ما لُقِّن من نحوها وصرفها تلقينا نظريا -على كره منه وممن لقَّنه، وعلى قلةِ اعتنائه به يوم لُقِّنه، وقلة حرصه على تعلمه- كافيا للبراعة فيها، وإذا أخطأ فيما لا يعلم منها -وهو جلها- صُحِّح خطؤه، وعُدَّ عجزه وضعفه مصدرا من مصادر اللغة، وقيس عليه. وهو أمر، ما يجرؤ عليه إلا بعض عرب هذا الزمان! وما علمنا أن فنا أو علما -واللغة فن وعلم- بلغ الراغب فيهما ما أراد منهما بغير سهر ولا عناء، والمَجْد سبيله وعر، وإنما ينال الفضلاءُ الفضلَ بتذليل الصعاب، ومواصلة الكدح[3]:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يُفْقِر، والإقدام قتَّالُ

(١) تعريب العلوم ووضع المصطلحات، ١٤٥.

(٢) لتحيا اللغة العربية، ١١٠ وما بعدها.

(٣) كلمة في اللغة العربية، ١٤ ومابعدها.

وكان يقال: «هناء العلماء والشقاءُ متآخيان، لا يفترقان»، أما تطلّب الراحة، والفرار من التعب، فمن خلائق العامة. والتخلق بأخلاق العامة، والعزوف عن أخلاق العلماء هو الذي باعد بين منتحلي العلم والثقافة في هذا العصر وسِير العلماء والمثقفين في العناية باللغة، ومعرفةِ ما لا ينبغي جهله منها، وعدِّ العدول عن ذلك من أمارات ضعف العقل، وفساد المروءة، كما قال قتادة: «لا أسأل عن عقل رجل لم يدلَّه عقله على أن يتعلَّم من العربية ما يصلح به لسانه»[1]، وقال يونس بن حبيب: «ليس لعيي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حكَّ بيافوخه عنان السماء»[2]. ومن وازن العربية الفصحى بالعاميات العربية وجدها متفقة في الأعم الأغلب، وآية ذلك أنك تجد الكاتب العربي يكتب المقالة أو الكتاب بالفصحى، وهو لا يعرفها، وإنما يعوِّل على ما يعرف من العامية، فيكون كثير مما كتب صحيحا بالفصحى، مع أن لسانه لا ينقاد إلا بما تعلَّم من العامية، ويمكن المرء أن يوازن بين لغة برهان غليون التي يتكلم بها واللغة التي يؤلف بها، إن شاء أن يعرف ما يصدق ذلك. وإذا صح هذا، فمن العجيب أن يستصعب المرء ما يعرف، ويجتوي ما يحب، ويستثقل أن يَحمِل نفسه على تعلم الفروق بين الفصحى والعامية، على قلتها، وسهولة تعلمها، حتى ليرى أن تُخرَج العربية من الحياة فرارا من حَمْل نفسه على تعلُّم ما لا يعرف منها بالسليقة! وعجيب أيضا أن يقول إن العرب عدلوا عن الفصحى إلى العامية؛ لأن الفصحى لا تلائم مقتضيات التفاهم، ونقْلِ المعلومات، وتفسير حقائق العالم؛ فمقتضى هذا أن العامية هي التي تلائم ذلك، مع أنه لا يستطيع أن يذكر مثالا واحدا لعامية عربية، نقلت المعلومات، أو فسرت حقائق العالم. ومن نافلة القول أنه ما ألف كتابه هذا بالفصحى إلا لأن العامية لا تفي بما أراد، وأن الفصحى تضم من المؤلفات الغزيرة، ودوائر المعارف الكثيرة، في كل علم وفن، ومن روائع الأدب شعرا ونثرا ما يدحض ما يريد أن يقرر، مِنْ أن العربية الفصحى لا تصلح لعلم ولا أدب. ويدل ذلك التراث العظيم الضخم على أن العرب ما عجزوا عن التعبير عن أنفسهم بالعربية، ولا أعياهم القول في شأن من شؤون العالم، وإنما أعيا

(١) فطرة الدفاع عن اللغة الأم، ١٥٦.

(٢) البيان والتبيين، ١/ ٧٧.

الذين لا يعرفونها. وقد أَلَّف بها غير المسلمين من اليهود، والنصارى، والصابئة، والمجوس، ممن يكفرون بالقرآن، وكَلِفوا بها كَلَفًا ليس دون كلف المسلمين، وأقرُّوا لها بالتميز على لغات العالم كلها، ومنها لغاتهم، كما لا يزال يقرُّ لها به كثير من العلماء والباحثين من غير العرب والمسلمين. وأَلَّف بها بعض مسلمي العجم، وآثروا التأليف بها على التأليف بلغاتهم.

ولكي يدلل على صعوبة العربية واستحالة تعلمها، ذهب يتسقط ما يدل على أن الأولين ما كانوا يتكلمون بها كما لا يتكلم بها الآخِرون، وقال إننا لا ندري كيف كانوا يتكلمون؛ لأن الموروث المدون يقتصر على الفصحى إلا نادرا. وقد «يفتي» بعضنا بأننا على يقين بما كان يتكلم به العرب في الماضي البعيد، غير أن تلك «الفتوى» أقرب إلى التعالم والادعاء، أو ما سَمَّاه «الفهلوة»، منه إلى المعرفة العلمية[1]. وفسَّر قول المتنبي:

وكِلْمةٍ في طريق، خفتُ أُعْرِبها؛ فيُهتدَى لي، فلم أقدر على اللحنِ

بأن التكلم بعربية سليمة كان يدل على أن المتكلم امرؤ خارق للعادة، وهذا دليل على أن خطأ من تكلم بالفصحى كان هو القاعدة، أما إصابته، فشاذَّة، ولذلك كان عدم لحن المتنبي دليلا على أنه من الصفوة. أراد أن العربية من الصعوبة بحيث لا يتكلم بها أحد إلا لحن، وأن عدم معرفتها كان غالبا على عرب ذلك الزمان، فلا غرو أن يغلب على عرب هذا الزمان[2]. وإنما أراد المتنبي «أنه مطبوع على الفصاحة، ولا يقدر أن يفارقها إلى الخطأ»[3]، وكان يخافُ -إن تكلم بكلام بليغ- أن يُستدَلَّ عليه بمنطقه، وإنما كان يستره أن يتكلم بكلام العامة، ويلحن كما يلحنون، بيد أن لسانه ما كان يطاوعه. والمراد بالكلمة هاهنا القصيدة، والخطبة، والكلام، لا الكلمة المفردة، ولا العبارة. واللغة والبلاغة من علوم الخواص، في كل زمان، ومكان، وكلِّ لغة، وليسا من شأن العوام، ولا يكون مراد المتنبي من العلم باللغة إلا ما يدل على تميز ونباهة، أما حركات الإعراب، وما في منزلتها، فكانت تعلَّم في الكتَّاب في زمانه، وما كان

---

(١) لتحيا اللغة العربية، ١١٢.

(٢) السابق، ١١٨.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي، ٤/ ٢١٢.

في معرفتها ما يفخر به الشعراء والأدباء. ومن طريف ما يُذْكر هاهنا -لموافقته ما نحن بسبيله- ما ذكر عبد الله الدنَّان من أن بنته حدَّثته أن طالبات صينيات، زرن كلية التربية بجامعة دمشق عام ٢٠٠٥، فكنَّ يكلِّمن الطالبات السوريات بالعربية الفصحى، وقد تعلمنها في الصين، فكانت السوريات يجدن صعوبة في التكلم بها، وكانت الصينيات يتعجبن من ذلك[١]. فعرب هذا الزمان يجدون من صعوبة العربية ما لا يجد الصينيون. ويقع مثل ذلك في المغرب العربي: يستصعب بعض أهله العربية والتكلم بها، ويستسهلون الفرنسية، ولا يَحْرَجون أن يروا الأجانب إذا زاروهم يتكلمون بالعربية الفصحى بطلاقة.

وقال في قول محمد عبده: «فحملني عدم الفهم على الهرب من طلب العلم لتمكن اليأس من نفسي»: إذا كان محمد عبده عذَّبته قواعد العربية منذ نحو مائة وخمسين عاما، فكيف لا تعذِّب شبابنا اليوم؟[٢]. وإنما قال الشيخ محمد عبده: «وبدأت بتلقي «شرح الكفراوي على الأجرومية»، في المسجد الأحمدي بطنطا، وقضيت سنة ونصفا، لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم، فإن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لا يعرفها؛ فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس»[٣]. وليس في هذا ما يدل على أنه كان يستصعب النحو، ولا أن «قواعد العربية عذَّبته»، وإنما ذمَّ الطريقة التي كانت تدرَّس بها العلوم، ومنها النحو، وأن من يدرِّسها كانوا لا يعتنون بتفهيم اصطلاحاتها، فلما وجد من يحسن التدريس، فهم ما كان يقرأ ويسمع، ومنه «شرح الأجرومية»[٤]. ومن أجل أن يرفع حرج الجهل بالعربية عن العلماء والمثقفين جعل فشوَّ الجهل بها دليلا على أن العيب فيها، وليس فيهم، فما كانوا ليُجْمِعوا على الجهل بها، لو لم يكن بها من الصعوبة ما يصدُّ عن تعلمها، فهل يمكن أن يكون الجمع الغفير من المسؤولين والمثقفين والصحفيين والكتاب بهذا الجهلِ والعجزِ عن تعلم العربية؟ إنه ليس في فرنسة وإنجلترة وإسبانية والبرازيل مثقف يخطئ في لغته

(١) نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، ٣٣.

(٢) لتحيا اللغة العربية، ١١٩.

(٣) الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، ١/ ٣٢٠.

(٤) السابق، ١/ ٣٢٤.

كما يخطئ العرب في العربية. إن كاتبة على الراقنة متواضعة حاصلة على شهادة متوسطة في فرنسة قادرة على أن تكتب بنفسها كتابا، من غير أخطاء لغوية، وعندها من كتب اللغة ومعجماتها ما يسهِّل مهمتها، ويعينها على تجنب الخطأ، ويعجز كبار الإداريين من العرب، الحاصلون على أعلى الشهادات الجامعية عن كتابة مذكرة أو كتاب في أمر من أعمالهم، من غير أخطاء. فهل للكاتبة الفرنسية من الذكاء ما ليس للمثقفين وأصحاب الشهادات العليا من العرب؟[1].

ولا جديد في كل ما قال شريف في صعوبة العربية، والدعوة إلى المصير عنها إلى العامية، وإنما هو ترداد لما قال عبد العزيز فهمي، كقوله: قلَّ أن توجد لغة بقيت على حال واحدة مثل هذا الزمن الطويل، إذ اللغات في تطور مستمر، يعرفه من ألقى البال وهو شهيد، وكلما تقادم العهد ازداد التطور، وأصبح قديم اللغة عبئا ووزرا ينقض ظهر المُحدث، لبعْد ما بينها وبين ما نشأ فيهم واعتادوه من مختلف اللهجات. ومن يقل إن الأوزار والأثقال أوزار وأثقال، فقوله حق لا ريب فيه، ومن يراقب إبهاظ هذه الأوزار كواهل حامليها، وير صبرهم عليها وتعبدهم لصنمها صاغرين، فيعجب، فعجبه في محله، ولا تصنُّع فيه[2]. وقال إنها ليست لغة الحارة، ولو لم يُكرَه المرء على تعلمها بالقوة ما تعلمها، ولو لم يتعلمها التلامذة طوعا أو كرها ما ظفروا بالشهادات، ولا يجدون لهم مُرتَزَقا في الحياة، بل يقضونها متعطلين[3]، وإن خير متعلميها بلا استثناء يتعذر عليهم أن يقرؤوا صحيفة واحدة، من كتاب، أو نهرا من جريدة قراءة متصلة من غير لحن، أو توقف يقطِّع أوصال العبارات. وهو في قراءته مشغول أبدا بتحديد البصر، وإعمال الفكر، تطلبا لمعنى ما يقرأ، قبل أن يقرأ، حتى يستطيع أن يقرأ. «وتراه في تلك الحال كالمجذوب المتوجِّد، أو المكروب المتجلد، جاحظ العينين تارة، أخزرهما أو أحوصهما، تارة أخرى، مضروب اللسان باللعثمة والغمغمة، والفأفأة، وغيرهما من ضروب الارتتاج»[4].

ولم يفطن شريف إلى أن الكاتبة الفرنسية تتوقى الخطأ؛ لأنه غير مقبول ممن

---

(١) لتحيا اللغة العربية، ٦٧ وما بعدها.

(٢) الحروف اللاتينية لكتابة العربية، ١٢.

(٣) السابق، ١٣.

(٤) السابق، ٧.

يتولى عملها، ومن وَكل إليها الكتابة إنما وكلها إليها من حيث هي «كاتبة»، وما يستوجب ذلك من أن تعرف من اللغة ما يعينها على أداء عملها، مع مراعاة الأعراف المتبعة في أنواع الكتابة، والصيغ المتبعة في كل نوع. وهذا ما تتقاضى عليه أجرها، فإن أخلَّت به، أو قصَّرت فيه، وُكل إلى غيرها، ممن يُظَنُّ أن في وسعه أن يؤدي ما عجزت عنه، من أجل ذلك يكون بحوزتها من الكتب والمعجمات ما تستعين به على توقي الخطأ، ومعرفة الصواب. والموظف الذي يتولى الكتابة بهذا المعنى يُعَدُّ لها إعدادا، ويعطَى شهادة، تدل على أهليته لها، ولا يعرف الكاتب العربي سوى الرقن، وأكثرُ من يتولون الكتابة من العرب هم الذين أخفقوا في الدراسة، ولم يجدوا مهنة غيرها، فليسوا أهلا لأن يعرفوا العربية ولا غيرها من اللغات؛ لذلك يعجز أحدهم عن نسخ الصفحة نسخا يطابق الأصل. دعك من أمر آخر، هو أن العرب لا تهمهم العربية، وليس في الحياة ولا القانون ما يلزمهم أن يتعلموها، أو يستعملوها، ولا في الأعراف العلمية والعملية ما يلزمهم أن يكتبوا بها، أو يجعلهم يَحْرَجون من الخطأ فيها. من أجل ذلك كان أكابر العرب من ساسة، وإداريين، وعلماء، وأساتيذ جامعيين، ومثقفين، ومذيعين، وصحفيين، يتكلمون، ويكتبون كيفما اتفق، ولا يستنكفون من شنيع الخطأ، إذا تكلموا بها، ولا يأنفون منه، ويستوي عندهم أن يلحنوا وأن يصيبوا[1]، ولا يعدلون عن العامية في مقام، وإن جلَّ، وليس فيهم من يقتني من الكتب والمراجع ما تقتني الكاتبة الفرنسية. وهذا بخلاف ما زعم شريف من أن ليس في فرنسة أو إنجلترة أو إسبانية أو البرازيل مثقف واحد، يخطئ في لغته كما يخطئ العرب. ومن المؤكد أن في هذه البلدان لغات ولهجات، تباين اللغة الفصحى، ولكن المثقفين فيها يتعلمون فصحاها تعلما، ويُلْزِمهم النظام التربوي والإداري ذلك، ويتوخون الصواب والإجادة فيما يقولون ويكتبون، ويحاذرون الخطأ، ويخافون النقد، ويعلمون أن من مقتضيات أن يكون المرء

(١) انظر على هذا الرابط https://www.youtube.com/watch?v=-pKmBZSBC4M.
كيف يخطب بعض ساسة العرب في مجلس النواب، فلا يحسن الكلام، بل لا يستطيع قراءة ما يقرأ من الورقة التي بين يديه، وكيف يهزأ به أحد النواب، فيقول له: «دولة الرئيس، تحب أحد يكمّل عنَّك، هَلاَّ»، وهو مع ذلك يضحك عند كل عثرة، بل عند كلمة يعجز عن تهجيها ضحكة عريضة، يبدو منها أنه لا يحسن بأدنى حرج مما سماه بعض ناشري الفيديو الذي ظهر فيه «فضيحة».

مثقفا أن يكون عارفا بلغته، وأن الخطأ في اللغة والجهل بها لا يستساغان من الخاصة، حتى السياسيين، ويقف لهم الإعلام بالمرصاد، فمن أخطأ منهم شن عليه الغارة؛ لأنه يرى أن اللغة هوية، وفي الخطأ فيها والجهل بها نيل من الهوية، واستهانة بها. ويحتقر العرب العربية، ويعتزُّون باللغات الأجنبية، ويؤثرون الكلام بها على الكلام بالفصحى، والتعليم عندهم بالعامية، ولا يكون عربيا منه إلا ما دوِّن في الكتب، ولا تلازم بين العربية والتعليم. وإذا ووزنت العربية بالفرنسية، تبين أن صعوبة الرسم الفرنسي وحدها ترجُح ما يُدَّعَى من صعوبة العربية؛ فإن معجم الفرنسية يشتمل على آلاف الكلمات، ليس لرسمها قاعدة، وإنما يجب أن يحفظ رسم كل كلمة وحدها، ومع ذلك تتوخى الكاتبة الصواب، وتتوقى الخطأ. وليس في نحو العربية وصرفها ورسمها شيء إلا له قاعدة واضحة ومطردة، إلا ما شذ، ومن العادة أن يكون الشذوذ -كاسمه- قليلا أو نادرا، ولا يؤود حفظُه.

ويبدو أن ما قال شريف في صعوبة العربية أخذه من قول قاسم أمين: «لم أر بين جميع مَن عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن. أليس هذا كافيا على وجوب إصلاح اللغة العربية؟ لي رأي في الإعراب، أذكره هنا بوجه الإجمال، هو: أن أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل. وبهذه الطريقة، وهي طريقة جميع اللغات الإفرنجية واللغة التركية أيضا، يمكن حذف قواعد النصب والجزم والحال والاستقبال، بدلا من أن يترتب عليه إخلال باللغة، إذ تبقى مفرداتها كما هي»[1]. وإن كان في كلام شريف من المبالغة ما يكون في كلام المتأخر الذي يتعمد إخفاء مأخذه. ومن غير المتوقع ألا يلحن في اللغةِ من لا يعرفها، غير أن ذلك هو ما يريد دعاة «التيسير»، يريدون أن يُلهَموا العربية الفصحى إلهاما، يغني عن تعلمها، فيكون كل شيء قاد إليه الجهل بها مقبولا فيها، وليس لأحد أن يُخطِّئه، أو يصفه بما ينبغي أن يوصف به. ومن قلْب المنطق أن تُحمَل قواعد العلم مع أهواء الجاهلين، ويُحْمَل قول العالم على كل شيء إلا ما يقتضي العلم أن يحمل عليه. وعقدة الجهل بالعربية، والأَنَف من أن يُرْمَى به من لا يعرفها سبب كثير مما كُتب في ذمها والتحامل عليها، والدعوة

(١) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ٨٨.

إلى إفسادها، لكنه يسمَّى بغير اسمه، ويُلْبَس غيرَ ثوبه. وعبارة قاسم أمين هذه وما فيها من عجمة، دليل على سبب انتقاده، ومبلغ علمه بالعربية، وحقيقة ما يتغيا من إبطال الإعراب، وهو دافع كثير ممن يدعون إلى «التيسير». والإعراب يكسب العربية من حسن الإيقاع ما تنفرد به من اللغات، وهي حقيقة، يمكن كلَّ أحد أن يمتحنها، بأن يسكِّن أواخر الكلم، ثم ينظر ما ذهب من حسن العربية، ويوازن بين إيقاع العامية وإيقاعها، فيتبين من غير مشقة أن مردَّ الفرق بينهما إليه، فإذا أُسقط تساوتا، فكان إسقاطه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، من غير أن يكون لإسقاطه فائدة، إلا «التيسير» على من يريد العربية تمرا.

وليست العبرة بكثرة من يلحن من العرب، وإن كانوا مثقفين، ولا بقلة من يلحن من الأوربيين، ولكن بدراسة اللغة، وتعلمها، فأي مثقفي العرب وأكاديمييهم درس العربية، غير ما مرَّ عليه في التعليم العام من قواعد النحو والصرف، تدرَّس بالعامية، معلوماتٍ نظرية، يوحي تعليمها إلى من يتعلمها أنها لغة ميتة، وأنها غير مهمة، وفي وسع المرء أن يبلغ ما أراد من نفع مادي ومعنوي وهو يجهلها، وليس في القانون ولا النظام الإداري ما يلزمه استعمالها، ثم يُنْسَى ما تُعلِّم منها غيرَ مأسوف عليه كما يُنْسَى غيره. وقد خفي على شريف وسائر من رموا العربية بالصعوبة أن السهولة وحدها ليست معيارا يحل اللغة منزلة بعينها، أو يحول بينها وبين أن تنزلها، فالإسبرانتو، معروفة بسهولة القواعد، واطِّرادها، ولكنها مع ذلك لم تكن لغة إلهام، ولا اقتدى بها أهل لغة من اللغات، ولا حرَّضتهم على أن يطَّرحوا من لغاتهم ما يستصعبون، بل لم يكتب لها القبول ولا البقاء، على سهولتها، وقد أتى عليها أكثر من ١٢٠ عاما، ما نالت ما كان يؤمَّل أن تنال من ذيوع وانتشار. وهذا دليل على أن سهولة اللغة واطراد قواعدها ليست أهم شيء فيها[١]، ولو كان الأمر كذلك لكان الصينيون أول من ترك لغتهم إليها، أو إلى واحدة من اللغات المصنوعة. ثم إن ما يريد شريف وأمثاله من العربية، من انتظام القواعد، وقلة الشذوذ، وقلة الصيغ الصرفية، والأساليب، والمفردات، وسهولة التعلم، مباين لطبيعة اللغات الطبيعية وإنما

---

(١) اللغة العربية تواجه التحديات.

يكون في اللغات الهجينة[1]. واللغة -إلى ذلك- هوية، وتراث، وتاريخ، وحضارة، وليست بضاعة تُشترَى اليوم، ويُتبدَّل بها غداً[2].

وقد ألمَّ إحسان عبد القدوس بما يتحدث عنه شريف الشوباشي، في مقال، نشره في مجلة «روز اليوسف» عام ١٩٥٤ م، قال فيه إن مؤنس بن طه حسين لا يتكلم بالعربية إلا في المناسبات، ويتكلم بالفرنسية بلا مناسبة، وأعماله الأدبية كلها، كتاباتٍ، ومحاضرات، بالفرنسية، ويَعرِف عن بلزاك، وموباسان، وجان بول سارتر أكثر مما يعرف عن نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف الشاروني. وزوجه ليلى العلايلي، حفيدة أحمد شوقي، لا تتكلم بالعربية إلا كما يتكلم إحسان بالإيطالية، ولا تقرأ من كتب العربية أكثر مما يقرأ إحسان من كتب عبد الرحمن بدوي. وقال إنه أراد ليضع هذه الحقيقة بين يدي طه حسين، لا ليلومه عليها وإنما ليُقرَّ بها، وهي حقيقة تتجاوز مؤنسا وليلى إلى جيل كامل من المثقفين، فولداه هو الاثنان يلقنهما الفرنسية بالاهتمام الذي يلقنهما به العربية، وهما اليوم يقرآن ويكتبان بالفرنسية أكثر مما يقرآن ويكتبان بالعربية. لماذا؟ لماذا لم يستطع طه حسين أن يصون العربية في بيته؟ ولماذا لا يستطيع هو أن يربِّي في ولديه الذوق اللغوي العربي، ويملأ آذانهما بموسيقى أبي الأسود الدؤلي كما امتلأت بموسيقى اللغة الفرنسية؟. لأن أساطين العربية، ومنهم طه حسين، لا يريدون أن يعترفوا بالتطور، ولا يريدون أن يُحِسُّوا بأن العربية أصبحت بين أيديهم ثقيلة الدم، معقدة النغم، لا يستطيع الجيل الجديد المتحرر المطلق في دنيا الأنغام الفرنسية والإنجليزية، أن يستسيغها. إن الجيل الذي تملأ آذانه أنغام «التانغو، والفالس، والسامبا»، يغنيها محمد عبد الوهاب، وشادية، وهدى سلطان، لا يستطيع أن يستسيغ «البشارف» و«تقاسيم رصد»[3]. ويبني على هذا أنه يجب على أعضاء المجمع اللغوي أن يعملوا شيئا، ويسيروا مع التطور، ويضعوا قواعد لغوية جديدة مبسطة، وأساليب جديدة لتدريس

---

(١) اللغات الهجينة والمولدة: دراسة لغوية اجتماعية، ١٠٠ وما بعدها.

(٢) اللغة العربية تواجه التحديات.

(٣) البشارف، وتقاسيم رصد: ضروب من الموسيقى الشرقية، بخلاف التانغو والفالس والسامبا، فإنها ضروب من الموسيقى الغربية.

النحو، ويصونوا العربية من «الهرجلة»[1] المقْدمة عليها، إن لم تجد ما يصونها وينظمها ويحميها[2]. وقد أورد يوسف السودا هذا المقال في كتابه «الأحرفية أو القواعد الجديدة في العربية»، ونشره عام ١٩٥٩، ليستدل به على صعوبة تعلم العربية، ووجوب تسهيل قواعدها على من يريد أن يتعلمها؛ لأن من سمع أن ابن عميد الأدب وحفيدة أمير الشعراء يجهلان لغة أبويهما، تجنَّبها، وانصرف عنها إلى اللغات التي يعتقد أن قواعدها أسهل من قواعدها[3]، وهو ما أراده إحسان عبد القدوس أيضا. غير أن مقال إحسان مكتوب بقلم صحفي، تعجبه الإثارة، وحدة النقد، ولا يقوى على معالجة الفكرة معالجة علمية مقنعة، ولا يبالي ما يأتي من إحالة وتناقض، فضلا عن أنه يكتفي بالوقوف عند ظواهر الأشياء، وليس له من العلم ما يتيح له تناولها تناولا أبعد غورا مما صنع. فجهل مؤنس وليلى بالعربية ليس من عيب فيها، ولا من صعوبة في قواعدها، ولا من سهولة اللغة التي يعرفانها، وليس حتما أن يكون أثرا من آثار طرق تدريسها، وإنما هو أثر من آثار واقع حضاري، يرتكس فيه العرب منذ حين، وسياسةٍ لغوية وتعليمية لا تستبين لها غاية. وليس مؤنس وليلى بدعا من أبناء سائر الأعيان في الوطن العربي الذين كانوا يناضلون الاستعمار، فلما رحل، أو أوشك أن يرحل أدخلوا أبناءهم في مدارسه، حرصا على منافعهم المادية؛ لأن الاستعمار جعل لغته هي لغة المال، والأعمال، والجاه، والمناصب، وأخرج منها العربية؛ فتعلق الناس لغته، وأعرضوا عن لغاتهم، فلما خلفه من خلفه، كانوا أحرص منه على لغته ونشرها، والتمكين لها، ومحاصرة العربية والتضييق عليها، والجد في إخراجها من الحياة. وإحسان، إذ علَّم ولديه الفرنسية، وحببها إليهما إنما أراد لهما المال، والجاه، والحياة «الراقية» التي يرى أن بلوغها منوط بتعلم الفرنسية، وهو ما أراد طه حسين لابنه مؤنس؛ فأدخله في قسم الفرنسية، ولم يدخله في قسم العربية، فكان من تعلقه الفرنسية، وانصرافه إليها، وإعراضه عن العربية ما يكون من كل عربي أخصَّ في لغة أجنبية، أو في تخصص آخر، في هذا العصر. هذا إلى

(١) الهرجلة: المعركة، في العامية المصرية.

(٢) عن اللسان والبيان، ٨٥، والهمس الصاخب.

(٣) الموضعان السابقان.

ما لابنه من معرفة بالفرنسية، تيسر عليه دراستها أكثر من كل لغة أخرى، فقد كانت أمه فرنسية، وأبوه طه حسين مولع بفرنسة والفرنسيين، ويعتقد أن للرقي والحضارة بابا واحدا، هو مشاركة الأوربيين في الحضارة: خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وليس لصعوبة العربية، ولا لسوء طرائق تعليمها، وإن كان من المعلوم أنه كان يجتوي طريقة الأزهريين، وطالما ذمها، وذم الطريقة التي تُعلَّم بها العربية في مدارس مصر، وقد أبان عن ذلك في مقال كتبه قبل أن يكتب إحسان عبد القدوس مقاله هذا بنحو من ستة أعوام[1]. وما ليلى -إن كانت متعلمة- إلا كمؤنس، إذ آثر قسم الفرنسية، وما إعراضهما عن العربية والتكلم بها من صعوبة بها، ولا معرفتهما بالفرنسية من سهولتها، وإنما في الفرنسية من المنافع ما ليس في العربية، وهما -كإحسان- مأخوذان بالفرنسيين ويعدون كل صلة بهم علما ورقيا وحضارة، ويحتقران العربية؛ لأنها لغة قومهم. ثم إن نظام التعليم في الجامعات العربية يقصي العربية من أقسام اللغات الأجنبية، ويلزم الطالب والأستاذ ألا يعرفا إلا اللغة التي يُخصَّان فيها. وإعراض مؤنس عن تعلم العربية، وإقباله على تعلم الفرنسية، وتخصصه فيها، وتوليه تدريسها، هو الذي جعله يعرف منها ومن آدابها ما لا يعرف من العربية وآدابها، ولو أقبل على العربية يتعلمها ويتعلم آدابها لعرف منها أكثر مما عرف من الفرنسية، وكان تعلمها عليه أيسر. وربما كان أحمد شوقي وطه حسين يعرفان من الفرنسية ما يعرف مؤنس وليلى، أو أكثر مما يعرفان، غير أن معرفتهما بها لم تحقِّر إليهما لغتهما، وإنما زادتهما تمسكا بها، فبلغا بها ما لم يبلغ مؤنس وليلى بما عرفا من الفرنسية، وآية ذلك أن طه عميد الأدب العربي، وأحمد شوقي أمير الشعراء، وأن مؤنسا وليلى نكرتان في العرب والفرنسيين، وإنما يتعرفان -إن عُرفا- بأبويهما، وما زاد مؤنسا ولا رفع قدره في مصر أن كان يعرف من أدب فرنسة ما لا يعرف من أدب العرب، أما فرنسة، فمن المؤكد أنها لا تباليه كما لا تبالي كثيرا من المخصين في لغتها إلا أن تسترعيهم منافعها.

ومما يشكك في أن حسان عبد القدوس أراد شيئا وراء النقد والحط من شأن العربية والتنفير منها في مقاله هذا أنه أقر بأنه يلقن ولديه الفرنسية كما يلقنهما

---

(١) مستقبل الثقافة، ٣١٤.

العربية، وأنهما ثقفا منها أكثر مما ثقفا من العربية، فهما يقرآن بها ويكتبان أفضل مما يقرآن بالعربية ويكتبان بها؛ فمن المستبعد أن يعتني بتعليمهما العربية -إن كان يعرفها- كما يعتني بتعليمهما الفرنسية ثم تكون معرفتهما بالفرنسية خيرا من معرفتهما بالعربية، وهي لغتهما، وتعلّمها أيسر عليهما كثيرا من تعلم الفرنسية، ولا سيما أن الفرنسية ورسمها من الصعوبة بما قد رأينا. ولعل الكاتب اللبناني، سيمون جارجي كان أصدق من إحسان عبد القدوس إذ قال إن أولاده يجدون صعوبة في تعلم الفرنسية، لا تقل عن الصعوبة التي يلقاها الطفل العربي في تعلم العربية[1]، وكان سيمون مقيما في باريس، ولا يتكلم أولاده بالعربية إلا في المنزل، إن كانوا يتكلمون بها أيضا. وعقدة الخواجة الظاهرة والمستكنة في مقاله هذا سبب آخر للشك، وهي تظهر أكثر شيء فيما نسب إلى الإنجليزية والفرنسية من أنغام، زعم أنه لا يجدها في العربية، وليست أنغامهما بأعذب ولا أحسن من أنغام العربية إلا في أذن من استهواه الفرنسيون والإنجليز، فهو يرى كل شيء يتصل بهم خيرا مما لا يتصل بهم، وإن لم يكن كذلك حقا. وهذه العقدة هي التي جعلت بعض شعراء مصر يجد لأجراس الكنائس وأبراجها من الروعة والشاعرية ما لا يجد لمآذن المساجد؛ فيؤثر تصويرها، وإدارة شعره عليها، مع أنه لم يرها، وليس لها أثر في بيئته[2].

وزعم شريف الشوباشي أن علاقة العربية بالدين حملت بعض الناس على زعم أنها مقدسة، فلا يجوز المساس بها، ولهذا قال بعضهم إنها توقيفية أي منزّلة من السماء، فهي متوقفة بجوهرها عن كل نقص وزيادة وتغيير من البشر[3]. واللغة التي قال بعض العلماء إنها توقيفية هي اللغة الإنسانية، لا العربية وحدها، وتوقيفها لا يعني أنها لا يزاد فيها ولا ينقص منها، وإنما يعني أن الله ألهمها آدم -عليه السلام-، وليست من صنع البشر. ولم يقل أحد من علماء العربية إنها لا يزاد فيها، ولا ينقص منها، ولا أنها متوقفة بجوهرها عن كل نقص وتغيير من البشر، وإنما قال ابن جني: «اعلم أن من قوة القياس عندهم

(١) الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف (المناقشات)، ١٢١.
(٢) انظر: وحي الرسالة، ١/ ١٢٤.
(٣) لتحيا اللغة العربية، ٧١.

اعتقادَ النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب»[1].

وقول شريف هذا -ككثير مما قال في هذا الكتاب- يدل على مبلغ علم بعض المنتقدين على العربية، ومبلغ معرفتهم بها وبآدابها، ومبلغ أهليتهم لأن يخوضوا فيما خاضوا فيه من أمرها، وقيمة ما يقولون في ميزان العلم. وقال إن المتعصبين للعربية يقولون إن الازدواج اللغوي في الإنجليزية والفرنسية وسائر اللغات لا يختلف عما في العربية منه، وهي «مغالطة فاضحة»، غايتها تسويغ «الشيزوفرينيا» (الفصام) التي يُمنى بها العرب، وإيهام أن شعوب الأرض تعاني منها ما يعانون. و«يدحض» هذه «المغالطة الفاضحة» بأن الفرنسي إذا كلَّم البدَّال بلغة «لموند» لم يسخر منه، وفهم كل كلمة يقولها، وعلم أنه امرؤ ذو ثقافة راقية، وإذا قال العربي للبدال: «أعطني يا بني رغيفا من الخبز، وزد عليه قطعة من الجبن»، كان ضُحْكة كلِّ ساخر، وربما لم يفهم ما أراد[2]. ولا يخفى أنه خرج من موضوع إلى آخر، من غير مسوغ للخروج، فَفَهْم البدَّال الفرنسي كلَّ كلمة من كلام المثقف الذي يتكلم بلغة «لموند» لا ينفي الازدواج عن الفرنسية، ولا يبطل قول من نسبه إليها؛ لأن من العادة أن تكون الفروق بين الفصحى واللهجات كالفروق بين لهجات اللغة: يسيرة، وأكثرها صوتي؛ إذ من الكثير أن تكون الفصحى لهجة من لهجات اللغة، تصطنَع لمقامات بعينها. ومما يصدِّق هذا، وإن لم يفطن إليه شريفٌ، أن العبارة التي مثَّل بها ليست فيها كلمة واحدة لا يعرفها عوام العرب، أو لا يستعملونها، ما عدا (بُنَيَّ)، بالتصغير، وإن كانوا يستعملون مكبَّرها (ابني)، ويستعمل كثير منهم مصغَّر مرادفها (وليدي)، وأكثر من يستعمل «يا بْنِي» من عوام العرب عوام المصريين، وليس فيهم من يجهل معناها مصغرة؛ لأن التصغير معروف في العاميات العربية، ومنها العامية المصرية، وصيغته فيها لا تكاد تختلف عن صيغته في الفصحى. أما سخرية عوام العرب من هذه العبارة، إن سخروا منها، فليس لصعوبتها، أو غرابتها، أو جهلهم بما تدل عليه مفردةٌ من مفرداتها، وإنما لأن الإعلام الذي يعْتِمد تبغيض الفصحى إلى العرب اعتمادا، ويتعمَّده تعمُّدًا، يسخر منها، ومن كلِّ

---

(١) الخصائص، ١/ ١١٤.

(٢) لتحيا اللغة العربية، ١٣١.

عبارة فصيحة، يتكلم بها المثقف العربي، حتى غدا الكلام العربي القريب الذي ليست فيه كلمة غير مستعملة في الدارج من الكلام اليومي غريبا، إذا نُظِم على وجه، ليس هو الذي يَنظْم عليه العوامُّ كلامهم، أي إن الإعلام العربي يتعمَّد أن يجعل لغة الجهل والجهال هي اللغة التي لا يعدل عنها المثقف في مقام من المقامات، وهذا من قلب الموازين، وليس بفضيلة، وآخِرُ مَن ينبغي أن يسايره ويناصره «المثقفون»، وهو عكْس ما زعم شريف أن عامة الفرنسيين يفعلون، فإنهم يحترمون من يتكلم بالفرنسية الفصحى، ويعدونه مثقفا راقيا، ويسخر عامة العرب -كما زعم شريف أيضا- ممن يتكلم بالعربية الفصحى؛ لأن الإعلام العربي حقَّرها عندهم، وبغَّضها إليهم، وبغَّض إليهم من يتكلم بها. وكذلك يفعل «مثقفو» العرب أيضا، فإن الصيغة التي أخرج بها شريف الجملة السابقة لا تُخفِي السخرية ممن يتكلم بالفصحى، والتلميح إلى أنه امرؤ غير سوي، ولا تختلف عن قول أحد برامج التسلية في التلفاز المصري: إن سائق سيارة أجرة بالقاهرة ظل طوال اليوم يتكلم بالعربية الفصحى مع ركَّابه، مدعياً أنه بذلك يحتفل بيوم لغة الضاد، أما الركاب، فما كان أحدهم يكتم ضحكه إلا بمشقة. وكانت السخرية من التكلم بالفصحى، ومن يوم العربية العالمي هما المقصودين في هذا المشهد، إذ قدَّرت التلفزة المصرية أن التحدث بالعربية الفصحى أمام المصوِّرات مدعاة للضحك؛ لأن الفصحى لا يُتكلَّم بها في حياة مصر اليومية[1]، كأن الحياة اليومية هي المثل الأعلى الذي ما يكون لمصري أن يحيد عنه. وإذا كان مما لا خلاف فيه أنها ليست كذلك، فإن السخرية من الحيدة عنها تعني أن التلفزة المصرية تريد حبس المصريين على ما ليس هو الأمثل من حياتهم، وهو عمل، ليس له إلا واحد من معنيين: أنها تعادي مصر والمصريين، وتريد أن تكون حياة العوام هي مثَلَهم الأعلى الذي لا يحيدون عنه، كما تكيد العربية عمدا، وتتوخى حلول اليوم الذي يُجعل مناسبة للتوعية بأهميتها، وما آلت إليه، وتبصير أهلها بما يجب لها عليهم، ومضار ما يفعلون بها، إلخ، فتجعله مناسبة للسخرية منها، وتتفيهها، وتنقُّص من يتكلم بها، ومن يسعى في التوعية بما يجب لها، والسخرية منهما، من أجل أن تحول بين ما يراد

---

(١) الثورات العربية أسهمت في توحيد لهجات لغة الضاد.

بلوغه من هذا اليوم وأمثاله. والمعنى الآخر قلة وعي من يجيزون هذا البرنامج وما شاكله، ومن يفكرون فيه وفي إخراجه، ولا سيما في هذا اليوم، وأنهم -في أحسن الأحوال، إن أُحسن الظن- عوامٌّ، وأشباه عوام، تهمهم السخرية، والإضحاك، على ما فيهما من إضرار بالشعب المصري، واحتقارٍ لدينه وهويته وحضارته، واستصغار رموزه الثقافية، ولا يعتدُّون بالعواقب ومآلات الأمور، فهم كالذي «يتكلم بالكلمة، لا يرى بها بأسا، يهوي بها سبعين خريفا في النار». وهو أمر لا يمكن حمله على إرادة الخير لمصر، ولا لغيرها من بلدان العرب، كما لا يمكن وصفه بالوطنية، ولا النضج، ولا العمل الفني البريء، ولا وصفه إلا بأنه مناف لقدْر الكلمة، والوعي بأهميتها، وبمهمة الإعلام، وما يجب أن يوقف عليه من توعية وتعليم وتبصير بكل ما ينبغي، وأن الإعلام العربي ضلَّ الطريق، فصار إعلام تهريج، يتوخَّى الإثارة، وإن كانت منافية للأخلاق والمصلحة الوطنية والقومية، وليس له غاية وراء ذلك. وإذا كان بعض الإعلاميين كذلك حقا؛ لأنهم أشباه أميين، والعمل الإعلامي عندهم ليس بأكثر من باب من أبواب الرزق والظهور، فيجب أن يكون شأن «المثقف» غير شأنهم. وقد قال محمد كرد علي إن هذا كان حالَ الجهلة قديما مع من يحاولون من الغُيُر على العربية في كل قرن من قرون الإسلام أن يحيوها، ويُبْقوا عليها في الخطاب، كما حُفِظت في الكتاب: يهزؤون بهم، ويتغامزون منكرين صنيعهم، «وأقل ما يقولون في المتكلم بالفصيح أن ينبزوه بأنه يتكلم بالنحوي»[1]. غير أن ما كان يفعله الجهلة من سخرية وتغامز غدا هو ما يفعله «المثقفون»، ووسائل الإعلام التي تُنفَق عليها أموال العرب لتكون ألعوبة بأيدي المهرجين الذين يجعلون أنفسهم -عفوا أو عمدا- حربةً، يُطْعَن بها العرب، ولسانا يعاديهم، ويأتمر بهم، ويسعى في تقطيع العلائق بينهم، وتقطيع ما بينهم وبين دينهم وحضارتهم وتراثهم وتاريخهم، وطمس هويتهم. على أن ما زعم شريف من احترام عوام الفرنسيين مَن يتكلم بلغة «لموند»، وقدْرهم إياه يخالف ما قال جورج فندريس، وهو فرنسي، من أن المرء العادي في فرنسة يتردد كثيرا في استعمال معظم ألفاظ الكتابة في حديثه؛ لأنه إذا خاطب الناس باللغة التي تكتب بها الصحف

(١) عجائب اللهجات، ٣٨٨ (نقلا عن: قضية التحول إلى الفصحى، ٣٣).

والأدب، وصفوه بالتكلف والتقعر، وإن لم يسخروا منه، ويقلُّ هذا الصنف من المتكلمين في البيئة الفرنسية كل يوم[1]. وهو دليل على خلاف ما أراد نفيه عن الفرنسية من ازدواج، وخَصَّ العربية به دون غيرها من اللغات الكبرى.

ووقع شريف فيما وقع فيه مرة أخرى، من السخرية بالعربية ومن يتكلم بها، فقال: «لماذا لا يذهب العاشق إلى محبوبته، ويقول لها حرفيا: «أنا هائم في غرامك»، أو «وجهك الصبوح يهز كياني؟ ولو قال لها مثل هذه العبارة، لكان الأرجح عندي أن العلاقة بينهما ستنتهي بهذا الغزل «البليغ»![2]. وينبغي أن يكون الذي يعدل عن الفصحى في هذا المقام إنما يعدل عنها لأن محبوبته من العامة؛ فمثلها لا يخاطَب بالفصحى، لا أنها لا تعرف معنى هذه العبارة، فليس فيها كلمة لا يعرفها عوام العرب، ولا لأن في العرب من لا يقدُر العربية، أو يسخر منها كما يسخر بعض «المثقفين». ولو كانت هذه المحبوبة مثقفة، لكانت الفصحى هي اللغة التي ينبغي أن تخاطب بها، إلا أن من المستحسن -حينئذ- أن تخاطب بعبارة غير هذه، أما هذه، فقد تكون سبب «فتور» العلاقة بينها وبين «محبها»، لو خاطبها بها، لركاكتها، وما تدل عليه من قلة زاده من العربية الفصحى وأدبها؛ وإنما يستميلها أن يُسْمِعها كلاما صحيحا، يوقَع فيه اللفظ موقعه، ويُنظَم نظما لا يقوى عليه من يعتقد أن تعلُّم العربية محال، وأن ليس في وسع أحد أن يتكلَّم بها إلا لحن في كل لفظ يقوله. ومن نافلة القول أن السخرية من اللغة الرسمية مما تحرِّمه قوانين فرنسة التي يتعلق بها وبأمثالها من الدول الغربية بعض «المثقفين»، وأن شريفا لا يعرف بلدا حداثيا، تُتَنَقَّص فيه لغته الرسمية تنقصا مدفوعا بالحقد، دون عقاب من القانون[3].

ومما خالف فيه شريف المثقفين الأوربيين -على ما في كلامه من إطرائهم- أنه يحرص على إسقاط العربية الفصحى، وإحلال العامية محلها، والمعروف من أمر المثقفين الأوربيين أن أحاديثهم إنما تكون باللغة الفصحى، وأنهم يترفعون عن اللهجات المحلية، بخلاف ما يفعل «مثقفو» العرب، كما قال

(١) اللغة بين القومية والعالمية، ٢٨٩.
(٢) لتحيا اللغة العربية، ١٣٥.
(٣) اللغة والبيئة، ٧٣ وما بعدها.

الشاذلي القليبي: في أقطار أوربة كلها، تَلتزم الشخصيات الرسمية لغة «فصيحة» عالية، ويُعَدُّ ذلك من شروط الارتقاء إلى مراتب المسؤولية في كل مجال، لكن الأمر عندنا يبدو مختلفًا، فكأن إتقان الفصحى أمر ثانوي، والمدار كلُّه على «المعاني»، و«المعاني» تَفقد كثيرا من نصاعتها وإشعاعها إن لم يكن التعبير عنها بلغة فصيحة بليغة، خالصة من اللحن، أما صنيعنا مع اللغات الأجنبية، فعلى عكس ذلك: نعدُّ اجتناب أدنى لحن، إذ نتكلم بالإنجليزية أو الفرنسية، حتما على ذوي الرتب العليا، ودليلا على المنزلة الثقافية، فهل يستنتج من ذلك أن الفصحى ليست جديرة بهذه العناية؟ أو هي من العسر والتعقيد بحيث دخلت في عداد اللغات الميتة؛ فيُسمح بالتراطن بها كما كان الرومان أيام انحطاطهم يتكلَّمون بما كان يسمى «لاتينية المطبخ»؟[١].

وما زال العرب يتلون القرآن آناء الليل وأطراف النهار، ويتلذذون بسماعه، ويبكون له، وتلين جلودهم وقلوبهم، ويفهمون معانيه الظاهرة، ويذهبون إلى الجُمَع والأعياد، فيستمعون إلى خطبها، ويفهمونها، ويتحلق الأطفال حول أشرطة الصور المتحركة المترجمة إلى الفصحى ويستمتعون بها، ويفهمونها ويرددون عباراتها، ويواظب بعض المسنين على سماع الأخبار والبرامج الإذاعية الدينية، ويواظب بعضهم على مشاهدة بعض المسلسلات الأجنبية والأفلام المترجمة إلى الفصحى، فيفهمونها، ويتأثرون بها[٢]، ويسمع كثير منهم نشرات الأخبار السياسية والرياضية، فيفهمون الفصيح منها كما يفهمون العامي. وما زال بعض المسرحيات التي مثَّلها ممثلون لبنانيون بالفصحى تُعجِب كثيرا من العرب، ويقولون إنها تتميز بنكهة جميلة خاصة، وتفوق ما قدَّم أمثالهم من العرب[٣]. ويشاهد بعض الأقطار العربية ما كَتَبَ رجال الطليعة العربية من روايات بالعربية الفصحى، كنجيب حداد، ومطران خليل مطران، ومصطفى كامل، وعبد الله نديم، وتُمثَّل في المشرق والمغرب، فيقبل عليها جمهورهم أكثر مما يقبل على القصص العامية، على ما في العامية من تهريج وتملُّق

---

(١) بعض الإشكاليات المتعلقة بلغتنا العربية، ١١٦ وما بعدها.

(٢) اللغة العربية لغة الإسلام، ٢٣٨، واللغة العربية والإعلام، ١٩

(٣) لغتنا العربية والسياسة، ٣١.

للغرائز[1]. وتطرَب العامة كما تطرب الخاصة لما غنَّت أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ، ومحمد عبد الوهاب، ووديع الصافي، وناظم الغزالي، ومياسة الحناوي، وفيروز، وهيام يونس، وغيرهم، من الشعر الفصيح، كشعر أبي فراس الحمداني، وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإبراهيم ناجي، وبشارة الخوري، وعزيز أباظة، وكامل الشناوي، ونزار قباني، وأحمد رامي، والخيام، ومحمود حسن إسماعيل، وعلي محمود طه، وغيرهم، أشدَّ مما يطربون لما يُغنَّى من الشعر العامي، أو مثلَه. وقد بقيت قصيدتا «رسالة من تحت الماء»، و«قارئة الفنجان» لنزار قباني، وغنَّاهما عبد الحليم حافظ، على الألسنة عقودًا ثلاثة[2]. وقلْ مثل ذلك في غناء أم كلثوم بقصائد أحمد شوقي: «ولد الهدى»، و«نهج البردة»، و«قصة الأمس»، و«ذكريات»، و«حديث الروح»، و«إلى عرفات الله»، و«الأطلال»، وأغاني محمد عبد الوهاب، مثل «الكرنك»، و«الجندول»، و«كليوباترة»، و«النهر الخالد»، و«فلسطين». «وهذه الأغاني هي التي سوف تخلِّد فن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وليس «الطقاطيق» الأمية التي انتشرت، ثم اندثرت، ولمَّا يأت عليها ربع قرن من الزمان»[3]. وما يزال الشعر الفصيح هو الذي ينشد في الموالد النبوية، ومجالس الإنشاد الصوفية، وحفلات الإنشاد العربي الحديث، والناس يطربون له ما لا يطربون لشيء من الشعر العامي. وكذلك كان الخاصة والعامة من العرب في العصور الأولى، فمن المعلوم أن ما في «الأغاني» من الشعر المغنَّى كان فصيحا كله، وكان يُطْرِب العامة والخاصة، وكثير منه مما قيل في الجاهلية والعصر الأموي. وما تزال العربية الفصحى تحظى بمكانة عظيمة في قلوب العامة، وليس فيهم من ينفُر منها، أو يهزأ بها، أو ينسب من يخطبون بها ويعلِّمون إلى ما نسب إليه شريف الشوباشي من يتكلم بها، وإنما تجتويها فئة من «المثقفين»، لوهْم يتوهمونه في أنفسهم، يخالطه شعور بالنقص إزاءها، من قلة العلم بها، يعوضونه بالتشدق بما شدوا من اللغات الأجنبية، على قلته غالبا؛ لأنهم يبتغون به العزة عند أمثالهم، ومن هو دونهم علما وفكرا.

---

(١) من أجل تفاعل لغوي، ٧٨.

(٢) الفصحى والعامية في وسائل الإعلام: انطباعات واقتراحات، ١٠.

(٣) اللغة العربية لغة الإسلام، ٢٣٩. والطقاطيق: أصناف من الأغاني والأهازيج الموزونة على قد واحد (انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ٢١٦٥).

ومن يكلم البدَّال بالفصحى إنما يقول له: «أعطني رغيفا، وبخمسة جنيهات جبنا»، ويقول له بالعامية: أعطيني (أو: أديني، أو: عَطْني، أو: هب لي) رغيف، وبخمس جنيه جبن». والفرق بين هذا وذاك هو الإعراب، وتذكير العدد وتأنيثه، وتمييز العدد في هذه العبارة (جنيه، وجنيهات)، وإن كان المطَّرد في اللهجات العربية، ومنها اللهجة المصرية، تمييز العدد المفرد بجمع، كما يميز به في الفصحى، وإنما يشذ عن ذلك عبارات قليلة، في بعض اللهجات دون بعض، كهذه العبارة في اللهجة المصرية، وكما يقال في السعودية واليمن: خمس ريال، ويقال في اليمن: خمس ألف، وفي سائر الأقطار العربية يقال: خمس آلاف، وخمس ريالات، وخمس جنيهات. وجمع تمييز العدد المفرد، وتذكير العدد وتأنيثه لا يحولان دون فهم العامي مرادَ المتكلم، أو يشعرانه بأن من يتكلم بالعربية الفصحى يتكلم بلغة غير التي يعرف. ومثل هذا الخلاف بين العامية والفصحى يقع بين اللهجات العربية الحديثة، وكان يقع بين اللهجات العربية القديمة، منذ الجاهلية، ولم يَحُل يوما دون تفاهم أهلها، ولا أشعر بعضهم بغرابة لهجة بعض. على أني ما رأيت أحدا في الوطن العربي يكلم عاميا بالفصحى؛ فإن العارف بالفصحى لا يكون إلا متعلما، والمتعلم يعلم أن لكل مقام مقالا، وأن مخاطبة العامة بكلام الخاصة من وضع الشيء في غير موضعه، وقد كان القدماء يأخذون على عيسى بن عمر وأبي علقمة النميري تقعرهما، ويضربون بهما المثل في وضع الكلام في غير موضعه، كقول أبي علقمة: «مالكم تكأكأتم علي كما تتكأكؤون على ذي جنة؟ افرنقعوا عني»، و«أصعقت العتاريف»[1]. وإنما حملَ شريفا على ما قال -على مخالفته الواقع- ما أراد من السخرية من الفصحى، وتقرير أنها غير صالحة للحياة؛ لما يعتقد من صعوبتها.

أما فهم العامي الفرنسي كلام المثقف وإعجابه به، وشعوره برقيه، فليس لأن الفرنسية الفصحى أقرب إلى عامياتها من العربية الفصحى إلى عامياتها، وإنما هذا شيء يدعيه لغويو الاستعمار؛ ليخيلوا إلى العرب أن العربية صعبة، وأنها تخالف العامية مخالفة تامة، ليصرفوهم عنها إلى العامية. ويدَّعون أن ما بين الفصحى العربية وعامياتها يختلف عما بين اللغات الفصحى وعامياتها في

(١) انظر: معجم الأدباء، ٤/ ١٦٣٨، وطبقات اللغويين والنحويين، ٤١.

البلدان الغربية، كبريطانية وفرنسة، ويبنون على ذلك أن العامة يتكلمون بلغة غير العربية، وهذا يحول بينهم وبين أن يفهموا الفصحى، وعاميات الشعوب الأخرى قريبة جدا من فصحياتها، وما بينها من الخلاف يسير، لا يحول بينهم وبين فهمها. وهو مما يحتج به دعاة العامية في البلاد العربية لما يرون من تعليم الأطفال بالعامية في الطور الابتدائي، أو السنوات الأولى منه، لبُعْد ما بين العربية الفصحى التي يدرَّس بها الطفل منذ السنة الأولى واللغة التي يتكلم بها في المنزل، وهو خلافُ ما عليه لغة الطفل الفرنسي والإنجليزي، فإنه يخرج من المنزل إلى المدرسة وقد حذق ضربا من اللغة هو الذي يدرَّس به في المدرسة. وهي موازنة، وصفَها بعضهم بأنها عين التزييف والتضليل؛ لأن جل الدراسات الاجتماعية في البلدان المتقدمة قد أقامت الدليل على خطأ هذا الفرض، وبيَّنت أن درجات العامية في المجموعة الفرنسية والبريطانية وغيرها تختلف باختلاف الرتب الاقتصادية والثقافية، وأن نجاح الطفل في المدرسة يكون تبعا لذلك[١]. والازدواج لا يكاد يخلو منه إلا لغات المجتمعات الصغيرة المعزولة، بخلاف اللغات المعمَّرة، واللغات التي يكثر متكلموها، وتتسع المساحة الجغرافية التي ينتشرون فيها[٢]. والازدواج بين العربية الفصحى والعامية، كما هو في الدول العربية، موجود في سويسرة الناطقة بالألمانية، وهايتي، واليونان، وغيرها من الدول والأقاليم، وهو فيها مستقرٌّ ومقبول قَبولاً تاماً[٣]، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه ليس في العالم قطر من الأقطار يتكلم أهله لغة واحدة فقط، فالأقطار كلها متعددة اللغات[٤]، ويقول آخرون إن في العالم ٣٨ دولة من ٢٠٠ دولة هي التي تتسم بالتجانس اللغوي، أي إن ٩٠ ٪ من سكانها يتكلمون بلغة واحدة، أما غيرها، أي ٩٢ ٪ من الدول، فذات لغات متعددة[٥]، والتعدد اللغوي أشد من الازدواج؛ لأن التعدد يعني اختلاف اللغات، والازدواج يعني وجود لهجات مع الفصحى، ومن العادة أن يكون الخلاف بينها يسيرا، وإن كانت اللغات تتفاوت

(١) الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية، ١٤٨ وما بعدها.
(٢) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٢٣.
(٣) الموضع السابق.
(٤) التعدد اللغوي والتنمية البشرية، ٩ (نقلا عن: أزمة التعليم في العالم العربي: الجزائر أنموذجا، ١٨٣).
(٥) التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية بالمغرب، ٢٤٨.

في مقدار ما بين لهجاتها وفصحياتها من اختلاف. ولكن لغويي الاستعمار ومن تأثرهم يتعمدون التبعيد أو التقريب بين اللغات واللهجات على ما تقتضي سياسات بلدانهم، من تفتيت أهلها، وإعادة بنائهم على الوجه الذي يعينها على بلوغ ما تريد منهم، لا على ما يقتضي البحث العلمي. فكثير من اللغات الإفريقية متشابهة جدا؛ لأن أصولها واحدة، وإن تباينت أسماؤها، وإنما كان سبب تباينها أنها كانت شفهية، ولم تكن لها نصوص مكتوبة، فكانت تتغير بالانتقال من مكان إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، ولكن الدول الاستعمارية، منذ احتلت إفريقية، كانت تكبِّر الخلاف بينها، وتكثِّره، كما فعلت بلجيكة في الكونجو، لتحول دون توحد الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار، واللغة من أهم وسائل التوحيد. وكان الأفارقة يتجاهلون ما بين لغاتهم من توافق، ويتجاهلون ما يفعل الاستعمار بلغاتهم من مسخ وتشويه؛ لأن ذلك يُرْضي نزعاتهم النرجسية، ورغبتهم في الاختلاف اللغوي، ولو كان صغيرا؛ ليباهوا بقدرتهم «الفائقة» على التكلم بطلاقة، وإتقان لغات، ليست إلا لهجاتٍ لغة واحدة. وفي أجزاء أخرى من إفريقية، ككينية، وتنزانية، ساعد الاستعمار على نشر لغات عامية، يرجع بعضها إلى ماض سحيق، كالسواحلية. وقد ساعدت هذه اللغات على صنع لهجات مهجنة، صُيِّرت فيما بعدُ لغات محلية، كالكيكونجو، واللنغالية[1]. ثم أَجْبرَ الاستعمار الشعوب على لغته، فلما استقلت، كانت الحركة إذا أرادت أن تصطنع لغة وطنية أباها عليها غيْرُها من مواطنيها، لما خُيِّلَ إليهم من أنها لغة مختلفة عن لغتهم، وإن لم تكن كذلك، فكان الحل في الرضا بلغة المستعمر[2].

وإنما يريد أن يجعل ما بين العربية الفصحى وعامياتها من خلاف مخالفا لما في اللغات المعاصرة مَنْ يريد تبعيد ما بين الفصحى والعاميات العربية لغايات استعمارية بحت، ولذلك كان توطئة لما تلاه من دعوة إلى العاميات، واستبدالها بالفصحى. ومن أقدم من أثار دعوى التباعد الشديد بين الفصحى والعاميات العربية الإنجليزي دوفرين في التقرير الذي كتبه للحكومة البريطانية لتبْنِيَ عليه تنظيم احتلالها لمصر عام ١٨٨٢، فقد قال فيه إن نسبة العامية إلى العربية

---

(١) كلمات العالم، ٢٠٤ وما بعدها.

(٢) اللغة والسلطان السياسي، ١٠٤.

الفصحى كنسبة الإيطالية الحديثة إلى اللاتينية القديمة[1]. ثم انتحله لويس عوض، وجعله من مسوغات دعوته إلى العامية[2]. وقال به بعض الفرنسيين الذين درسوا العربية الفصحى والعامية المغربية، كشارل بيلا، ومونتاي. وتسمي كريستينا بولستون اللهجات العربية اللغات العربية، والمجتمعات العربية الأمم العربية[3]. وقال ر. ل. تراسك إن بين اللهجات العربية اختلافا شديدا، حتى ليمكن القول إنها لغات متباينة، فنطْق الكلمات والأسماء يختلف اختلافا بيِّنًا من مكان لآخر. أما الفصحى، فلا يتكلم بها أحد؛ ولهذا كان «القذافي» يكتب مرة Gaddafy، ومرة Qadhafy، أو على صور أخرى. ويكتب «معمر» مرة Muammar، ومرة Moamer، أو على صور أخرى[4]. وما أدري ما أراد تراسك، لكن مردَّ الاختلاف في كتابة الكلمة العربية بالإنجليزية ليس إلى شدة تباين اللهجات العربية الحديثة، وإنما إلى الإنجليزية وهجائها. و«معمر القذافي» يكتبه العرب كلهم على صورة واحدة، ويتفقون على نطق «معمر» بالعين، وإنما يختلفون في نطق القاف في «القذافي»، فمنهم من ينطقها گافا، ومنهم من ينطقها قافا فصيحة، وهو خلاف صوتي يسير، وقديم قدم العربية. أما ما زعم من أن العربية لا يتكلم بها أحد، فإن العربية الفصحى يتكلم بها بعض المتعلمين من العرب، ويفهمها العرب قاطبة، وهي التي تؤلف بها الكتب، وتنشر الصحف والمجلات، وتذيع عشرات المحطات والفضائيات والإذاعات بعض برامجها. وزَعْم أن لا أحد يتكلم بها ليس بصحيح، إلا إن أراد أن لا أحد من العوام يتكلم بها في الحياة العامة، والعوام في سائر الدول ليسوا هم الذين يتكلمون باللغات الفصحى، وإنما يتكلم بها الخواص. وأما أن اللهجات العربية لغات متباينة، فالعرب من المحيط إلى الخليج يكلم بعضهم بعضا بلهجته، فيفهم ما يقول، ولا يكاد يخفى عليه من كلامه إلا أقله، والاختلاف في نطق بعض الحروف قلما يحول دون التفاهم، ومنه نطق القاف، فإن من العرب من ينطقها قافا فصيحة كبعض أهل العراق، وبعض أهل اليمن، وبعض أهل المغرب العربي،

---

(١) اللغة العربية بين حماتها وخصومها، ٦٩.
(٢) انظر: أباطيل وأسمار، ١٤٣ وما بعدها.
(٣) اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، ٥٨.
(٤) لماذا تتغير اللغات، ٢٨٢.

ومنهم من ينطقها همزة، كبعض المصريين وبعض أهل الشام، وينطقها بعض أهل فلسطين بين القاف والكاف، وينطقها سائر العرب گافا. وهذا ' خلاف يقع بين أهل القطر العربي الواحد، كما يختلف المصريون واليمنيون في نطق القاف، ولم يحل يوما بين عربيين من قطر واحد أو قطرين والتفاهم.

وقد دحض بعض الفرنسيين ما كتب شارل بيلا ومونتاي ومَن وافقهما، وبينوا أن الازدواج بين العامية المغربية والفصحى ظاهرة في لغات العالم، وأن ما بين العامية الفرنسية وفصحاها لا يقل عما بين العاميات العربية وفصحاها، وأن الباريسي ما زال لا يفهم لأول وهلة الفرنسي الذي يسكن في ليموزان، أو يتكلم لهجته المعروفة بالباتوا[(١)]. وما بين لغة عمال ضاحية باريس ولغة الشاعر فاليري يفوق بكثير ما بين لهجة العامل الجزائري واللغة التي ينظم بها الشاعر مفدى زكريا[(٢)]. وسكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمة من لهجات سكان قراها الجنوبية[(٣)]. وقال فرنان برودل إن أهل الشمال والجنوب يتكلمون بالفرنسية جميعا، لكني سمعت من التلفزة في ٣١ يوليو ١٩٨٥ تنبيها مثيرا شيئا: أن ميشيل أوديار، كاتب الحوار، ينفي أنه استعمل قط الـargot (العامية) في حوارات أفلامه، وإنما استعمل اللغة الباريسية اليومية العادية (le parigot)، فذكَّره المذيع الذي يقابله بأن أحدهم قال مرة إن أفلامه «بحاجة إلى ترجمة؛ حتى يفهمها الجمهور جنوب اللوار»[(٤)]. وهذا يدل على بعْد ما بينها وبين الفرنسية الفصحى، إذ لو كانت قريبة منها لكان بينها من التقارب بقدر ذلك، كما يعني أيضا أنهم لا يعرفون الفرنسية الفصحى إلا أن يتعلموها تعلما. وهو ما انتهت إليه بحوثٌ ودراسات فرنسية: أن الفرنسية الأدبية تختلف عن الفرنسية العامية، كما تختلف عاميات الأقاليم والمدن والأرياف، وأن مثل ذلك يقع بين لهجة وسط باريس ولهجات ضواحيها[(٥)]. وقال لوك سانت إن الفرنسية فرنسيات: فلغة الإعلام والدعايات، واللغة التي يتكلم بها أغلب سكان باريس

---

(١) دعاة العامية (نقلا عن: من حاضر اللغة العربية، ١٦٣).

(٢) التعريب ووسائل تحقيقه، ١١٣

(٣) حضارة العرب، ٤٣٩.

(٤) هوية فرنسا، ١/ ٨٧.

(٥) الدعوة إلى الدارجة بالمغرب، ٣٦ (هامش).

مختلفة جدا عن اللغة التي تعلمها صغيرا وقرأ بها[1]، أي الفرنسية الأدبية. ويصعب فهْم العامية الفرنسية على من لم يتعلم إلا الفرنسية الفصحى، ومن الفروق بينهما كثير من المفردات، يتكلم بها الناس في عاميتهم، وليست في المعجمات الفرنسية؛ لأن الأكاديمية الفرنسية لا تعترف بها، ومنها صيغ صرفية وتراكيب نحوية عامية، لا يُرْتضَى استعمالها في الفصحى[2]. وتختلف الفصحى الفرنسية والعامية في المفردات، وترتيبها، وترتيب الجمل[3]. وفي الفرنسية لغة فصيحة، تسمى la langue normative، ولغة يأتي بها الطفل من المنزل، تسمى la langue familiare، لا تستعمل في الفرنسية الفصحى[4]. وقال فندريس إن البون الذي بين لغة الكتابة ولغة الكلام لا تزيده الأيام إلا اتساعا، فالتنظيم والمفردات ليست واحدة، في كلتا الحالتين، والصرف يحتوي على بعض الفروق: فالماضي المحدد (أو البسيط)، والماضي غير التام، من صيغة التبعية، عادا غير مستعملين في لغة الكلام، أما اختلاف المفردات خاصة، فيكاد وضوحه يُعشي العيون. فنحن نكتب لغة ميتة، ترجع إلى كتَّاب القرن السابع عشر، ونتكلم لغةً غيرها، ومفرداتنا الجارية قد تغيرت منذ القرن السابع عشر. والفرق بين الكلمات التي يُتكلَّم بها والكلمات التي تُكتَب يذكرنا بالفرق بين الكلمات السوقية وكلمات النبلاء، فنحن نأنف من كتابة معظم الكلمات التي نستعملها في الحديث. والشخص الذي يتكلم كما يكتب نعده متكلفا، والأشخاص الذين يفعلون ذلك في تناقص مستمر[5]. وقد ظلت الطبقات العليا زمنا طويلا تحافظ على حوشي اللغة التي يوحيها استعمال اللغة المكتوبة، وكانت الطبقات الدنيا وحدها هي التي تستعمل لغة تلقائية، تعمل على تحديد عناصر اللغة التعبيرية. وقد زالت لغة الطبقات العليا وحلَّت محلها اللغة الشعبية. ويشكو المتشددون جميعا هذا «السقوط»، بيد أن شكواهم عقيم؛ لأن اللغة المكتوبة صارت في غير مأمن من الإصابة، فالصحف اليومية التي يكتبها -على عجل- أناس غير

---

(١) الفرنسية دون دموع، ١٠٢.

(٢) اللغة العربية وسؤال الهوية، ١٠ وما بعدها.

(٣) من أجل تفاعل لغوي، ٧٤ وما بعدها.

(٤) المناقشات والتعقيبات، ١٠٠.

(٥) اللغة، فندريس، ٣٤٤.

مثقفين صار من الغالب أن تتكثر من عبارات هذه اللغة وصيغها، وإن كانت بعض كبريات الصحف ما زالت تحافظ على اللغة الفصحى، وما يزداد تمسكها بسلامة اللغة إلا صرامة ردا منها لتيار العامية الجارف، وتزداد عنايتها بنقاء اللغة قوة إلى قوة، وتأبى أن تستعمل إلا الفرنسية الأدبية النقية التي كان يستعملها خير الكتاب الفرنسيين في مؤلفاتهم(١).

وفي فرنسة -إلى ذلك- ما يزيد على ثلاثين لغة، كالكورسيكية، والبروتانية، والباسكية، واللوسيتانية، والقطلونية، والفلامندية، والألزاسية، والجرمانية، والأوكسيتانية، والبروفنصالية، والليموسان، والبيكاردية، والأويل، ولا يفهم سكان القرى البعيدة التي يتكلم أهلها هذه اللغات الفرنسية إلا أن يتعلموها(٢). هذا إلى لغات الأقاليم التي ما تزال تستعمرها، كالكاريبي، والكاناك، ولغات بعض الجماعات المهاجرة، كالأرمن، والبولونيين(٣). وهي أبعد من الفرنسية من اللهجات العربية العامية من الفصحى. ولكن الذي يُستعمَل في فرنسة هو الفرنسية الفصحى وحدها، وإنما يفهمها الفرنسيون جميعا لأن تعلمها مما فُرِض عليهم بالقوة، ولا خيار لهم فيه. وقد أقرَّ شريف الشوباشي بوجود هذه اللغات في فرنسة، وبأنها لا يفهمها إلا أهلها، وبأن الفرنسيين كلهم يفهمون فرنسية باريس، وهي الفرنسية الفصحى، ويتكلمون بها فيما بينهم؛ لأن القانون يلزمهم تعلمها، ولو بالضرب، ويحرِّم عليهم أن يتكلموا بغيرها، ويجعلها باب الرزق؛ لتكون هي الرابط بين الفرنسيين كلهم، هذا إلى أن العامي الفرنسي أكثر تعلما، وإعلامه الجاد أكثر استعمالا للفصحى من العامية، ولذلك قرُبت الشقة بين العامي والمثقف، والعامية والفصحى، زد على ذلك ما تسنُّ الحكومة من قوانين، توجب استعمال الفرنسية الفصحى في كل مقام من مقامات الجد، ومنها وسائل الإعلام، ومعاقبتها على اللحن مخافة أن تُفْسِد أذواق الناس ولغاتهم، كما يعاقب القانون الفرنسي المعلم، والأستاذ، والمذيع إذا أخطؤوا في الفرنسية، في

---

(١) اللغة، ٣٤٤ وما بعدها.

(٢) من أجل تفاعل لغوي، ٨٤.

(٣) انظر مثلا: مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب، ١١٧، ولغتنا العربية: الوظيفة والأداء، ٢٨، ومن أجل تفاعل لغوي، ٨٤، وحرب اللغات، ٨٨.

الإذاعة، أو التلفزة، أو المدرسة؛ لأنهم يُفسدون لغة الأطفال وغيرهم[١].

ومثل ذلك ما يُدَّعَى من أن الفرق بين الإنجليزية ولهجاتها يسير، ولا يحول دون الفهم، بخلاف الفرق بين العربية ولهجاتها[٢]، فالإنجليزي من إنجلترة ربما لا يفهم ما يقوله الأسكتلندي[٣]. وقال بعضهم: إنك تفهم كلام الناس مادمت تنتقل من إقليم إلى إقليم يجاوره، فإذا انتقلت إلى إقليم بعيد منه، تعذَّر عليك الفهم. والإنجليزية المنتشرة في بعض البقاع المتباعدة غدت منذ منتصف القرن العشرين إنجليزيات، كإنجليزية أسترالية، وإنجليزية كندة، وإنجليزية نيوزلندة، وإنجليزية جنوب أفريقية، وإنجليزية الهند، إلخ، وغدا من العسير على متكلميها أن يتفاهموا إلا أن يئلوا إلى ما يسمى الإنجليزية الفصحى المكتوبة، والإنجليزية العالمية المنطوقة (WSSE)[٤]. وكان الجزء الأكبر من بريطانية يحتله ناطقون بالإنجليزية نحوا من ١٥٠٠ عام، وكانت تلك المدة الطويلة كافية لظهور فروق كبيرة في القواعد، والكلمات، ولا سيما طريقة النطق التي هي أكثر وضوحا هاهنا. ففروق النطق بين سومرست، ولندن، وبرمنجهام، وليفربول، ويوركشير، ونيوكاسل، وجلاسجو، وأودية ويلز، وأماكن أخرى من العالم تُعَدُّ فروقا كبيرة جدا، وربما حالت دون التفاهم[٥]. ولها لهجة يتكلم بها العمال وسائقو سيارات الأجرة في لندن، تسمى الكونكي[٦]. والألمانية الفصحى لا يتكلم بها أحد، وإنما تستعمل في الكتابة، والمقامات الرسمية، وهي التي توحد البلاد الجرمانية، ولكل إقليم بعد ذلك لهجته، ولكن عموم التعليم في الأقطار التي تتكلم بالجرمانية جعل كل فرد من سكانها يحسن الفصحى، ويقرأ ما يُكتَب أو يُلْقَى في الإذاعة والتلفزة، ولا يحسُّ بنقص، ولم يمنع ذلك الألمانية من أن تكون من أهم لغات العلم والأدب، ولا نبزها أحد بنقص، ولا شعر بعجز عن استعمالها[٧]. واللهجة الألمانية السويسرية لا يفهمها الناطقون بالألمانية في

(١) الازدواجية اللغوية في الجزائر، ١١، وانقراض اللغة العربية.
(٢) انقراض اللغة العربية.
(٣) العربية تواجه التحديات.
(٤) اللغة والعولمة لغة عالمية أم لغات متعددة؟، ١٥.
(٥) لماذا تتغير اللغات، ٢٣٣.
(٦) السابق، ٧٤.
(٧) التعريب ووسائل تحقيقه، ١١٣.

البلدان الأخرى، وإذا بثت وسيلة إعلام حوارا مع سويسري، يتكلم بالألمانية، احتاجت إلى أن تضع على الشاشة نصا يوضح ما يقول(١). ولا ادَّعى أن ما بينها وبين لهجاتها من تباعد صعَّب تعلُّمها على الألمان، فلا بد من إلغائها -من أجل ذلك- أو تيسيرها. ويقع مثل هذا الاختلاف بين الإسبانية الفصحى ولهجاتها(٢). ويتكلم الإسبانيكوس في أمريكة بالإسبانية، ولكنهم يعلِّمون أبناءهم بالإنجليزية(٣). وهذا يعني أن الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والإسبانية ليست مثل قالب الجبن، لا فرق بين أطرافه ووسطه، بل فيها من تنوع اللهجات مثل الذي في العربية(٤). وبين اللهجات الصينية من الاختلاف ما يحمل على الظن أنها لغات(٥)، ولا يستطيع من لا يتكلم إلا بلهجة بكين أن يفهم من لا يتكلم إلا بلهجة كانتون، وإنما يتفاهمان بالكتابة(٦). وبين العبرية ولغات المهاجرين، كالروسية، واللغات الأوروبية، ما بين اللغات التي ليست من فصيلة واحدة، ولكن العبرية هي اللغة الرسمية، ويتعلمها سكان فلسطين المحتلة كلهم، وقد صيرها الإعلام والتعليم والقانون كاللهجة العامية بعد أن كانت لغة شعائر، طوال أكثر من ألفي عام(٧).

وما كان من أحادية اللغة في الدول الغربية ليس أمرا طبيعيا، وإنما هو أثر عمل استغرق قرونا، فَرضت فيه الدولة القومية اللغة المركزية في أصقاعها كلها فرضا لا هوادة فيه، مستعينة بتعميم التعليم، وكلِّ ما يمكن أن تحشده من وسائل، وأزاحت اللغات الإقليمية واستبدلت بها لغة البلاط والعاصمة؛ لتكون لغةَ الاتصال الوطني الوحيدة، حتى إن بعضها -كإسبانية- أقام محاكم تفتيش لغوية، وقَطَعَ لسانَ من تكلم بغير القشتالية (الإسبانية الفصحى)(٨)، وما زال القانون يحرم اللغات غير القشتالية في مقامات الجد، فبعد انتخاب خوسيه

---

(١) لغات حية، ١١.

(٢) انقراض اللغة العربية.

(٣) العربية الإستراتيجية والأمن.

(٤) العربية تواجه التحديات.

(٥) إمبراطوريات الكلمة، ١٧٦.

(٦) حرب اللغات، ٣١٢.

(٧) العربية الإستراتيجية والأمن، وكلمات العالم، ١٩٥.

(٨) كلمات العالم، ١٤٤، واللغة والاقتصاد، ٣٦، والسياسة اللغوية، ٤١.

لويس ثاباتيرو رئيسا للحكومة الإسبانية في ١٤ من مارس عام ٢٠٠٤ اجتمع مجلس النواب، فأراد نواب قطلونية أن يتكلموا بلغتهم، فلم يأذن لهم رئيسه، لما في ذلك من خطر، يهدد الإسبانية الرسمية، واحتج بأن المادة الثالثة من الدستور تنص على أن الإسبانية هي اللغة الرسمية التي ينبغي لأبناء الشعب جميعا أن يستعملوها[١]. وكان لفرنسة من ذلك ما لم يكن لدولة. ثم ظهر نظام اللغة التي تتألف من لغات إقليمية ضعيفة الارتباط فيما بينها، قوية الارتباط باللغة المركزية، ثم ضعفت، وانتزَعت منها اللغةُ المركزية عملَها، وحلَّت محلها، وصارت لغاتٍ رمزية، تُستعمَل في التواصل بين الأقارب والجيران، ونحو ذلك، ولا مكان لها في الشؤون الرسمية[٢]. وكانت هذه السياسة من أسباب ما يُنسب إليها، أو يُظَنُّ بها من قلة ما بين العاميات واللغات الفصحى من خلاف؛ لأن بعض ما بينها من فروق حادث بعد فرض اللغة المركزية، ومحو اللغات واللهجات، وليس أثرا من اللغات واللهجات القديمة التي كانت مع الفصحى قبل أن تُماتَ، هذا إلى أن هذه اللغات حديثة النشأة شيئا، وإنما هي لهجات متولدة من لغات ميتة، فهي تختلف عن العربية الفصحى اختلافا كبيرا، كما تختلف لهجاتها عن لهجاتها، فإن العربية الفصحى ولهجاتها أقدم وأعرق، والمساحة التي تمتد عليها أوسع، ومتكلموها أكثر، وأشد تباعدا، والأمم التي جاورتها فتأثرت بلغاتها أكثر. وظلت اللهجات العربية تتغير بمعزل عن الفصحى، ولم تُضايَق، ولا سعت حكومة من الحكومات في مزاحمتها، أو النيل منها، وظلت الفصحى ثابتة، تصان من كل تغير، يُخشَى أن ينال منها، وظلت لغةَ الخاصة: لا يستعملها إلا العلماء، والأدباء، والسياسيون، فكان لزاما أن يقع بينها وبين اللهجات من التباين ما وقع، وإن لم يحل يوما دون فهم العربية الفصحى، ولا جعلها بالبعد الذي يزعم لغويو الاستعمار ومن تأثَّرهم. ثم إن الدولة الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين، ما كانت دولة شمولية، وكان العلْم فيها بمعزل عن السياسة، ولم تفكر يوما في أن تصنع تعليما إجباريا، يجمع الناس على فلسفة حاكم ومذهبه، ولا همَّت أن تجبر أحدا على لغة أو لهجة، ولا أن تحمله على تركهما، كما فعلت حكومات أوربة.

---

(١) اللغة والهوية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ٦٥٥.

(٢) انظر: كلمات العالم، ١٤٠ و١٤٢، واللغة والاقتصاد، ٣٥.

واستعمال العربية الفصحى في التعليم والإعلام وشؤون الحياة كلها يسهِّل تعلمها، ويرتقي بالعامية، ويخلِّصها من الهجنة والتشويه، ويقرِّب بينها وبين الفصحى، وقد كان للإعلام العربي قبل أن يَصطنع العامية، ويعلن الحرب على الفصحى، يدٌ بيضاء في تقليل اللهجات العربية، والتقريب بينها، وتقريبها من الفصحى[١]، فإن أحاديث المذياع لما شاعت في الأميين كثر ورود الألفاظ والأساليب الفصحى على أسماعهم، فأَلِفُوها، فأخذت المفردات العامية تتناقص، والفصحى تكثر، وصِيَغ النطق تعتدل، وتغيرت العامية تغيرا عظيمًا، وذلك من أمتن دعائم الوحدة العربية الكاملة. وكان الدمشقي والبيروتي الأميان، قبل ذلك، إذا التقيا، تفاهما بصعوبة، لما بين لهجتيهما من تخالف في كثير من الكلمات، فغدا من السهل أن يتفاهما، بسبب التعليم والإعلام وما أدخلا من مفردات العربية الفصحى وأساليبها في اللهجات، فغدا الناس جميعا يستعملونها، ويتفاهمون بها، ويتفقون عليها[٢]. ويذكر المرحوم الدكتور علي خشيم أن الإذاعات المسموعة والمرئية في ليبية أبلت بلاء حسنا في تفصيح العامية الليبية، فقد دأبت على نقْل جلسات المؤتمرات الشعبية، وجلسات مؤتمر الشعب العام على الهواء، وكان المتحدثون فيها وفي الندوات الإذاعية يحرصون على التكلم بالفصحى، واستمرت هذه السياسة ربع قرن؛ فتغيرت العامية الليبية إلى الفصحى على ألسنة العامة. هذا إلى تقديم «المسلسلات المكسيكية» بالعربية الفصحى. وذكر أن لغة الأطفال في ليبية أقرب إلى الفصحى من لغة الأطفال يوم كان هو طفلا، وأن من أسباب ذلك مسلسلات «الرسوم المتحركة»، الناطقة بالعربية الفصحى، فقد عودت الأطفال الذين يشاهدونها النطق بالفصحى، مما يرددون ما يسمعون منها، ويقلدونه تقليدًا مُحْكمًا[٣]. وكذلك كان الشأن في المغرب، بعد ما كان أهل فاس في بدايات العقد السادس والسابع لا يفهمون كلام أهل مراكش[٤]. كما أعانت الإذاعة

---

(١) عن سياسات تعريب ما بعد الاستقلال، والمذكرات، ٢/ ٥٠١.

(٢) انظر: التصويب اللغوي في الخطاب الإعلامي، ١٧٥ وما بعدها، ومن حاضر اللغة العربية، ١٦١ وما بعدها، والعربية، ٢٤١، والتصويب اللغوي في وسائل الإعلام العربي، ٧ وما بعدها، والأداء المسقاع في لغة المذياع، ٢٨٤.

(٣) العامية الليبية، ٩١.

(٤) الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، ٩٧.

والتلفزة والخيالة والصحافة في البلدان العربية على انتشار العربية الفصحى، والأساليب الفصيحة، حتى غدا الفلاحون في مصر وسورية والعراق يفهمون الأخبار التي تذاع بالفصحى[١]. وتأثرت العامية في سورية بما كان يضع مجمع اللغة بدمشق من مصطلحات، فكان العامة يستعملونه بدلا من الدخيل الذي ينتشر في عاميات الوطن العربي. وصنعت وسائل إعلام بريطانية بلغتها مثل الذي صنعت وسائل الإعلام العربية بالعربية ولهجاتها[٢]. وتوحيد اللهجات، والقضاء على الازدواج، واصطناع لغة وطنية واحدة مشتركة مما تحرص عليه الدول؛ لأنه علامة الاستقلال والسيادة، والوحدة السياسية القومية[٣].رقي، كما قال المستشرق الإيطالي، جورجو ديلافيدا: على قدر رقي الأمة يتضاءل الفرق بين لغة الشعب ولغة المثقفين[٤]. ومن تبيَّنَ هذا علم أن بعض «مثقفي» العرب يدعون إلى تفتيت أمتهم، باصطناع اللهجات من الفصحى، جريا على سياسة الاستعمار في بلادهم، وما يريد بالشعوب التي يطمع في دوام استعمارها واستتباعها، ويجعلون مثلَهم الأعلى الدول التي استقلت بلهجاتها عن اللغة الأم، كما استقلت لغات الرومانس عن اللاتينية، مع ما بين اللهجات العربية في علاقتها بالعربية الفصحى وهذه اللغات في علاقتها باللاتينية، فقد كانت اللهجات العربية تحريفات يسيرة للفصحى، لها نظائر في لغات العالم كلها، وكانت العلاقة بين اللاتينية واللغات الرومانسية ضعيفة، حتى لتعد لغة أجنبية عنها، تحتاج إلى تعلُّم[٥]. وسبب ذلك أن القبائل الجرمانية لما أسقطت دولة الرومان، واحتلت أوربة كلها، تفككت وحدة العالم الروماني السياسية والاجتماعية والثقافية، وصارت البلدان الأوروبية مجموعة أقاليم إقطاعية، منعزلا بعضها عن بعض، وصار كل شعب مجموعات من السكان، يملكها الإقطاعيون من الفرسان والرهبان، وسقطت اللاتينية، لسان الحضارة والعمران؛ فلم يبق من يشعر بالولاء لها، وحلت محلها اللهجات العامية،

---

(١) السياسة اللغوية، ٣٠.

(٢) مصير وحدة الجزائر، ٢٢٤.

(٣) السياسة اللغوية، ٢٧.

(٤) الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف (المناقشات)، ١٢٨.

(٥) العربية تواجه التحديات.

وتطورت هذه اللهجات تطورا بطيئا، استغرق ما يزيد على سبعمائة عام، ثم نزع كل شعب إلى اصطناع لهجته لغة رسمية، والاستقلال بها عن غيره من الشعوب؛ لأن وحدة اللغة ركن من أركان الوحدة القومية، ووسيلة من وسائل التنمية لعصر ما بعد الإقطاع، وعون على إقامة الدولة القطرية الحديثة، والحكومة المركزية. ولم تكن للهجات التي اصطُنعت صلة باللاتينية، وإن أفادت منها ما استطاعت[1]. وإنما اصطنعت اللهجات لغات بعد أن كتب بها من الآداب والعلوم ما هيأها لبلوغ مطالب الشعوب، وليس في آداب العاميات العربية من الآثار العلمية والأدبية ما يهيئ واحدة منها للاستقلال عن الفصحى، فما استقل منها عن الفصحى لم يستقل إلا بالجهل. هذا إلى ما يُعْلَم من عدم صلاحية العاميات العربية للعلم والفكر، وأن الشعوب العربية غير مقتنعة بها، وإنما تتعلق بالفصحى، لأسباب دينية وعلمية وحضارية، وآية ذلك أن الدعوة إلى العاميات في الوطن العربي كانت دعوات أفراد، لا يُرتضَى توجههم، ولا يوثق بصدق انتمائهم إلى أمتهم وحضارتهم، ولا بإخلاصهم لأوطانهم، ولم يكن فيها يوما ما يبين عن رأي عام، أو طموح شعبي، ولا كان لها فكرٌ، تستند إليه مقنعٌ، وهي -في الثقافة العربية الحديثة- من صنوف الخيانة، والحرب على العرب والعربية، والائتمار بالأمة، ودينها، وتراثها، وحضارتها، ووحدتها، وموالاةِ الاستعمار وممالأته، وعونه على تبلُّغ ما يريد بالمسلمين؛ فكانت هي والدعاة إليها -من أجل ذلك- يَلقون من تحقير الرأي العربي العام، حين تُعْلَن، ما يجعلها تخبو زمانا، ويخنس دعاتها؛ لما يشعرون به من خزي وصغار عند سواد الناس الأعظم. وقد أخفقت كلها في الإقناع بما ترى، وإن بلغت بالحيلة والمكر كثيرا مما تريد، من إحلال العامية في التعليم والإعلام محل الفصحى، وأعانها عليه قلة وعي العرب، لكن ذلك ما أفضى يوما إلى تقدُّم أو رقي، ولا صير واحدا من الأقطار العربية إلى أحسن مما كان عليه، وإنما انتهى إلى تراجع العرب وانتكاسهم الدائم، وسياستهم اللغوية غير الناجحة، وآية ذلك ما يُرى من سيئ آثار التعليم بالعامية في التعليم العربي، فقد أحدث فيه ازدواجا لغويا،

(١) الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف (المناقشات)، ١٢٣ و١٢٨، ومحمد الطلابي يكتب عن التعريب بين الوعي المُفَوَّت والوعي المطابق.

جعل الكتب بالفصحى، والتدريس بالعامية؛ فحال بين الطلاب ومعرفة لغة العلم (الفصحى)، وتملَّك ناصيتها؛ فضعفوا عن فهم لغة الكتب المقررة، وثقلت عليهم قراءتها؛ ففشا فيهم الضعف، والأمية الثقافية، وكراهية العلم، وكثرة الرسوب، وضعف التحصيل، وقلة القراءة، وضعف التعبير والإنشاء الكتابي[١].

وقد أفادت الدراسات والبحوث العلمية التي أجريت في كثير من مدارس الدول العربية أن عدم حرص المعلمين على استعمال الفصحى في التعليم من أسباب الضعف في العربية، وتغلب العامية على الفصحى في الوطن العربي؛ لأنه يحول دون استعمالها في التعليم، ويجعلها أقرب إلى اللغات الأجنبية[٢].

وتظهر أضرار استعمال العامية في التعليم العربي إذا ووزنت حصيلتها بحصيلة التعليم بالعربية الفصحى، في بعض المدارس الخاصة، كمدارس روضة الأزهار العربية التي كان يشرف عليها الدكتور عبد الله الدنان في سورية، فقد أثبتت الدراسات أن طلابها يفوقون طلاب المدارس الابتدائية الأخرى في دمشق، وأن علاماتهم تفوق علاماتهم بما بين ٨٪ و١٩٪[٣]؛ لأنهم يتعلمون بالفصحى، ويتعلم غيرهم بالعامية، وقد جعل ذلك طلاب روضة الأزهار يتعودون الفصحى؛ فيفهمون لغة الكتب، وحالَ التعليم بالعامية في غيرها من المدارس دون ذلك. وانتهى محمد يوسف طه العمري في رسالته للماجستير بجامعة اليرموك إلى أن الأطفال الذين كان معلموهم يحدثونهم بالفصحى طوال اليوم الدراسي فاقوا أقرانهم في المدارس التي لا يفعل معلموها مثل ذلك[٤].

ولا يخفى على قارئ ما يُكتَب في صعوبة العربية والدعوة إلى تيسيرها، أو الانتقال منها إلى اللهجات، ضعفُ حججه، وقلُة العلم بما يَعرِض له، والانخداع بما يصدر عن بعض الغربيين، من أقوال وأفعال، لا تخفَى مقاصدُها إلا على من يظن بهم غير ما ينبغي أن يُظَنَّ. هذا إلى عدم الأصالة فيما يشتمل عليه من آراء، إنما هي ترداد لما قال الفرنسيون والبريطانيون، منذ استعمروا البلدان العربية،

---

(١) البعد السياسي لقضية اللغة العربية، ٦٧، وجدوى التخطيط اللغوي اليوم، ٢.

(٢) وجهة نظر في تعليم اللغات بالمغرب، والفصحى أم العامية، ص٦٥ (نقلا عن: لغة التدريس في قسم اللغة العربية، ٦٦).

(٣) تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة، ١٧.

(٤) السابق، ١٨.

وما قال عيونهم وألسنتهم من المستشرقين الذين كانوا يعملون على إقناع العرب بما يريد بهم الاستعمار. ويظهر ذلك أكثر شيء فيما كتب عبد العزيز فهمي، كقوله: إن حال العربية غريبة؛ لأنها مع سريان التغير في مفاصلها وتحتيتها في عدة بلاد من آسية وإفريقية إلى لهجات، لا يعلم عددها إلا الله لم يَدُر بخلد حكومة من الحكومات العربية المستقلة أن تجعل لهجة أهل بلدها لغة قائمة بذاتها، وتستعملها في الكلام والكتابة تيسيرا على الناس، كما فعل الفرنسيون، والإيطاليون، والإسبان، أو كما فعل اليونان[1]. وليست العربية لغة واحدة لقوم بعينهم، بل هي مجموع لهجات الأعراب البادين في جزيرة العرب، منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، جمعها علماء اللغة، وأودعوها المعجمات، وجعلوها حجة على كل من أراد الانتساب إلى العربية، ولا يعلم إلا الله كم لهجة كانت، ومن الظلم البين إلزام المصريين وغيرهم من متكلمي اللهجات العربية الحديثة معرفة تلك اللهجات القديمة التي ماج بعضها في بعض، فانعجنت، حتى تعذر تمييزه منه، ولو أمكن تمييز واحدة منها لكانت دراستها -لِقَدَمِها- أشقَّ من تعلُّم عدة لغات أجنبية حية، كل منها يعين المرء في عمره القصير على مسايرة العالم في هذه الحياة الدنيا. وفي كل عام نسمع صيحة مدوية، يصخُّ البعضُ بها معلمي العربية بالمدارس، متهما إياهم بالقصور أو التقصير في تلقين التلامذة، وهم براء من هذه التهمة، وإنما العيب في اللغة التي ليس لمفرداتها وقواعدها أول يعرف، ولا آخر يوصف، ولها في الأداء جرس ولوكة لسان، يضربان صماخ أذن الطفل، لبُعد ما بينهما وبين لهجة أمه؛ فينفر منها ومن المعلم نفور الطير رَوَّعته، والظبي باغتَّه[2]. وهي نفثة من يشكو الذي لا يجد، وكلامُ موتورٍ، يتكلف التجني، ويتعمَّد التهويل، ولا يبني ما يقول على حقيقة، يُعتدُّ بها، يمكن أن يحاكم إليها. وإنما حمله على هذا ما يَرَى من أنه مظنة أن يُحمَل على علم، وبعْدِ نظر، وصحة فكر، ربما لا يكون له منها ما يَسرُّه أن ينسب إليه. فهو مهتمٌّ بما يقول المستشرقون أكثر من اهتمامه بتقويم القضية تقويما علميا نفعيا مجردا، ويسرُّه أن يكون قوله رضا لهم؛ لأن عدم رضاهم دليلُ خَطأ من لا يرضون عنه. ولم يدَّعِ المستشرقون

---

(١) الحروف اللاتينية للكتابة العربية، ١٣٩.

(٢) السابق، ١٤٢ وما بعدها.

يوما لأنفسهم ما أسبغ عليهم هو وأمثاله من العلم والفهم، وإن كان يسرهم أن يكون ذلك رأيَهم فيهم؛ لما يدل عليه من أنهم نزلوا من قلوبهم منزلة، جعلتهم موضع ثقة، تؤهلهم لتوجيههم وجهة تجعلهم عونا للاستعمار على بلوغ ما يبغي من أمتهم وأوطانهم. وأما استغرابه ألا تصطنع الدول العربية لهجاتها لغاتٍ كما فعل الفرنسيون، والإيطاليون، والإسبان، فلا يدل على معرفة بمبلغ سلطان القرآن على قلوب المسلمين، وتشبثهم به، وبما يصلهم به، وأنهم يعلمون أن تغيير الحرف، والتبدل بالفصحى يعني قطع العلاقة بالقرآن والشرع، والتراث العظيم. والدول التي استقلت بلهجاتها كانت لها نزعاتُ انفصال، وتشعر بأنها قوميات، لا يجمعها سوى اللاتينية وحدها، ويشعر العرب أنهم شعب واحد، هو جزء من الأمة الإسلامية، ولا يتوقون إلى شيء كما يتوقون إلى الوحدة، ويرون أنها مقتضى ما بينهم من أخوة الدين، ووحدة اللغة والثقافة والتاريخ، وأن تقسيم بلادهم دولا فعلة من فعلات الاستعمار، أراد بها نفعه وضرهم، ولا يعترفون بالحدود التي وضع بينهم سايكس وبيكو، ويعدون قبول الحكام بها، وممانعتهم في الوحدة السياسية، منقصةً في الدين، ومواطأةً للاستعمار، وإيثارا للمنافع الخاصة على مصالح المسلمين، وعونا على تشتيت الأمة التي أمر الله بتوحيدها: (وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)، ومخالفا لمقتضى ما بين المسلمين من أخوة، أطالت نصوص الشرع في وصفها والحض على التشبث بها: (إنما المؤمنون إخوة)، (وألَّف بين قلوبهم)، «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، إلخ. وهو يستتبع ضعف الأمة، وتقوية عدوها، وعونه عليها، والتمكين له في أرضها. وقد حال الشعور بهذه الوحدة بينهم وبين ما جعل الإيطاليين والفرنسيين والإسبان يحرصون على التمايز، وجعَلَ الدين أهمَّ المعايير عندهم، لا الأعراق، ولا الثقافات، ولا غيرها من النزعات التي بنى عليها الغربيون دولهم الحديثة. ومن العجيب أن يسمي بعض المستشرقين اصطناع العامية مكان الفصحى حلاً متطرفا، ويعلنوا بمعارضته؛ لأنه ينال من العروبة، بتشتيت لغتها القومية

المجيدة، وتصييرها لهجات محلية لثغاء[1]، ويعجبوا من أن يَقبل كتّاب، يقتنعون بوحدة العرب الثقافية، أن يروا الوطن العربي مجزّأً، وهو أمر لا بد أن يكون، إذا اصطنعت اللهجات لغات، فصارت لا تفهم في غير أقاليمها[2]. ثم يكون ذلك الذي يعجب منه المستشرقون هو ما تراه طائفة من العرب، كعبد العزيز فهمي، وتدعو إليه، كأنها تجهل عاقبة اصطناع العامية على العرب، مع أنها من الوضوح بمكان، أو تدركها، ولكنها لا ترى بها بأسا! ولم ينتبه عبد العزيز فهمي إلى شيء آخر، هو أن العاميات العربية ليس لها تراث علمي مكتوب، وإذا قُرِّر اصطناعها لغاتٍ رسمية، وأُحلَّت محل العربية الفصحى، لم يكن فيها ما يعلَّم[3]، وإنما سينتقل العرب من العلم إلى الجهل، والفقر، والعدم المطلق. وهذا جانب آخر من جوانب حمق الدعوة إلى العامية، ودليل من الأدلة على أن ما يفكر فيه أصحابها هو التطويح بالعربية، وإن كان ما سيعقب ذلك هو العدم، والتبدل بالهوية بالانتقال إلى إحدى لغات الاستعمار، وهو دليل آخر على أنهم لا يفكرون في الإصلاح ولا التيسير. ولهذا كان العارفون بقضية العامية يقولون إنها وسيلة لإماتة العربية، فإذا ماتت لم، يحلَّ محلها إلا لغة من اللغات الأجنبية.

وقد ارتضى العرب العربية مختارين، لما يعتقدون من أنها هويتهم، ولسان دينهم وكتابهم، ووعاء تراثهم، والسبب الممدود بين ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، وبينهم وبين إخوانهم من المسلمين في العالم، وحرصُهم عليها كحرص كل شعب على لغته، وليسوا بدعا من الشعوب التي هي مثلهم في ذلك، كاليهود، فقد ظلوا محافظين على العبرية أينما كانوا من العالم، حتى أقاموا دولة، فجعلوها لسانها الرسمي، وعلَّموها من استوطنها، ولم يُستكرَهوا على ذلك، ولا ضاقوا به ذرعا، ولا عدوه محنة، ولا قالوا إنها رفات القرون، استُخرجت من القبور، وفُرضت فرضا، ولا شيئا مما زعم عبد العزيز فهمي، ولا رأوا أن غيرها من لغات العالم «الحية» أيسر منها تعلما، وأولى بأن تصطنع في «هذه الحياة الدنيا»، مع أن في اللغات «الحية» ما هو لغة بعضهم الأم، وهم

(١) الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف (المناقشات)، ١١٥.

(٢) السابق، ١٢٨.

(٣) اللغة العربية وسؤال الهوية، ١٢.

يجيدونها أكثر مما يجيدون العبرية، وهي أنفع لهم من جهة العلم والحضارة؛ لأن ما كتب بها من العلوم والآداب لا يقاس بتراث العبرية التي هي حديثة عهد بنشور. فليس العرب وحدهم هم الذين يطئطون الرؤوس والكواهل أمام لغتهم، بل كذلك يفعل غيرهم من الشعوب؛ لأنها تعتقد أن اللغات مفاتيح العقول والقلوب، ومستودع التراث، ولا يهون إلغاؤها والتبدل بها إلا على من أراد بأهله سوءا. هذا إلى أن في الفصحى من المزايا ما لا يعوَّض، وأن اصطناع اللهجات ليس مخرجا، فإن اللهجة إذا اصطُنعت اليوم لسهولتها صارت غدا لغة ذات لهجات، فصعب منها ما يَستصعب بعضهم من العربية الفصحى اليوم.

وليس كون العربية لهجاتِ أعراب قديمةً بمنقصة، فكثير من لغات العالم لهجات شعوب بدوية أو قروية قديمة، وقدمها لا يضرها، كما أن حداثة الحديث من اللغات واللهجات ليست بمزية، وهي -بعد- حداثة إضافية. والعبرة في السهولة والصعوبة باطراد القواعد، ووضوحها، وقلة الشذوذ فيها. وإذا ووزن ما قلنا في سهولة اللغات وصعوبتها بما قال عبد العزيز فهمي، تبيَّنَ أنه يُلقِي القول على العواهن، ويحكم كيفما اتفق، وهو أمر، تُبين عنه عبارته الأخيرة أحسن بيان، فإنها عبارة «ذوقية»، ولا تختلف عما قال القس زويمر، من أن العرب أخذوا لغتهم من الإبل، وقد بهظتها الأحمال. و«اللغات الحية» التي يسرُّه أن يتعلمها العرب، ويستبدلوها بالعربية؛ لأن تعلمها أيسر، وهي لمن يريد الحياة الدنيا أنفع، ليس فيها ما تلقَّاه الطفل العربي من أمه، وإذا كان في أداء العربية جرس ولوكة، يضربان صماخ أذنه؛ لبُعْد ما بينها وبين لهجة أمه، فما بين لهجة أمه واللغة الأجنبية «الحية» أبعد مما بينها وبين الفصحى؛ فينبغي أن يكون نفوره منها، واجتواؤه إياها، وما تصنع بصماخ أذنه على قدر ذلك البعد. أما سعة اللغة، فمزية، وليست بمنقصة، وليس في العرب من هو ملزم أن يستظهر العربية كلها، وإنما هي ذخر، يُتَزوَّد منه على قدر الحاجة، فلا معنى للحذف والاختزال، ولا يراهما إلا من يؤثر الضيق على السعة، والفاقة على الجِدَة. واللهجات العربية القديمة لا يدرسها المبتدئون، وإنما كانوا يدرسون المتون الصغيرة التي لا تُعْنى بالخلاف، والوجوه والآراء واللغات، كـ«اللُّمَع»، و«الإعراب عن قواعد الإعراب»، و«قطر الندى»، و«الآجرومية»، و«شذور

الذهب»، ونحوها من المختصرات، أما المتون المطولة، وشروحها، كألفية ابن مالك، فكتب متخصصة، ومن دأب الكتب المتخصصة التوسع، وتحري الشمول والإحاطة، وذلك فيها محمدة.

والجِدُّ في اطراح العربية الفصحى، واستبدال اللهجات بها حرصا على التيسير مما ترغب عنه الدول الغربية، على خلاف ما يذهب إليه عبد العزيز فهمي، وقد ظلت -كما قد رأينا- ثلاثة قرون، وهي تجاهد في توحيد شعوبها على لغة واحدة، وأضعفت اللغات واللهجات غير الرسمية، أو أماتتها، وعدَّت ذلك من أهم الوسائل إلى الوحدة والرقي، وكان ما انتهت إليه من الأحادية اللغوية مما تعدُّه في مزاياها التي استأثرت بها، فأعانها على ما هي فيه، إذ كان الإنتاج الصناعي يتطلب أساليب موحدة ومنظمة، كما يحتاج إلى شعب متجانس، ومتعلِّم، وهذا يستوجب استعمال لغة واحدة موحَّدة، بها يمكن أن يتواصل أعضاء الجماعة التي تشترك في عمل اقتصادي[1].

ومما يستحق التوقف؛ لأنه يدل على مبلغ وعي أصحاب هذه الدعاوي، أن ما يدعو إليه عبد العزيز فهمي إنما دعا إليه بتأثير من المستشرقين، وأن المستشرقين الذين زينوا للعرب أن يغيروا رسمهم، ويصطنعوا لهجاتهم مكان الفصحى ليس فيهم من اقترح على قومه أن يغيروا رسمهم، على ما قد رأينا من عيوبه، ولا من دعا إلى اصطناع عامية من عامياتهم مكان لغتهم الفصحى، وإنما اشتغلوا بإصلاح «عيوب» رسم العرب، والنظر لهم عن النظر لأنفسهم، وآثروهم بالنصح على أنفسهم، وهم إليه أحوج. ولقد كان هذا وحده جديرا بأن يزع عبد العزيز فهمي وأمثاله عن متابعتهم فيما يشيرون به على العرب، ففرنسة -مثلا- لا يدرَّس فيها بالعامية، ولا بلغة من اللغات الفرنسية الكثيرة، وتبعث إلى المغرب من «علمائها» من يعلمه اللغة التي يجب أن يدرِّس بها أبناءه[2]، وترسل بريطانية مرغليوث إلى القدس، ودمشق، وطهران ليقنع أهلها باستبدال الرسم العربي بالرسم اللاتيني، ويزعم لها أن التبدل بالحرف العربي «رقي باهر»، ما ينبغي التلكؤ في المصير إليه، ويحاضر لويس ماسنيون في

---

(١) اللغة والاقتصاد، ٤٤.

(٢) اللغة العربية وسؤال الهوية، ١١.

بيروت، فيقول إن الرسم العربي سبب كثير من بلاء العرب، ويدعوهم إلى اصطناع الرسم اللاتيني، وهو ومرغليوث يعلمان ما تعاني بريطانية وفرنسة من رسميهما، ولكنهما يشتغلان عنهما بالرسم العربي؛ لأن العرب أحب إليهما من الإنجليز والفرنسيين، ومصالحهم أولى بالعناية من مصالحهم!. وهو عمل يدل على العين التي ترى بها فرنسة وبريطانية العرب، ومبلغ استخفافهما بعقولهم، إذ تتوقعان أن يجوز عليهم ما «ينصحهم به» رسولاها، لويس ماسنيون ومارغليوث، من أمور، يُعمَل في بلادهما بخلافها. ولعل الذي جرَّأهما على ذلك، وأطمعهما في انخداع العرب ما رأتا من ثقة بعضهم بهما، ومسارعتهم إلى اعتقاد ما يسمعون منهما، من غير تبصُّر.

وما يزال الاستعمار الجديد يسير على خطا الاستعمار القديم، والغاية التي عجز عن بلوغها هي الغاية التي يسعى في دَرَكها، كالمشروع الأمريكي المسمى «مشروع الشرق الأوسط الكبير»، فقد جاء فيه أن الذي سيساعد على إقناع الدول العربية والإسلامية التي تستعمل الكتابة العربية بتغييرها هو أن الكتابة على الورق أخذت تفقد كثيرا من أهميتها القديمة، وستصبح الكتابة الإلكترونية أساس التفاهم والتواصل، وأن ما يريد العرب من حوار الحضارات والثقافات من أجل التقريب بينهم وبين الغرب يجب أن يُشرَط بتغيير شكل العربية ومضمونها الثقافي الذي يمكن أن تعتقده الأجيال العربية؛ لتحريرها منه، والقضاء على الموروثات «السلبية» في «الانتقام»، و«العنف»، و«الإرهاب». وسيعتمد هذا التغيير قبل الانتقال إلى الكتابة اللاتينية على أمور، أهمها: إلغاء النقْط، والحلقات المقفلة (الحروف المستديرة، كالهاء، والتاء المربوطة)، لِمَا انتهت إليه دراسة في مركز الحضارة التابع للخارجية الأمريكية، من أن تلامذة العرب والمسلمين يَشكون من تشابه حروف العربية التي لا تتمايز إلا بالنقط، وهو يعقِّد القدرة على التعلم مدة طويلة، ويجعل استيعابها لا يكون إلا بعد سنين من التعليم، هذا إلى ما يسبب من كثرة الأخطاء في الكتابة. ولما كانت الكتابة العربية هي المستعملة أيضا في أفغانستان، وإيران، ومالطة، والهند، وباكستان، وكازاخستان، وماليزية، وإندونيسية، واللغة البربرية، واللغة الهوساوية، كان هذا سبب أهمية هذا المشروع الكبرى؛ لأن تلك الدول ستصير إلى الحروف

اللاتينية، إذا ما صار إليها العرب. ويشمل التبديلُ الأرقام لتكون كتابة الأرقام الأمريكية والأوربية هي المستعملة في البلدان العربية، ولا سيما الكتابات والوثائق الرسمية التي يحملها العرب (كالجوازات وبطاقات التعريف). ويذكر المشروع أن تغيير الأرقام العربية أثارته أمريكة وبعض الدول الأوربية عام ١٩٨٤، واقتصر على الدعوة إلى اصطناع الأرقام الأجنبية وإلغاء الأرقام العربية، وأن الخارجية الأمريكية استقدمت أكثر من مائة أكاديمي عربي، على دفعات لإقناعهم بذلك، غير أن مجمع الفقه الإسلامي وهيئة كبار العلماء في السعودية حالا دونه(١). ويبدو أن حرص الاستعمار الغربي على تغيير الأرقام العربية في الوطن العربي أقدم من المحاولة الأمريكية هذه بكثير، فقد كان مما اقترح جان دوبياس على الحكومة التونسية، بعد الاستقلال، فاستجابت له من غير تردد، فغيرتها عام ١٩٥٨(٢). وزعم المشروع أن «خبراء في علم النفس»، اشتركوا في إعداد المشروع يرون أن تغيير أشكال الحروف العربية سيقلل من شدة العداء والكراهية المتأصلة في العرب لأمريكة والغرب. ويبنون هذا على أن الإكثار من الزوايا الحادة في الكتابة يدل على أن العربي عدواني، فلا بد أن يخضع للمراقبة، وتعديل الاتجاه لإزالة هذا السلوك العدواني، أما الشخص السوي، فهو الذي يستعمل صور الكتابة الجديدة بالدوائر الموسعة التي ستحل محل الحروف العربية في اللغة الجديدة، كما يحل a محل الهمزة، وB محل الباء(٣).

ولا يخفى أن هذا المشروع -لأنه سري- كان أوضح، ومقاصده أصرح مما كان يفعل الاستعمار القديم، إذ كان يكل الأمر إلى المستشرقين لُيقْنعوا به فئة من العرب، تتولى تسويقه والدعوة إليه، كأنه شيء هي اهتدت إليه، أو آراء تراها، بمعزل عن المستعمر. كما لا يخفى أنه مصاحَب بتغيير فكر العرب وثقافتهم وسلوكهم لينزع كل شعور منهم بالعداء لأمريكة والغرب، وليس مقتصرا على تغيير الحروف، وما يتبعه من الحؤول بين العرب ودينهم وتراثهم. وهو جزء

(١) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية.
(٢) دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية، ١١٠ وما بعدها.
(٣) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية.

من حرب حضارية شاملة، غايتها إعادة صياغة عقول المسلمين؛ ليكونوا سلما لأمريكة وإسرائيل. وقد أبان عن ذلك أيضا مؤتمر، عقد في سان بتسبرج بولاية فلوريدة في مارس عام ٢٠٠٧ م، سُمِّي مؤتمر «القمة الإسلامية الإصلاحية»، قال منظموه في بيان صحفي إنه سيناقش تفسير الإسلام تفسيرا علمانيا، وأهميةَ توسيع النقد ليشمل القرآن، وحريةَ التعبير في المجتمعات الإسلامية، وإنه يرفع شعار «محاربة الإرهاب» و«علمنة الإسلام»، وغايته صنع «إسلام عصري» بتفسيره بأسلوب «عصري». وكان الذي يشرف على تنظيمه طائفة من «المحافظين الجدد»، والمفكرين المؤثرين في السياسة الأمريكية، المعروفين بصهيونيتهم، وتعصبهم لإسرائيل، كوليام كريستول، رئيس تحرير مجلة «ويكلي ستاندرد» الأسبوعية التابعة لليمين الصهيوني الأمريكي، وفرانك جافني، رئيس مركز الدراسات الأمنية، وهما من رموز «المحافظين الجدد» المعروفين، و«المؤسسة الأوروبية للديمقراطية»، وهي الذراع الأوروبية لمؤسسة «الدفاع عن الديمقراطيات» الأمريكية الموالية لإسرائيل، وقد أُسست بعد يومين من حوادث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، ويسيطر عليها اليمينيون الجمهوريون من «المحافظين الجدد». وكان أغلب حاضري المؤتمر من غير المسلمين، ومن العلمانيين، والمرتدين عن الإسلام الذين تخصصوا في معاداته منذ ارتدوا عنه. وعقد على هامشه مؤتمر عن عمل الاستخبارات في صنع حركات فكرية مناهضة لتنامي الحركات الإسلامية في العالم، اشترك فيه بعض قادة المخابرات الغربية والإسرائيلية السابقين، سُمِّيَ «قمة الاستخبارات»(١).

وتتسم حجج الذين يتجنَّون على العربية بالمبالغة، والتهويل، والتنفير، كقول سعيد عقل: إن الكتابة العربية ليست مبنية على قواعد عقلية دقيقة، فحينما يقال للطفل إن «هذا» يجب أن تنطق «هاذا»، من غير أن تكتب كما تنطق، فإنما يقال له: تعلَّمْ اللامعقول، واقبل اللامعقول، وعش في حياتك على اللامعقول. وما أكثر القواعد الخارجة عن العقل، التي تستعمل في الكتابات العربية(٢). ويقول إن الحروف العربية يعيبها اختلاف الحجم، فالفرق بين (ط) و(ب) كبير، ولو

---

(١) خبر هام: مؤتمر للمحافظين الجدد لاعادة تفسير القرآن وعلمنة الاسلام.
(٢) أدباء ومواقف، ٥٦.

صُغِّرا إلى النصف لكان حرف الطاء ظاهرا، وحرف الباء غير ظاهر ألبتة. ويظهر عيب الحجم في الكتابة العربية أكثر شيء في كتابة الأرقام، فالصفر في الكتابة العربية مجرد نقطة، وهو عند الأوربيين دائرة، تظهر بوضوح[1]. ومن عرف جانبا من رسم الإنجليزية والفرنسية عَلِم أنه يتسقَّط ما ينال به من العربية، على عدم وجاهته. فما من أحد له إلمام برسم العربية إلا وهو يعلم أن معجم العربية لا يُرْسَم مرتين: مرة بالحروف العادية، ومرة بالرموز الصوتية، وأن الكتابة العربية سالمة من الاشتراك الحرفي والصوتي المعروف في لغات غير قليلة، منها الإنجليزية والفرنسية، فليس في العربية حرف يدل على غير صوت، ولا صوت يكتب بغير حرف، كما تدل الرموز الثلاثة k /c /q، في الإنجليزية، على الكاف، في هذه الكلمات ونحوها: king، can، quarter[2]، وكما تدل على الشين في الإنجليزية -وليس بأكثر حروفها صورا- هذه الرموز: sh، c، ch، s، ti، ss، sc، chs، sci، ssi، si، ci، sch، se، x. وتستعمل هذه الرموز بعينها رموزا لأصوات أخرى غير الشين، مثل (x)، فهو يرمز إلى الشين في luxury، والكاف والسين في box، والكاف الفارسية والزاي في exaggerate، والزاي في xylophone، وقد يكتب ولا يقرأ، نحو: faux pas. وتستعمل c للسين والكاف، ويستعمل الحرفان للدلالة على صوت واحد، مثل: ph، وth، ويستعمل الحرفان الأخيران للدلالة على الذال والثاء، ويمكن الاستغناء عن c وx، بـ k وs[3].

ويوهم كثير ممن يتنقصون الرسم العربي، ويدعون إلى تغييره أن رسوم اللغات الأخرى خالية مما يأخذون عليها، وأنها المثل الأعلى للرسم، ويوحون إلى العربي أنها يسيرة، ودقيقة، وهو إيحاء مبني على الثقة بجهل المخالف بتلك اللغات ونظامها الكتابي، على ما تحفل به من معايب، تخلو العربية من أكثرها[4]. ففي الفرنسية -مثلا- كثير من الكلمات، لا ينطق شيء من حروفها المكتوبة، وكلمات لا ينطق إلا بعض حروفها، مثل: oiseau (طائر) فإنها تنطق

(١) أدباء ومواقف، ٦٠.
(٢) التبعية اللغوية، ١١.
(٣) انظر مزيدا من الأمثلة في: منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ١٦٥ وما بعدها و١٦٩ وما بعدها.
(٤) نحو تقويم جديد للكتابة العربية، ٥٤.

wazo (وازو)، وbeaucoup (كثير) وتنطق boku[1]. وleshommes، وتنطق Lezon (الرجال)، وJaime، وتنطق Zem (أحب)، وJeaime، وتنطق Zotem (أحبك)، وils sapplento، وتنطق ilsapel (يقتلون أنفسهم)، وsilveux، وتنطق silvo (إذا أراد)، وsils veulent، وتنطق silvol (إذا أرادوا)[2]، وhaut-parleurs، وتنطق: أوباغليغ، وbeaucoup، وتنطق: بُكْ، وheureusement، وتنطق: ايغزم rzema:œ، وhors-d'oeuvre، وتنطق: أوغديفغ ordœ:vr. والكلمات lait (لبن)، وles (حرف تعريف للجمع)، وlegs (الإرث)، تنطق كلها «لا» (بألف ممالة)[3]. ومن آثار هذه الفوضى -فضلا عن صعوبة توقُّع نطق الكلمة- كثرة الكلمات المتماثلة في النطق، المختلفة في الكتابة، مثل: ((boy، buoy)، (for، four، fore)، (whole، hole))، إلخ[4]. وبعكس هذا الكلمات التي يتطابق رسم بعض مقاطعها ويختلف نطقها، كالكلمات التي قال فيها بعضهم:

Beware of heard، a dreadful word
That looks like beard and sounds like bird
And dead its said like bed not bead
!'For goodness sake don،t call it 'deed
Watch out for meat and great and threat
.[5] (They rhyme with suite and straight and debt)

أي: تنبَّه إلى كلمة مزعجة كـheard(سمع)؛ فإنها -على موافقة رسمها رسم beard (لحية)-، تنطق كما تنطق bird (طائر)، وdead(ميت) تنطق كما تنطق bed (سرير)، لا كما تنطق bead (خَرَزة)، وحذارِ أن تنطقها كما تنطق dead. وmeat (لحم)، وgreat (عظيم)، وthreat (تهديد) تنطق كما تنطق: suite (جناح في فندق)، وstraight (مستقيم)، وdebt (دَيْن)، على الترتيب. أي إن في الإنجليزية ما يتفق رسمه ويختلف لفظه، كالكلمات المذكورة في الأسطر الأربعة الأولى،

(١) انظر: الرسم الإملائي: الواقع وآفاق التطوير، ٤٩ و٦٠.
(٢) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ١٧٠.
(٣) نحو تقويم جديد للكتابة العربية، ٩٥.
(٤) السابق، ٩٧ و١٠٣ وما بعدها.
(٥) الغريزة اللغوية، ٢٤٠.

وما يختلف رسمه، ويتفق نطقه. ولهذا لا يمكن أن يكتب بعض الكلمات حتى يعرف معناه، ككلمة «فور»، فإن كانت تعني أربعة كتبت four، فإن كانت حرفا، كتبت for، فإن كانت تعني سابقة بمعنى أمامي كتبت fore[1]. وفي الفرنسية مثلا Le moi (ضمير المتكلم) وLmois (الشهر)، يتفقان في اللفظ، على اختلافهما في الرسم، ونطق Rec (صخرة)، وReauc (صوت أجش)، واحد والرسم مختلف، وكذلك Mer (بحر)، وMére (أم) وMaire (عمدة)، يتفق لفظها، على اختلاف رسمها، وهو كثير في الفرنسية كثرته في الإنجليزية[2]. وكثير من الكلمات يُتهجَّى تهجيا غريبا، يسبب عذابا للضعاف في القراءة؛ لأن الكلمة تكتب كما كانت تنطق منذ مئات السنين، وليس كما تنطق اليوم[3]. ولذلك قال جورج برنارد شو إن الرسم الإنجليزي لا نصيب له من المنطق، فهو يجعل من الممكن أن تكتب « fish» هكذا « ghoti»، فينطق gh فاء، كما ينطق في « tough»، وتنطق «o» كسرة كما تنطق في « women»، وينطق « ti» شينا كما ينطق في «nation»[4]. وكان يرى أن حروف العلة في الرسم الإنجليزي ستة فقط، وهي في النطق اثنا عشر، وكان يجب أن يكون المكتوب بعدد المنطوق؛ حتى لا يرمز الحرف إلا إلى صوت واحد. ويرى الاستغناء عن الحروف الثلاثة COX؛ لأنها زائدة، ويمكن الحروف الأخرى أن تؤدي عملها. وألا يُنطَق الحرف، ساكنًا كان أو متحركًا، إلا نطقا واحدا[5]. فأين هذا، وما هو أشد منه من حذف ألف «هذا»، ومن الفرق بين صورتي الصفر في العربية والإنجليزية، وبين الباء والطاء؟. مع أن حذف ألف «هذا» معروف الأسباب، وليس اعتباطا، فقد كان الكتَّاب قديما، إذا كان في الكلمة غير ألف، يقتصرون على واحد منها اختصارا، إذا أمنوا اللبس، وقد تخلصت الكتابة العربية من ذلك، وإنما بقيت فيها كلمات يسيرة، يؤمن اللبس فيها، منها: هذا، وهؤلاء. ومن وازن حذف الألف في هذه الكلمات القليلة بدواهي الرسم الفرنسي والإنجليزي، علم مبلغ تجني بعض

(١) نحو تقويم جديد للكتابة العربية، ٨٥.
(٢) آراء وأفكار (اللغة العربية والحروف اللاتينية)، ٥٧١.
(٣) لماذا تتغير اللغات، ٢٥٧ و٢٥٨ و٢٦٠ و٢٦١ و٢٦٨.
(٤) الغريزة اللغوية، ٢٤١.
(٥) برنارد شو، ١٤١.

الكتاب على العربية، وأن ما يقولون يصدق عليه الأثر: «يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ويدع الجذع في عينه».

والعربية التي يراد التخلص منها ومن كتابتها هي التي يقول الباحثون، بعد دراسة وموازنة طويلتين بين رسمها ورسم كثير من اللغات إن كتابتها خير كتابات اللغات الحية في العالم، وما يؤخذ عليها من عدم إدخال الحركات في صلب الكلمة اختصار، يحمل على الإعجاب، وإن إدخال الحركات في صلب الكلمة يعني زيادة المساحة الأفقية وإطالتها بنحو ٥٠٪. ويترتب على هذا أن الكتاب الذي هو مائة صفحة، إذا كتب بالطريقة التي يريد هؤلاء، صار مائة وخمسين، فـ(يتناولونها) مثلا، إذا كتبت بهذه الطريقة بالحروف العربية، فستكون هكذا: (يه ته نا وه لوو نه ها)، وإذا كتبت بالحروف اللاتينية: (Yatanaawaloonahaa)، فهي في الطريقة الأولى تكتب بخمسة عشر حرفًا، وفي الطريقة الثانية تكتب بسبعة عشر[1]، ولا تزيد في الكتابة العربية الأصلية على عشرة أحرف، مع أن الحركات في الكتابة العربية تؤدي ما تؤدي حروف العلة في الكتابة الإنجليزية والفرنسية، لكنها لا توضع إلا على الحروف التي تُشْكل قراءتها، فإن لم تشكل، لم تكتب لعدم الحاجة إليها. وإن ذهب علي الجارم إلى أن الشكل لا ينقذ من الخطأ بل قد يكون مدعاة له، وأن العين لا تستطيع أن تدرك الحروف وما تحتها وما فوقها في آن واحد مع الضبط والدقة، ثم تنقله إلى عصب المخ، فينقله عصب المخ إلى عصب اللسان سليما صحيحا، وأن التلامذة يخطئون في قراءة المشكول خطأهم في قراءة غير المشكول، وأن الطالب المثقف لا يستطيع قراءة القرآن الكريم وهو مشكول على أدق ما يكون الشكل، وأحكم ما يكون الضبط[2]. غير أن هذا لا يكون إلا من مبتدئي التلامذة الذين لم يتدربوا على القراءة تدربا كافيا، ولم يروا من الكلمات إلا قليلا، أما من تدرب تدربا كافيا، ورأى كثيرا من الكلمات، فليس في حاجة إلى الشكل؛ لأنه لا يعول على المكتوب كما يعول على ما تعود، فإن احتاج إلى الشكل، لالتباس الكلمة بغيرها، كان من اليسير عليه قراءته. وقد عزب عن عليٍّ أن المقروء هو صور

---

(١) نحو تقويم جديد للكتابة العربية، ٧٥ وما بعدها.
(٢) الحروف اللاتينية لكتابة العربية، ٩.

الكلم، قبل حروفه، وأن الصور تُقرَأ بالنظر، لا بالتهجي[1]، وإنما يتأتى ذلك من طول التعود، وكثرة المران، وآية ذلك أن الإنجليز والفرنسيين يقرؤون الكلمة، يخالف رسمها نطقها، لا يخطئون فيها، كما يقرؤون night، وenough، بمجرد النظر إليها، ويقرأ المسلمون «الصلوة»، «الصلاة»، بمجرد رؤيتها، ولا يتهجونها، ولا يقفون عند مرسومها، وهو شأن اللغات كلها. ولا يخفى من الناحية الاقتصادية البحت ما يوفر إسقاط الحركات من ورق وحبر ووقت وجهد في الطبع والكتابة اليدوية، بخلاف الكتابة الإنجليزية والفرنسية؛ فإن الكاتب يدخل الحركات في صلب الكلمات، ويكتب من الحروف ما لا يُقرَأ كثير منه. هذا إلى أن إدخال الحركات في صلب الكلمة في الإنجليزية -مثلا- لم يضبط نطقها، فليست فيها حركة واحدة ثابتة النطق كثبات نطق الحركات في العربية، فـ a -مثلا- ينطق ألفا في: can وran، وهمزة ممدودة بالألف، في: at، وألفا ممالة نحو الياء في: date، وrate، وdangerous، وفتحةً، في: alone، وضمة ممالة في: author، وwalk، وwar، إلخ. وu ينطق فتحة في run ، وrub، وضمة في put وpush، وياء مضمومة في unit، وياء ممدودة بالواو في pure، وألفا ممالة إمالة كبيرة، في urgent وurgency، وo ينطق فتحة في other، و done، وauthor، وألفا في round، وهمزة ممدودة (آ) في out، وضمة ممالة في orange، إلخ. فلم تُغْنِ كتابة الحركة في صلب الكلمة شيئا؛ لأن الذي يحدد نطقها هو السماع، وليس الكتابة.

وما أريد أن أزيد على هذا، وإنما أردت أن نلم بالقضية إلماما، يبين أن ما تُرْمَى به العربية أدنى إلى التجني منه إلى الدراسة العلمية التي تصف ما ترى، ولا تختلقه، وأن ما تُرمَى به من الصعوبة شيء، يتوهمه من يرميها به، على حين يُعرِض عن اللغات التي يريد العربَ ليصيروا إليها، إو إلى هجائها، على كثرة ما يشكو منها أهلها بحق، ولا يلتفت إلى صبرهم عليها؛ لأنها -على ما فيها- أخف الضررين، وخير الشرين. ولا يخفى ما بين الداعين إلى التخلص من العربية والصابرين على لغاتهم، المتحملين دواهيها من التعقل: يَعرِض العرب للقضية بمزاج الملول الطَّرِف، الذي يجعل أكبر همه سرعة الانتقال، ولو كان سيهلك في الطريق،

(١) الرجل الصنم، ٣٢٨ وما بعدها.

وينظر أولئك بعين المتعقل الموازن الذي ينشد الأفضل، ويتوخى المصلحة. وينبه المثقف الغربي على مشكلات حقيقية، ويقترح ما يزيلها، ويشتغل العربي باختلاقها؛ ليسطع نجمه في إزالتها[1]. وهو إذ يختلقها إنما يتابع على غير بصيرة، وليس بمثقف يقرر مشكلا، ويقترح ما يزيله. ولما كان غيرَ مستقل في تفكيره كان لا ينظر في تبعات ما يدعو إليه؛ لأنه لا يدركها، وإنما رأى غيره يعيب، فعاب. وكذلك كان مصطفى كمال، فلم يكن إلغاؤه الحروف العربية لأسباب لغوية، وإنما كان جزءا من تغيير ثقافي شامل، كان مما اصطُنع له، إذ قُرِّر أن يحكم تركية بعد أن يقضي على الدولة العثمانية، كجعْل العطلة الأسبوعية الرسمية يوم الأحد بدلا من يوم الجمعة، واصطناع القبعة من الطربوش، وجعْل العلمانية اتجاه الدولة الرسمي، بدلا من الإسلام، إلخ، أما ما سوَّغ به إلغاء الحرف العربي، فجاء بعد قرار الإلغاء، وكان كل ما فعلَ قد قُرِّرَ في مؤتمر أرض روم عام ١٩١٩ م[2]. ومن عرف علاقة مصطفى كمال بأوربة عامة، وبريطانية خاصة، وأن ما كان لها عنده لم يكن لدولة أوربية، حتى لقد سأل سفيرها بأنقرة، وهو على فراش الموت، أن يخلفه في رياسة تركية، إذا هو مات، فاعتذر[3]، وعرف ما كانت بريطانية تخطط له من تقطيع أوصال الدولة العثمانية، واجتيال الشعوب الإسلامية عن كل جامع، يجمعها، وكل معنى، يشعرها بالعزة والتميز، ويمكن أن تبني عليه مقاومتها للاستعمار، عرف مصدر هذا العمل، وما يراد به.

وكانت تبعات تغيير الكتابة كارثة على الترك، على تفاهة ما يزعمون أنهم جنوا منها، فقد كانوا يزعمون أن اصطناع الحرف اللاتيني سيجعل اللغات الأوروبية أقرب إلى الترك منالا، ولم يفكروا في أن اللغات الأوربية وحضارتها قد تسقط، وتحلَّ محلها حضارة أخرى، لها كتابة غير الكتابة اللاتينية، وأن التركي خسر الاتصال بتراثه المكتوب بالحرف العربي، وهو التراث التركي كله، من أجل حروف، لا يستغرق تعلمها أكثر من ثلاثة أسابيع، وكان من اليسير أن تبلغ تركية من لغات الغرب وعلمه وحضارته ما شاءت أن تبلغ، من غير أن تخسر شيئا من

---

(١) نحو تقويم جديد للكتابة العربية، ١٢٢.
(٢) السابق، ١٣٤، والرجل الصنم، ٣٤٥ وما بعدها.
(٣) انظر: الرجل الصنم، ١/ ١٣.

تراثها، أو تغير كتابتها، كما فعل غيرها من دول العالم[١]، وأنَّ المتعلمين من الترك لما فعل مصطفى كمال ما فعل، وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها أميين[٢]. ومن جناية هذه الفعلة على تركية أن التركي اليوم لا يستطيع أن يقرأ رسالة كتبها أبوه أو جدُّه في الربع الأول من هذا القرن[٣]، بل لا يستطيع أن يقرأ صكوك عقاراتهما، ووصاياهما، فضلا عن مؤلفاتهما. وكان أحد الأمريكيين قد قال للترك في إبان تغيير الكتابة، وكان يزور إستانبول: إنكم باطِّراحكم هذه الحروف ستخسرون من الناحيةِ الثقافية أكثرَ مما ستخسر أمريكة، لو فقدت معادنها كلها[٤]. ويذهب بعض الباحثين إلى أن انقلاب مصطفى كمال اللغوي إنما أراده لغايات سياسية وثقافية، هي السيطرة على ما يُطبع ويُنشر في الدولة، باحتجان فريق صغير من الترك للمعرفة، هم الذين يعرفون الحروف اللاتينية[٥]، وأن يزحزح التركَ بعيدا عن الماضي العثماني الإسلامي، ويجعل من المستحيل على الأجيال الجديدة المتعلمة بالحروف اللاتينية أن تطَّلع على تراثها[٦]. وبعد فرض الحروف اللاتينية، التي قيل يومئذ إن غايتها محاربة الأمية، لقيت الأجيال عنتا من اللغة الجديدة، فاتسع ما بين الجيل الجديد والقديم، وعزف الناس عزوفا شديدا عن شراء الصحف المكتوبة بالحروف اللاتينية، وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة بالحروف الجديدة بين ١٩٢٨ - ١٩٣٥ لا يتجاوزون ٥, ١٠ ٪[٧]، وهو خلاف ما زعم شانئو الحرف العربي، الداعون إلى تغييره، من أنه عقبة في سبيل محو الأمية، ونشر العربية، ووسيلة إلى إرساخ التخلف في المجتمع العربي[٨]. ولهذا قال أحد الترك المعاصرين: كانت كل كلمة تركية صورة نقرؤها بالنظر، لا بالتهجي، وكان علينا أن نخسر هذه الصور، وأن نضع مكان كل كلمة صورة جديدة، وكان من المحتمل ألا ننجح في ذلك لأخرى الدهر، غير أن الذين كانوا

---

(١) نحو تقويم جديد للكتابة العربية، ١٣٧.
(٢) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٨٠.
(٣) السابق، ١٢٥.
(٤) الرجل الصنم، ٣٤٠.
(٥) تركيا: إحياء اللغة العثمانية إرث ثقيل في ميزان السياسة.
(٦) صدام الحضارات، ٢٧٠ وما بعدها.
(٧) تركيا: إحياء اللغة العثمانية إرث ثقيل في ميزان السياسة.
(٨) انظر: اللغة العربية أسئلة العصر، ١٢١.

يستطيعون القراءة والكتابة كانوا بين ٥ و١٠ ٪، وكان يقال لنا إن على هذه الأقلية أن تتحمل التضحية من أجل الأجيال القادمة[١]. وقال: الحروف التركية القديمة ليست تركية، ولا فارسية، ولا عربية، وإنما هي حروف إسلامية، ذات أصل عربي، وإلغاؤها يعني تمزيق الظرف الذي يحمل الروح الإسلامي، واندلاقه، وقد كان تغييرها أكبر الثورات إيغالا في الفساد، وأشدها جناية[٢].

وكان تغيير الحرف العربي جزءا من حرب شنت على العربية في تركية، ذاق منها طلاب العلم الشرعي الذين كانوا يتعلمونها في تركية عذابا أليما، فقد سألت الحكومة التركية الحكومات العربية ألا تأذن لشباب الترك أن يتعلموا العربية فيها، وألا تُمَكِّنَهم من الإقامةِ بها، فاستجابت. ودارتْ الدَّائرةُ على كلِّ مَنْ درس في البلاد العربيةِ منذ عشرات السنين، فأُلْغيَت شهاداتهم، وأصبحوا يُعَدُّونَ من الجهلةِ، ولا يُعتدُّ بهم، وعُزلوا من العملِ؛ ليظهر للناس أنهم ليسوا بأهل علم، وعالة على غيرهم؛ لأن أكثرهم لما أُخرِجوا من أعمالهم بقوا في بطالة، فلم يكن لهم ما يعيشون به إلا الصدقة، وكذلك من لم يحصلوا على أعمال من هؤلاء الطلاب، واشتد التنكيل بمن كانوا يتعلمون العربية، وقتِّلوا بين ١٩٢٦ - ١٩٤٥م. وكان ذلك لردع الشبابِ الذين كانوا يزمعون الدِّراسةَ في البلادِ العربيةِ، فعدلوا عنها خوف البطالةِ والجوعِ والقتل[٣]. وكان ذلك في إبان حكم جماعة الاتحاد والترقي، وكانت تتعصب على العرب تعصبا شديدا[٤]. ومن الغريب أن يَعُدَّ بعض العرب استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية مأثرة من مآثر مصطفى كمال، وهذه حقيقته وغاياته، وأن يقتدي به بعضهم، ويَنْصَبُوا في إلغاء الحرف العربي، ولا سيما إذا عُلِم أن ما فعل مصطفى كمال بتركية لا يتجاوز تغييرا شكليا، لم تنل منه تركية ما نالت أوربة من حرية وتقدم علمي[٥].

وكان ما فعل مصطفى كمال من تغيير الحرف العربي هو ما أراد الإنجليز

---

(١) الرجل الصنم، ٣٢٨ وما بعدها.
(٢) السابق، ٣٤٠.
(٣) محاضرة في أهمية اللغة.
(٤) مقدمات العلوم والمناهج، ٥١.
(٥) نحو تقويم جديد للكتابة العربية، ١٤٣.

أن يفعلوا بمصر، كما يبدو من محاولات ولهلم سبيتا، فقد ألَّف كتابه «قواعد العربية العامية في مصر» عام ١٨٨٠ بالحروف اللاتينية، وكتب بها النصوص العامية، وقال إن طريقة الكتابة العقيم بحروف الهجاء المعقدة هي أكبر أسباب ما بمصر من تخلُّف، وكان يكتب بها رسائله. وأيَّده كتَّاب، كسلامة موسى، ويعقوب صروف، صاحب المقتطف[1]. وفرضت فرنسة الحرف اللاتيني في الكتب المدرسية العربية بالجزائر آخر القرن التاسع عشر، ودعت في أول القرن العشرين إلى استخراج قواعد العامية التونسية وكتابتها بالحروف اللاتينية، إلا أن دعوتها أخفقت، بما تصدى لها الوطنيون وبعض المثقفين الفرنسيين[2]. وكانت المدارس الفرنسية في الشرق في مقدمة حملة لواء الدعوة إلى الاستغناء عن العربية الفصحى بالعامية وكتابتها باللاتينية، ومن الكتب التي نشرت في ذلك كتاب بالفرنسية في قواعد اللهجة اللبنانية، لرفائيل نخلة، نشرته المطبعة اليسوعية، مع كتابة نصوصه العربية بالحروف اللاتينية، وكتاب لاي اليسوعي «التحفة العامية في قصة فينياس»، وهو رواية بالعامية، تبين عن جانب من حياة اللبنانيين، ونشرته المطبعة اليسوعية أيضا[3]. وكل شيء في هذه القضية يدل على أنها كانت خطة استعمارية، فقد دعت إليها في الشام جريدة «لاسيوي» الفرنسية عام ١٩٢٢، وكانت تصدر في بيروت، وناقشها المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٣م، في إحدى جلساته، ورفضها، وبعد سقوط الدولة العثمانية اصطنع مصطفى كمال الحروف اللاتينية عام ١٩٢٨[4]. وتقارُب التواريخ يدل على أن أصل الخطة واحد، ومصدرها واحد، كما أن غرضها واحد.

ومهما يكن من شيء، فـ«صعوبة» العربية، و«سهولة» غيرها من اللغات لا يعني أن مستصعبيها عرفوا من اللغات الأجنبية ما جهلوا من العربية، فقد رأينا أن كثيرا من أساتيذ الجامعات العربية لا يعرفون من اللغات الأجنبية التي يصرُّون على «التعليم» بها ما يمكِّنهم من مزاولة أعمالهم كما ينبغي أن تزاوَل، وأنهم يجهلون منها ما يجهلون من العربية، ورأينا ما جرَّ ذلك على التعليم

(١) تاريخ الدعوة إلى العامية، ٢١، ووسائل الإعلام بين العامية والعجمة.
(٢) البورقيبية والهوية، ٣٧، ومؤامرة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في عهد الحماية، ٦٥ وما بعدها.
(٣) من أجل تفاعل لغوي، ٧٧.
(٤) آراء وأفكار، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م ٣، ع ٦، ١٧٧

في الوطن العربي، كما رأينا ضعف الطلاب في اللغات الأجنبية، وقلةَ زادهم منها، وعجزهم عن فهم ما يُلْقَى بها من دروس، وما يؤلَّف من كتب. وليس المثقفون، والإعلاميون بأحسن حالا من هؤلاء وأولئك، وإنما تروج سوقهم، ويجوز ما يدَّعون على من لا يعرفون اللغات الأجنبية.

(٦)

وليس في ذهن شريف الشوباشي صورة لما يرى أن العربية ينبغي أن تصير إليه، فهو لا يرى أن تستبدل بها العاميات، ويرفض كل تغيير يقضي على أساسها؛ لأن ذلك يقطع العرب عن تراثهم وثقافتهم، وهي ثقافة من أهم الثقافات الإنسانية، ومن الجنون التفريط فيها. وإنما يرى أن تُخلَّق لغة وسطٌ، كتلك التي ظهرت في الصحافة منذ بداية القرن العشرين، تكون قاسما مشتركا بين اللهجات العربية كلها، وهي مهمة صعبة، وتقتضي عشرات السنين من البحث والتجريب، ولكنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ العربية من الاندثار. ويرى أن التغيير المقترح سيجعل المرء قادرا على فهم ما كُتب بالعربية قبل التغيير. وهو تغيير جاءت به اللهجات بالسليقة؛ لأنها أقرب إلى المنطق، وأبعد من التعقيد غير المفيد؛ فينبغي أن تقرَّب العربية المقترحة من منطق اللهجات؛ ليساعد ذلك على أن يتقبَّلها العرب جميعا. وبعد ثلاثة أجيال أو أربعة سيكون الذين يقرؤون ويكتبون ٨٠ ٪ أو ٩٠ ٪ من العرب[١]. ويرى أن تجعل الجملة العربية جملة اسمية، لما في الجملة الفعلية من لَبْس، يجعل فهم المعنى مشروطا بإعراب الكلمات، وأن يُجعَل العدد لا مذكرا ولا مؤنثا؛ لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث من التعقيد الذي لا داعي له، ولا يلائم العصر[٢]، وإلغاء المثنى، وإعراب المفعول، والمساواة بين الجمع المذكر والمؤنث في التذكير، فيقال: الرجال كلهم حضروا، والنساء كلهم حضروا، وإلغاء الترادف، والاشتراك[٣]. وهي مقترحات، لا جديد فيها، وقد رأينا أكثرها فيما كتب محمد كامل حسين،

(١) لتحيا اللغة العربية، ١٧٠.
(٢) السابق، ١٧٠.
(٣) السابق، ١٦٣ – ١٨١.

وعبد الله العروي، وقاسم أمين، وغيرهم، وقد عُرِض بعضها على مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٤٤[١]، وردَّد بعضها الكاتب الفلسطيني، جبرا إبراهيم جبرا في مؤتمر الأدب العربي المعاصر المنعقد بروما عام ١٩٦١، فقال إن مشكلة العربية في هذا الإعراب اللعين، فإن من أراد أن يقول شيئا بكلمات جميلة، تعبر عن ظلال المعاني، وجب أن يفكر أيضا في أواخرها. وقال إن مصير العربية أن تحذفه كما حذفته الإنجليزية، وكانت معربة الأواخر، كالعربية، فلم يبق فيها منه إلا ما هو ضروري، وهو قليل. وقال إن من الواجب أن تبتر الأواخر، وتزال التثنية؛ لأنها ثقيلة جدا، ويُبطل تأنيث الأفعال، لعدم التفريق بين الذكر والأنثى[٢]. وفحوى هذه المقترحات كلها الدعوة إلى اصطناع العامية بدلا من الفصحى. وفحواها اصطناع العامية بدلا من الفصحى. وهي -إلى ذلك- مجردة من الجد، ومنطق العلم، ويتملكها ما يتملك الدعوات التي سبقتها من الكسل، وعدم الفقه بطبيعة اللغة الإنسانية. ولْنَجْعل إلغاء المثنى مثالا للبساطة التي تناولَ بها القضية، وغفلته هو ومن سبقه عن حقيقة ما يقولون وينتقدون. فهو يقول إن من أوضح الأدلة على معاندة قواعد العربية لسنة التغيير استحواذ المثنى على النحو العربي؛ إلى بداية القرن الحادي والعشرين، مع أنه قد انقرض من لغات العالم كما انقرض الديناصور، ولم يكن له وجود في أكثرها[٣]. فهذا ليس بمنطق، تُدرَس به اللغة، وهو يدل على أنه من صنف من العرب، يرى أن الإنسان، ولا سيما العربي، يجب أن تعاد صياغته ليلائم «العصر»، أي ليماثل الغير، بغض النظر عن قيمة ما عليه الغير، وعن عواقب المماثلة؛ لأن الغير -في عقله الظاهر والباطن- مَثَل الكمال الأعلى، ونقص الناقص إنما تجبره مماثلة الكامل، أي إنه مثال للشخصية المصرية المريضة بعقدة الخواجة، وهذه العقدة هي العلة المستكنة فيما قال في كتابه هذا، المهيمنة على تفكيره، وقد رأينا مثلها في كلام عبد الله العروي. وكذلك ما قال في الجملة الفعلية: الجملة في اللغات الحديثة الحية هي جملة اسمية، وليست فعلية، وسبب ذلك ما تجرُّه

---

(١) المذكرات، ٢/ ٤٩٥.

(٢) الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف (المناقشات)، ١٢٤.

(٣) لتحيا اللغة العربية، ١٧٢ وما بعدها.

الجملة الفعلية من التباس لدى السامع أو القارئ؛ لأن المعنى فيها لا يُستنبَط من ترتيب الكلمات، وإنما من الإعراب، مع أن المنطق يقول إن الفعل لا يكون إلا بفاعل، والفاعل هو الذي يسبق الفعل، وله أولوية عليه[1].

والإعراب الذي عده شريف وأمثاله نقصا في العربية، وعده جبرا لعينا من أعظم مزاياها الجليلة، فهو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرَف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجبٌ من استفهام، ولا نعْت من تأكيد[2]. وهو -بعدُ- يتيح من التقديم والتأخير، والتفنن في القول، وإخراجه على أبدع وجه وأكمله، وأدقه بيانا عما في النفس، ما لا يتيح إسقاطه، لحفظه رتبة الكلمة، أينما وقعت من الكلام، وهذا يسمح بوضعها حيث يقتضي المعنى أن تكون، ومتى أُلْغيَ، «ألغيت المستندات التي يُتحاكَم إليها في تحديد المعاني»[3]، وسقطَ ما كان متاحا من خيارات في بناء الكلام[4] على الوجه الذي يجعله يوافق حالة المعاني في النفس، ولزمَ صورة واحدة؛ فاستوى مختلف المعاني في طريقة البيان عنها بأسلوب واحد، وكان لزاما أن يعوَّل على موضع الكلمة من الجملة في البيان عن معناها، وعلى القرائن، وزيادة بعض الكلمات، كالزيادة التي تجعلها الإنجليزية والفرنسية بين المتضايفين (of، de). غير أن القرائن لا تطرد[5] اطراد الإعراب، وعدم اطرادها يجعل الكلام عرضة للغموض، وبناء الجملة على ترتيب ثابت «كما تُرَصُّ الجمادات»[6] لا يقوم مقام الإعراب في دقة البيان؛ لأنه لا يبين عن أكثر من مجمل المعنى، وفي زيادة الكلمات من الإطالة ما لا يخفى. وقد فطن المستشرق الفرنسي، ريجس بلاشير إلى بعض ما تميزت به العربية من تنوع الأساليب، ودقة البيان عن المعاني، على وجه لا نظير له في اللغات الغربية، وإن لم يفطن إلى علاقة بعض ذلك بالإعراب،

(١) لتحيا اللغة العربية، ١٦٨.
(٢) المؤامرة الغربية على اللغة العربية، ٤٠.
(٣) أجنحة المكر الثلاثة، ٣٧٧.
(٤) اللغة العربية تواجه التحديات.
(٥) فلسفة اللغة العربية، ٥٢.
(٦) اللغة الشاعرة، ١٦.

فقال: «إن من أهم خصائص العربية قدرتها على التعبير عن معان ثانوية، لا تَعرِف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها، فالفرنسية -مثلا- لا تُعْنَى إلا بالتعبير الواحد، وفي العربية مذاهب وأساليب تُعْرِب عن مختلف الأحاسيس»[1]. يعني أن الجملة الفرنسية ليس لبنائها إلا صورة واحدة، وللجملة العربية صور شتى، كل صورة تبين عن معنى دقيق، متفرع من المعنى العام، هو «المعنى الثانوي»، وهو ما زاد على أصل المعنى. فالجملة في «اللغات العصرية» لا تعرف إلا: زيد جاء، وتعرف العربية: زيد جاء، وجاء زيد، وكل من الجملتين تبين عن معنى «ثانوي» دقيق، ليس هو الذي تبين عنه الأخرى، وإن اتفقتا في التعبير عن أصل المعنى (مجيء زيد). «ومتى ثبت لنا الفرق بين موقع الفعل والفاعل في الجملتين الاسمية والفعلية، فالاكتفاء بالجملة الاسمية، كما تقع في كلام الأوربيين، نَقْص منتقَد، وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء»[2]. وذمُّ العربية بتعدد الأساليب، والاقتدار على البيان اقتدارا تقصِّر عنه اللغات الأوربية، والمطالبة بحذوها عليها، والاستغناء عما زاد منها عليها، كذم الغنى وامتداح الفقر، والدعوة إلى تبديد الثروة، أو الاستغناء عنها، والرضا بالكفاف تشبها بالمعشوق الفقير. وإذا كانت اللغات الأوربية تفي بالتعبير عن مجمل ما يجول بخواطر أهلها، وما يَرِد عليها من معان، كما تفي العربية بالتعبير عما يجول في خواطر العرب، فليس معنى ذلك أن اللغات الأوربية تساوي العربية في البيان مساواة لا يبقى معها فضل لها عليها. وإذا كان العرب يعبرون عما لا يعبر عنه غيرهم من دقيق المعاني، فذلك لأنهم فطنوا من المعاني إلى ما لم يفطن إليه غيرهم، فكيَّفوا لغتهم معه، و«لكل لسان إمكانات فكرية مناسبة لخصائص نسقه»[3]، وهي إمكانات بعضها أمثل من بعض، وقد اقتصر غيرها من اللغات على البيان عن مجمل المعاني، ولم يعرض لدقيقها؛ لأن أهلها لا يعرفونه. وزعْم أن اللغتين متساويتان ما دامتا تفيان بالبيان عن مجمل ما يريد أهلهما، كزعم أن أقاليم الأرض كلها متساوية، ما دامت تُغلُّ لأهلها ما يقوتهم.

(١) الفصحى لغة القرآن، ٣٠٤.

(٢) أشتات مجتمعات، ٦٠.

(٣) اللسان والميزان، ٣٣٥.

وقد قال ابن فارس: «فإن قال قائل: فقد يقع البيان بغير اللسان العربي؛ لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بيَّن، قيل له: إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده، فهذا أخسُّ مراتب البيان؛ لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثرِ مراده، ثم لا يسمَّى متكلما، فضلا عن أن يسمى بيِّنًا أو بليغا»[1].

ولا يكون الاسم فاعلا حتى يصدر منه الفعل، والذي يساوق ذلك أن يقدَّم الفعلُ على الفاعل، لا أن يتأخر عنه، فإن أُخِّر عنه كانت الجملة الفعلية خبرا عن الاسم، كما يخبر عنه بالمفرد، في نحو: زيد قائم، ولذلك قال النحاة إن الفاعل لا يتقدم، فإن تقدم كان مبتدأ، وكان الفاعل ضميره المستتر في الفعل. ومن بلاغة العربية أن تتيح لمن يتكلم بها أن يقول: قام زيد، وزيد قام، فيكون «زيد» في الجملة الأولى فاعلا، وإنما أسند إليه الفعل بقصد الإخبار عن أنه فعله، ويكون في الجملة الثانية مبتدأ، وجملة «قام» خبر عنه، وإنما أُسندت إليه الجملة بقصد الإخبار عنه بها، لا على سبيل الإخبار بأنه فاعل القيام. هذا إلى أن من العادة أن يُقدَّم ما يُهتمُّ به. وستذهب هذه المزية إذا صيغت العربية على غرار اللغات الأوربية، وجُعلت الجملة فيها اسمية فقط. واللغات تتفاضل في الأساليب والمفردات، إلا أن التفاضل في الأساليب لا يعوَّض، ولا تَلْحق فيه لغة لغةً؛ لأن مبناه على التركيب النحوي، وهو من خصائص اللغة الصلبة التي لا يُتصرَّف فيها، بخلاف كثرة المفردات، ففي وسع أفقر اللغات أن تلحق أغناها، أو تفوقها، بالاشتقاق، والمجاز، والاقتراض، كما استحدثت فييتنام في سنوات معدودات ربع مليون كلمة بعد استقلالها، وعزْمِها على توطين العلوم، واقترضت كورية من الصينية ٧٥ ٪ من مفرداتها، واقترضت الإنجليزية من الفرنسية أكثر من ٥٠ ٪ من مفرداتها. فمزايا العربية -كما لا تساويها فيها لغة الآن- لا يمكن أن تلحق بها يوما، والدعوة إلى الاقتصار من الجمل على الجملة الاسمية دون الفعلية دعوة إلى إسقاط جزء من حسن العربية، ومزاياها البيانية حرصا على مماثلة لغات، هي دونها في تلك المزايا، أو للتخلص من إعراب الفاعل، والاستعاضة عنه بحذو الجملة العربية على الجملة في تلك اللغات.

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة، ١٩.

ومع هذه المزايا الجليلة يستصعب بعض العرب الإعراب؛ لأنه -على سهولته- يُحوج إلى التعلُّم، وحَمْل النفس على ما تكره من التفكير وتوقي الخطأ، ويرى ترتيب الجملة ترتيبا آليا يكفي التعلمَ والتفكير. والعامية لغة الجهل والجهلاء، ومن عَطَف عليها، فإنما يعطف على الجهل ويستبقيه ويستزيد منه، والدعوة إلى إحلالها -لسهولتها- محل الفصحى -لصعوبتها- كالدعوة إلى تعميم الجهل؛ لأنه سهْل، وإلغاء العلم؛ لأنه صعب[1]. ومن احتجَّ لاستعمالها بأنها اللغة التي يعرفها الجاهل بغير تعلم، فينبغي أن يحتجَّ لكل جهل بمثل ذلك[2]؛ فإنه لا يحوج إلى تعلُّم.

ولا يدل المثنى في العربية على أكثر مما يدل عليه لفظ «اثنين»، ولفظ اثنين لم تلغه لغة من اللغات، التي تستعمله، لكن لما كان المثنى يميز العارف بالإعراب من غير العارف، وليس في وسع غير العارف أن يتخلص من علامة إعرابه كما يتخلص من علامة إعراب جمع التكسير بالتسكين، كان لزاما أن يُلغَى، ويُكتفَى منه بالجمع؛ لأنه أستر للجهل، وأعون على الكسل. هذا إلى أن صيغة المثني مما تخلو منه «لغات العصر»، وما خلت منه يجب أن تخلو منه العربية، وكلِّ لغة، يراد لها أن تكون «عصرية». وما زال المثنى مستعملا في بعض اللغات السامية وغيرها، كما يقال في العبرية: يادَيِم (بفتح الدال وكسر الياء)، أي: يدان، وإذا أريد جمعها قيل: يادِيم (بكسر الدال)[3]. ولم يفطن الذين يرون إلغاءه إلى ما بينه في العربية وبين الجمع في «لغات العصر»، فالإنجليزية -مثلا- تستعمل -حين تريد ما يدل على المثنى- العددَ الدال عليه، وهو اثنان، وتجعل تمييزه جمعا، ولا تلغيه، ولا تستعيض عنه بالجمع، وإن كانت لا تخصُّه بصيغة ثابتة، ولا بضمير، كما تفعل العربية، فتقول: two books، كما تقول: ten books، وللمثنى في العربية صيغة ثابتة، وهو -كالواحد- لا تمييز له، ولفظه يدل على العدد والتمييز معا، وهذا من إيجازها وجمالها، فتقول: كتاب، وكتابان، ولا تقول: واحد كتاب، واثنان كتاب، كما تفعل الإنجليزية وبعض العاميات

(١) التعريب ووسائل تحقيقه، ١١٤.
(٢) يسألونك، ٥٠ وما بعدها.
(٣) اللغة العربية تواجه التحديات.

العربية، وإذا أرادت توكيد الإفراد والتثنية قالت: كتاب واحد، وكتابان اثنان. وإذا صح هذا، فلا معنى لإلغاء المثنى، كما لا معنى لإلغاء عدد من الأعداد، وإن خلت منه «لغات العصر». أما المطالبة بإلغاء جمع التكسير، فإنما حمل عليها الحرص على حذو العربية على «لغات العصر»، كما حمل على المطالبة بإلغاء المثنى؛ لتكون العربية كالإنجليزية والفرنسية في جمع الكلمة بزيادة سين في آخرها، وإن كان لا يتضح ما سيفعل هؤلاء بالأسماء، إذا أُلغي جمع التكسير، أَيَجْمَعونها جمع مذكر سالماً أم جمع مؤنث سالماً، أم بالسين؟[1].

(١) اللغة العربية تواجه التحديات.

ثانياً - الشيخوخة والتحجر

اتخذ بعض العرب العربية «غرضا، تتواقع فيه النصال...، فهي عند نفر، لغة شائخة منزوفة الطاقة والماء، لا تنهض بفكر، ولا تجري في مضمار الحضارة إلى غايته حتى تلهث، ويَبْطُلَ فيها نبْض الحرف. وهي عند آخر لغة جاءت والصعوبةَ على موعد، فالقاعدة فيها عصية، لا تلين، والقانون النحوي إدراكي مثقل، لا يتفق والاستجابات العفوية»[1]. وهي عند غيرهم لغة شاحبة، بها آثار جمال غابر، ولغة عتيقة محنطة، تتألف من ألفاظ، أضاعت رونق الالتصاق بالواقع وعذوبته، وغير كافية للبيان عن أحاسيس الناس، وعاجزة عن مسايرة المخترعات الحديثة، والبيان عما يَجِدُّ كل يوم، ولا تُبلِّغ أهلها السعادة العظمى بالرقي والمكانة الاجتماعية؛ لأنها لا تضمن لهم الراحة، والمنصب، وإنما تجرُّ عليهم الاحتقار والاشمئزاز، والاتهام بالتعصب والتأخر، ولا يتأتى منها سوى العُقَد الاجتماعية، فمتعلِّمها عرضة للسخرية والاستهزاء[2]. وكان هذا ونحوه من أقدم ما رميت به، كما يبدو من قول حافظ إبراهيم:

رموني بعُقْم في الشباب، وليتني عقمت؛ فلم أجزع لقول عداتي

وردَّده هشام شرابي فيمن ردَّده من المستأخرين، فقال: لماذا، إذا طالعتَ كتابا لأحد المفكرين أو المثقفين العرب، وجدتَه -في أكثر الأحيان- مُتْعِبًا، مملاً، ملآن بالتصنع والتكلف، ولو تناول موضوعا ممتعا ومثيرا؟ هل هي اللغة؟ هذه الفصحى المتحجرة التي لا تكاد تمتُّ بصلة إلى لغة الحياة التي نتكلم بها في البيت والشارع، ومع النفس والغير؟ أو هو هذا الفكر الجامد المتحجِّر الذي تحمله هذه العقول الأبوية الجامدة المتحجرة؟ لكننا نعرف أن اللغة والفكر صورة الواقع الثقافي الاجتماعي النفسي، واقعِ مجتمعنا الأبوي الخانق الذي

---

(١) العربية لغة العلوم والتقنية، ٨،

(٢) اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء، ٧٠.

يرفض كل تغيير في اللغة والفكر، ولا يرضى إلا بما هو مقبول، أو موروث، أو «حديث!»[1]. وذمُّ اللغة بالشيخوخة والقدم لا معنى له، مادامت اللغة أصواتا محدودة في عددها وجنسها، وما دام الذي سيخلُفها -إذا ذهبت- لن يكون إلا تلك الرموز الصوتية بعينها، ولن يؤدي إلا ما كانت تؤدي، وما دامت الباقية والغابرة متكافئتين في النظام، والدلالة على المراد، والعلاقة بينهما وبين ما تدلان عليه اعتباطية، وما دام ما يقع في اللغات من تغير هو أن يختلف بعض الأصوات، وبعض الصيغ الصرفية، والتراكيبِ النحوية، وأن يُستحدَث بعض الكلم، وتختلفَ دلالة بعضٍ. وما تؤول إليه الأصوات والجمل والصيغ من تغير ليس له فضل على ما كانت عليه، كما أن «هَيْدي» ليس لها فضل على «هذه»، ولا لـ«أنوارا» فضْل على «أنوارها»، ولا لـ«كزبي» على «كذبة»، ولا لـ«تْلاتي» على «ثلاثة»، ولا لـ«هيْك شَغْلي» على «شيء كهذا»، إلخ. فما زال بعض أصول الإنجليزية والفرنسية على ما كان عليه منذ قرون، وترجع الصينية إلى ألفي عام قبل الميلاد، وهي لغة معاصرة منذ نجاح الثورة الصينية عام ١٩٤٩، ولغةُ فكر، وفن، وعلم، وتقنية، وليس في الصينيين من يشعر بغربتها على عصرها[2]. والمرء لا يعرف اللغة قبل أن يولد؛ فيستوي عنده أن تولد معه، وأن تسبقه بآلاف السنين. وإنما يُذَمُّ القديم، ويُنزَع عنه إلى الجديد لما يكون في القديم من ضعف وبِلًى، وجنوح إلى الزوال، تجعله دون أن يبلِّغ ما يبلِّغ ما هو أجدُّ منه، ولِمَا يكون في الجديد من حسن ونضارة، وقوة، وصلاحية للبقاء مدة أطول من القديم الذي استنفد عمره، أو كاد. وهذه إنما تكون في الماديات، دون المعنويات، وليس فيها ما يصدق على اللغة، لا حسًّا ولا معنى. وإنما اللغة نظام اجتماعي مَرِنٌ، ذو قابلية فائقة للاستيعاب، وهذا ما يجعله النظام الأكثر مناعة ومحافظة، والأقدر على التجدد، أيضا. وهي تعمل بخدعة فنية بسيطة؛ إذ تسمح -بوسائل محدودة- باستعمالات غير محدودة، وتعمل بوحدات دلالية مرنة (الكلمات)، وقواعدِ ربط مرنة أيضا. وهذا الهيكل من المفردات والقواعد، يسمح باستعمالات مختلفة للكلمة، فيتداولها الناس زمانا، إلى أن

(١) النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، ١٥.
(٢) دور اللغة في تماسك شخصية الأمة، ٢٥.

تصبح معياراً اجتماعياً يقبلونه أو يرفضونه، والحكم السابق الذي يحول دون النظر هو اعتقاد وجود لغة متداولة بالغة القدم، مكونة من مواد موحَّدة[1]. وإذا كان في العامية من المفردات والأساليب ما يبين عما لا تبين عنه الفصحى من حياة العرب اليوم وأفكارهم ومشاعرهم، فليس ذلك من جدة العامية، ولا من قدم الفصحى، وإنما من علْمهم بالعامية، وإلفهم إياها، وفي الفصحى -عند العارفين بها- من المفردات، والأساليب ما ليس في العامية، وتبين عما لا تبين عنه، من علم، وفكر، وأدب، مما لا يقاس في أهميته بما تبين عنه العامية من أمور، لا تكاد تعدو التواصل، والحاجات الدنيا. وإذا ووزنت هذه المزية بتلك بطلت مزايا العامية، وتبين أن لا قيمة لها في الفصحى، ولا يُؤْثِرُها عليها إلا من يؤثر الذي هو أدنى على الذي هو خير، والجهل والسذاجةَ على العلم والفكر والأدب الراقي. وإذا كانت العامة تؤثر الجهل والسذاجة على العلم والفكر والأدب الراقي؛ لأنها هي التي تشاكل طباعها وعقولها، فما ينبغي أن يؤثرها من ينتسب إلى العلم والفكر.

ومما لا نزاع فيه أن «اللغة التي نتكلمها في المنزل، والشارع، ومع النفس والغير»، ليس فيها ما يقوم مقام الفصحى في الإبانة عما في رأس المفكر والعالم من معان ومفاهيم، وليس في المفكرين والعلماء الأمريكيين والفرنسيين والبريطانيين والألمان والروس والصينيين واليابانيين، من يكتب بها، أو يجاوز بها قدرها، وإنما يصطنعونها فيما تلائم من المقامات، ويصطنعون الفصحى لما تلائم، ولا يستعملون إحداهما في مقام الأخرى، ولا يتشكَّون من قواعد الفصحى، ولا يتذمرون من لزومها؛ لأن نظامهم التعليمي حَسَمَ أمر اللغة، وألزمهم أن يتعلموها إلزاما، لا خيار فيه، فتجاوزوا صعوبتها، إن كانت صعبة، وراضوا أنفسهم عليها حتى أنس وحشها، واطمأنَّ نَفورها، وانقاد شموسها. وما يشتغلون به من العلم والفكر يحتمُّ عليهم أن يختلفوا عن العامة في كل ما لا ينبغي أن يتفقوا فيه، ولو اقتضى الأمر أن يصطنعوا لغة دون لغة العامة والخاصة، كتلك التي يسمونها لغة العلم. وليسوا كمثقفي العرب، في هممهم، وتفكيرهم، ورضاهم بلغة العامة، يستعملونها على كل حال، استعمالا يقشعرُّ

(١) هل الألمانية خليط لغوي؟.

منه البدن، ولا يدَع مجالا للشك في أن عقولهم مدخولة، وهممهم «شائخة منزوفة»، إذ يتكلم أحدهم في كل جليل من الأمور، كقضايا الفلك، والفيزياء، والطب، والسياسة، والاقتصاد، والشرائع، والأديان، والقانون، والأدب، والنقد، والفلسفة، ويناقش الرسائل العلمية، ويخاطب العلماء والمثقفين، في المجالس الأكاديمية، والمحاضرات التي يشهدها وجوه الناس، وخواص الخواص، ويخطب على المنابر الدولية، بكلام الصبيان، والمجانين، والمهرجين، كقولَ أحد الدعاة المشهورين في قناة عربية دينية: «موضوعنا النهار ده موضوع بيئلئ أمهات وأبهات كتير، ومش بعيد إيضيَّع شباب، وساعات يهدي شباب... موضوعنا هو صحابكو، هل هُمَّا فعلا صحاب سوء ولاَّ صحاب، إلخ!»[1]، هل تطاوع مثقفا أو عالما نفسه أن يتكلم بهذا في مقام من المقامات الجليلة؟ وهل يكون امرأ سويا، إذا طاوعته؟.

وإنما العامية صيغة مبسطة في بنيتها وقواعدها، قاصرة في تراكيبها ومصطلحاتها،[2] محدودة في استعمالها، محصورة في بيئتها؛ لا تتجاوز مهمتها التعامل اليومي، ولا تصلح للتعبير عن الفكر المعقد، والتحليل العلمي المتعمق، وهي -إلى ذلك- فقيرة في مفرداتها، ولا يشتمل متنها على أكثر من الكلمات الضرورية للحديث العادي، ولهذا قال لينين إن من يرون استبدالها بالفصحى صبيانيون[3]، وقال عبد المنعم الدلمي -وهو من دعاة العامية في المغرب-: إن كل تغيير فجائي من الفصحى إلى العامية سيكون خطأ؛ لأنه سيُفْقر فكر أجيال من المغاربة، صحيح أننا نستعمل العامية استعمالا شبه دائم، لكنْ كلما حاولنا التعبير عن فكرة معقدة عدنا عودة عفوية إما إلى العربية الفصحى، وإما إلى الفرنسية[4]. وهو مما أقرَّ به بعض دعاتها، كما أقرَّ به الاستعمار الذي كان أول داعٍ إليها، وساعٍ في استبدالها بالفصحى، ففي الخامس من مارس، عام ١٩٥٤ -مثلا- اجتمع مفتشو التعليم الابتدائي في الجزائر، وكان مما اتفقوا

---

(١) في الإرهاب اللغوي.
(٢) لتحيا اللغة العربية، ١٧٠.
(٣) التعريب في الجزائر، ٢٠.
(٤) الدارجة والعربية، ١٤.

عليه أن العامية لا تصلح للتعليم ولا الإدارة[1]. فهم، إذ يرومون فرضها بدلا من الفصحى، يعلمون أنها لا تسدُّ مسدَّها، ولا تصلح للتعليم ولا الإدارة. ومما يبين عن فقرها، إذا ووزنت بالفصحى، وعدم صلاحيتها للعلم والفكر والآداب الراقية، دراسة لمحمد فريد أبو حديد لعامية القاهرة، بيَّنت أنها لا تضم من الأفعال الثلاثية المبدوءة بالباء إلا ثلث ما يضم معجم متوسط، كـ«المحيط»، أي إنها لا تؤدي إلا ثلث ما تؤديه الفصحى من المعاني[2]. وهي سمة من سمات العامية في سائر اللغات، فقد قال والتر أونج: اللغة المكتوبة لغة تتجاوز اللغة المحكية، تكونت من وجودها الكامل في الكتابة. والكتابة تُكسب اللهجة قوة تفوق قوة اللغة الشفهية. وللإنجليزية الفصحى كلمات مسجلة تربو على المليون ونصف المليون، في الأقل، من الكلمات التي هي عتيدة للاستعمال، ونحن لا نعرف معانيها الحالية فحسب، وإنما نعرف عشرات الآلاف من معانيها القديمة أيضا. وليس للعامية من الإمكانات اللغوية ما يمكِّنها من الحصول على ما يزيد على عدة آلاف، فضلاً عن أن ليس لمستعمليها معرفة بتاريخها الدلالي[3]. ومما يقرِّب هذه الحقيقة نوعَ تقريبٍ أن حروف العطف -مثلا- لم يبق منها في بعض العاميات العربية إلا الواو، وهي إنما تدل على مطلق الجمع، و«لا»، وتفيد النفي، وسقط منها ما يدل على الترتيب مع التعقيب (الفاء)، والترتيب مع التراخي (ثم)، والإضراب (بل)، إلخ. صحيح أن العامية قد تبين عن معانيها، أو بعض معانيها، بطرق أخرى، كأن تبين عن التعقيب بعبارة كهذه: «جا زيد وجا بعده عمرو على طول»، وعن التراخي بنحو: «جا زيد وبعدين جا عمرو». ولا يخفى ما في العامية من فضول وقصور إذا قيست إلى الفصحى، فقد جعلت الفصحى للمعاني حروفا ثابتة، تبين عنها، وتعجز العامية عن الإبانة عن تلك المعاني إلا بجمل كاملة، لا يخفى ما فيها من فضول وسذاجة. وما سقط من العامية، من أخوات «كان»، سقط مثله من المعاني، كـ«أضحى، وطفق»، فليس لمعناهما فيما أعرف من العاميات العربية ألفاظ تؤديها، وكـ«أمسى، وظل، وبات»، في بعض

---

(١) إنية وأصالة، ٥٢٤، ومولود قاسم، ١٣٠.

(٢) العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي، ٦٢، ولغة الإعلام بين الفصحى والعامية، ٣٤٣.

(٣) الحصيلة اللغوية، ١٤٦.

اللهجات، ولكنها تعبر عن معانيها بعبارات، ليست لها وجازة هذه الأفعال ولا دقتها، فـ«بات، وظل» -مثلا- يُدَلُّ على معناهما في بعض العاميات بـ: قَعَدْ (أو جلس) طول الليل، وطول النهار. وسقطت من أدوات جزم الفعل المضارع لم، ولمَّا، ولام الأمر، وسقط أكثر النواصب، وسقط بعض أدوات الشرط، فسقط ما تدل عليه من المعاني. على أنها ربما دلت على معاني بعض هذه الأدوات بألفاظ مركبة، أقل منها إيجازا، كما يُعبَّر عن معنى «لَمَّا» بعبارات من قبيل: للسَّاع (في الحجاز)، وللسَّ (في مصر)، وما بَعْد (في بعض أقاليم الجزيرة)، وما فاتْ (في موريتانية)، إلخ. ويعبر عن معنى «لن» بـ: ما راح، ومِشْ حَ، وما نا بـْ، وماني، فيقال: ما راح أقول لك، ومش حؤول لك، وما نا بقايلٍ لك، وما ني قايل لك. ولا تستعمِل من صيغ الأمر إلا فعل الأمر للمخاطب، دون الغائب، وليس فيها ما يؤمر به الغائب، كلام الأمر في العربية الفصحى. وسقط من أكثرها الفعل المبني للمجهول، واستعيض عنه إما بـ«انفعل»، وإما بـ«تْفَعَل»، وأول هذين الوزنين يدل على المطاوعة، وهي معنى غير المعنى الذي يدل عليه الفعل المبني للمجهول، وليس الوزن الثاني من الأوزان العربية، وإنما هو وزن آرامي.

وليس قصور العامية عن الفصحى قصورا في المفردات، ولكنه قصور في الأساليب أيضا، ويمكن المرء أن يوازن أبواب النحو في العربية الفصحى بما بقي منها في العامية ليرى أن العامية لغة منقوصة، مختزلة من الفصحى اختزالا، لتستعمل في البيان عن أفكار قليلة، في مقامات معدودة. وأنها أحسن ما تكون إذا استوفت الباب من أبواب العربية الفصحى، وأن كل شيء أسقطتْه من تلك الأبواب بان فيها من النقص بقدره، كما يَبين فيها من النقص بقدر ما أسقطت من المفردات. فقد قلَّ فيها التقديم والتأخير كثيرا عما هو في الفصحى، فذهب منها من الخيارات ما يتاح في الفصحى؛ فذهب بقدره من الحسن والبيان، وألزمت الجملة ترتيبا واحدا، لا يكاد يتغير، كما تفعل اللغات الأعجمية؛ ففقدت ما في العربية من ثراء، ودوران مع المعنى كيف دار؛ ليطابق نظْمُ الكلام حال المعاني في النفس. وتكاد تقتصر من أساليب القصر على أسلوب واحد، هو القصر بـ«إلا»، ومن أساليب التوكيد على القسم، وهي خسارة لأوجه أخرى

من أوجه المعاني، يعلم العارفون بالبلاغة مبلغ أهميتها ودقتها في البيان عن المراد، إلخ. ويمكن القول إن بالعقل العامي من النقص بقدر ما في العامية من قصور عن الفصحى، وإنه محصور في معان قليلة، لا يخرج عنها، ومحروم مما تتيح الفصحى من أساليب، تعين على التصرف في الكلام، والذهاب فيه كل مذهب. فمن يدعو إلى العامية إنما يدعو إلى تقييد العقل العربي بعقول العامة التي لا تعرف ما وراء الحاجات الدنيا، ولا تستطيع الإبانة عنه إلا بوجه واحد، وإغلاقُ الباب دون اللغة الغنية الباذخة التي قد تكون أكثر اللغات ملاءمة للعقل العالِم المثقف المترع بالمعاني والأفكار، بما تتيح له من مفردات وأساليب، تمكِّنه من أن يضع لسانه حيث بلغ عقله وعلمه. ولعل هذا مما حمل الفلاسفة والمفكرين والتربويين على التنفير من اصطناع العامية في الفكر والفلسفة والتربية والتعليم، وتبيين عدم صلاحيتها لشيء من ذلك، كما قال برتراند رسل: ما ينبغي في التفكير الجاد أن يُقنَع باللغة الجارية، إنني ما زلت مقتنعا بأن التشبث العنيد باللغة الجارية، في أفكارنا الخاصة، عقبة في سبيل إحراز تقدم في الفلسفة، بخلاف اللغة الفصحى، فإنها هي القادرة على التعبير الدقيق عن المفاهيم المبنية على الإيضاح، ودقة التحليل[1]، وقال غيره: اللغة العادية التي شب عليها المرء، وتكوَّنت بها شخصيته لا تلائم ارتقاءه لمتابعة الصيغ الفكرية الراقية[2]. إن استعمال اللغة الدارجة يتولد منه أمانٌ خادع، فالموضوعات العقلية التي تشير إليها تلك اللغة، والخبرات التي تُقِرُّها تُبنَى على شواهد دارجة، وهذا يترتب عليه عدم القدرة على مواجهة المشكلات التأملية، وانحدار الفلسفة إلى فلسفات التنوير في فرنسة؛ فيصطبغ الفكر بصبغة علم النفس الذي كانت تُحَلُّ به المعضلات الغيبية، والدينية، والأخلاقية، والفنية، والمنطقية، إلخ[3]. وقال أحدهم: يجب على الأطفال، مع تقدمهم إلى المدرسة الثانوية، أن يرتقوا إلى منزلة اللغة الراقية، كأنما يصعدون ببطء صعودا يمكنهم من الوصول إلى مقامات جديدة من التفكير المعقَّد، والقراءة والكتابة. فاللغة الراقية تعين على

---

(١) الفلسفة وقضايا اللغة، ٥٥.

(٢) الفلسفة واللغة، ١١٥.

(٣) السابق، ١٠٣ وما بعدها.

معرفة الأفكار المعقدة، والقدرة على الكلام فيها، وتسهِّل تعلم لغة أجنبية، ومن الصعب أن تُتَجاوز الثانوية من دون عوائق، ما لم تُستعمَل اللغة الراقية أداةً للعلم[1]. وقال بعض كبار الكتاب الغربيين إن كتابة الآداب والعلوم بها تُضْعِف المواهب العلمية، أو تقضي على ملكة الإنشاء الفصحى؛ فينبغي أن يُرقَى بعقول العامة إلى لغة العلم والآداب العالمية، لا أن ينزل بالعلماء والأدباء إلى لغة العامة[2]. وهذا عكس ما يفعل العرب، فإن صفوتهم يصطنعون العامية في التعليم كله، ولا يرى أحدهم أن بين منزلته العلمية واللغة التي يتكلم بها تناقضا، ولا أن عدم معرفته باللغة التي يجب أن تصطنع في التعليم مما لا يليق بمثله، ولا بمثقف، يخطب أو يتحدث في محفل، أو مجلس من مجالس الخاصة، كما سمعتُ مرة أحدهم يشرح درسا في التربية وعلم النفس، فيقولٍ للطلاب، من كلام على هذه الشاكلة كله: «في الوأت دا أنا ما أدرش أأقول إنَّ الكلام دا غلط». وليس الخطأ في إيغاله في العامية السوقية، ونأيه عن اللغة التي ينبغي أن تصطنع في المقام الذي كان فيه، وإنما لأنه -فوق ذلك- أوغل في سذاجة العامة وتفكيرهم، بالقدر الذي نأى عن العلم والفكر، فبدل أن يُلْبِس الفكرة العلمية ثوبا يليق بها، ويشعر السامعين بجده وجدها، أخرجها في ثوب، امتهنها، وأسقطه وإياها من عيون من يستمعون إليه؛ إذ ساواها بما يتبادل العامة من عبارات يومية، في مبتذلات الحياة، ونقلَ الطلاب من رزانة العلم وجدِّه إلى خفة العامة وتبذُّلهم؛ فإن مما استقرَّ في الأذهان استقرار الثقافات أن هذا الصنف من العامية لا يليق بالعلم، ولا يستساغ استعماله في مقام من مقامات الجد. ولقد أذكر -دليلا على ذلك- أن أستاذنا في التاريخ -يوم كنت في الصف الأول الثانوي- سرد علينا قصة ذبح إسماعيل -عليه السلام- بالعامية، كعادته في كل ما كان يُلقِي علينا من دروس التاريخ والجغرافية، ولم يكن في ذلك ما نستغرب، فقد غدا عادة، أَلِفْناها منه ومن غيره من الأساتيذ، إلا أنه لما بلغَ الحوارَ بين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- في رؤيا الذبح، كما وردت في سورة الصافات، سرده بعامية موغلة في الشعبية، شديدة البعد من لغة القرآن،

(١) لكل عقل موهبة، ١٧٣.
(٢) غربة العربية، (نقلا عن: الدارجة في الإعلام والسينما، ٨٤).

فقال: «دَا سيدنا إبراهيم آلْ لسيدنا إسماعيل: يا إسماعيل، دَانا شُفْت امْبارح إننا حَزْبَك، فآمْ سيدنا إسماعيل أَلُّ: اللي تشوف يا با». وما أن فرغ من عبارته تلك حتى انفجر الفصلُ كله ضحكا، وبأصوات عالية، تدل على أن الضحك غلبهم جميعا. وكنت حين إذ نطق بالعبارة غافلا، فما سمعتها منه، وما نبهني إلا حال الفصل ونَظَرُ الطلاب إليَّ نظر من يريد أن ينبهني على أمر طريف، فاتني، فلما سألتهم: ما يضحككم؟، أعادوا علي العبارة، كما نطقها الأستاذ.

ولو أن الأستاذ الذي كان يدرِّس التربية وعلم النفس قال: «إن لهذا الرأي من المسوغات -وإن خالفتُه- ما يحول بيني وبين تخطئته»، وما شاكل ذلك من الأساليب الفصحية، لعلَّم طلابه كيف يعبرون عن أفكارهم تعبيرا يليق بها، ويترفع عن ابتذال العامية وتفكير العوام، ولكنه علمهم لهجته، وليست بلهجتهم؛ فيزعمَ أنها أقرب إلى فهومهم من الفصحى، كما يزعم بعض من يتكلمون بالعامية في دروسهم، وكانت العربية الفصحى أقرب إليهم، وأيسر عليهم، وأدنى من عاميته إلى عاميتهم، وليس فيها ما يخفى عليهم، أو يحول بينهم وبين فهم ما أراد. على أنها لو كانت لهجتَهم، لكان قد ألزمهم ألا يرتقوا أو يتعلموا شيئا جديدا سوى الفكرة المجردة. ووجود لغتين يترتب عليه -لا محالة- وجود تفكيرين، ويَلزم من كون اللغات فيها ما هو عامي أن يكون في التفكير ما هو عامي، أو شعبي، كما يلزم أن يكون مع اللغة الفصحى التي هي للخاصة تفكير خاص بطبقة راقية[1]. وهذه العبارة وما شاكلها من الكلام الذي يدرَّس به في المدارس والجامعات العربية، ويُتكلَّم به في كل مقام من مقامات الجد، تصدِّق ذلك، فمن غير الممكن أن يُعَدَّ المعنى الذي يوضع في قالب شعبي أو عامي، يتداوله أقل الناس علما وفكرا، معنى راقيا أو خاصا، أو يثق أحد بأن من يقوله امرؤ من الخاصة، كما أن كثيرا مما يرِد من الحكم والأمثال البليغة في كلام العوام لا يعدُّ إلا عاميا؛ لأن الثوب الذي أُلْبِسَه ثوب عامي.

وينبغي لمن يحمل لقبا علميا كبيرا أن يكون له من الأخلاق والوعي بقدره، وأن يكون تفكيره أكبر من تفكير العامة، وهمته فوق هممهم، وألا يكون أحب الأشياء إليه أسهلها، وأقلها مشقة، ويترفع عن أن يتكلم في مقام العلم والفكر

---

(١) من أجل تفاعل لغوي، ٧٤.

بلغة العوام، ولا يرضى أن يتنزل من سماء العلم والفكر إلى أرض الطبع والسذاجة، حيث العامية التي يترفع العلم والفكر الراقي عن اصطناعها في مقامات الجد؛ فإن المرء لا يكون سويا في مجتمعه، «وهو عامي اللسان، خالي الذهن، عديم المهارة»[1]، والعامية قاصرة بطبعها، وإنما تكتمل إذا صارت لغة، ولا تكون كذلك ما دامت مع الفصحى، هذا إلى ما بديوانها الثقافي من قصور، يجعلها لا تصلح «لشيء من الكفايات اللغوية»، ولا توطِّن النشء إلا على معتقدات العوام وأفعالهم[2]. والعطف عليها عطف على الجهل واستبقاء له، وزيادة فيه[3]. وقد قال طه حسين: «لم أومن قط، ولن أستطيع أن أومن بأن للغة العامية من الخصائص والمميزات ما يجعلها خليقة بأن تسمى لغة، وإنما رأيتها وسأراها دائما لهجة من اللهجات، قد أدركها الفساد في كثير من أوضاعها وأشكالها»[4]. ومن جهل لغة كان غير جدير بأن ينسب إلى ثقافتها[5]، بل هو -كما قال طه حسين أيضا-: «ليس ناقص الثقافة فحسب، ولكنه ناقص المروءة، أو ناقص الرجولة»[6]. وأشد ما تكون المهانة، وأقبحها من أستاذ جامعي، يرسخ في عقول طلابه الضعف والوهن والرضا بالدون، ويحملهم على اجتواء لغتهم والاستهانة بها، والركون إلى همم العوام وأفعالهم. وتعلّم العربية الفصحى ليس بالصعوبة التي تجعل كبار المثقفين والكتاب والأدباء يعرضون عنه هذا الإعراض، ويرضون منه بالهجوم على المنتقد، والرغبة في انتهاك قواعد اللغة، من أجل أن يتكلموا كيف شاؤوا من غير أن يخطِّؤوا. ومن أسف أن إعراض هؤلاء عن الفصحى واصطناعهم العامية في مقامات العلم، كما يصطنعونها في شؤون الحياة العادية، مبني بعضه على الاستخفاف بالعربية الفصحى كما يستخف بها العامة، والممثلون الهازلون الذين يتعمدون التنفير منها، والإقناع بأنها لغة ثقيلة، بعيدة عن حياة الناس وواقعهم، وأن العامية هي

---

(١) لسان حضارة القرآن، ٦٣.
(٢) السابق، ٥٥.
(٣) يسألونك، ٥٠.
(٤) مستقبل الثقافة، ٢٣٦.
(٥) اللغة الباسلة، ١٨.
(٦) السابق، ١٩.

اللغة الطبيعية المحببة إليهم، المبينة عما في نفوسهم. ويرى غير المتخصصين في العربية أنهم في حلٍّ من التعليم بها والتكلم بها في مقامات الجد، وأنْ لا شيء يلزمهم أن يصطنعوا لغة صعبة مستثقلة عند العامة في علوم بعيدة من العربية. والعربية عندهم تخصصٌ، ليس بذي بال، ولا مقتضى له في حياة العرب العصرية، وفي وسعهم أن يبلغوا ما أرادوا بالعامية، واللغات الأجنبية. من أجل ذلك ترى المنتسبين إلى العلم والسياسة يتكلمون على الملأ، وفي المؤتمرات العالمية والصحفية والقطرية، والقنوات الفضائية التي يشاهدها العالم كله أجمع، والمحاضرات في مدرجات الجامعات وقاعات الدراسة، يتكلمون بالعامية التي يتكلم بها سائقو سيارات الأجرة والشاحنات، والبناؤون، والحدادون، والزبالون والأميون، والأعراب، والقرويون، ومهرجو المسرحيات الهزلية، يتحدثون براحة بال، لا يداخلهم حرج من أنهم أتوا غير لائق بالسداد، ولا أن نظراءهم في الدول التي تستهويهم لغاتها، ويقلدونها في كل ما سَهُل تقليده، يترفعون عن مثل ما يأتون، ويأبون أن يسووا أنفسهم بالدهماء، وتأباه عليهم شعوبهم. ولقد يُرَى مثل ذلك من أساتيذ الأدب والنحو والبلاغة، كما يُرَى من غيرهم: لا يحاضرون إلا بالعامية. وإذا عرف واحد من هؤلاء شيئاً من لغة أجنبية، وجدت لسانه طيعاً بإظهاره، بمناسبة وبغير مناسبة.

بقي أن أشير إلى أن فئة كبيرة من المجتمعات العربية تُعْفي أنفسها أو تُعْفَى من تعلم العربية والتكلم بها، وترى أن لا ضير عليها من عدم تعلمها وتكلمها؛ لأنها ليست متخصصة فيها، كأنما تقول إن من يلام في اللحن هو أستاذ العربية وحده! ويُنشَّأ طلاب العلوم التطبيقية تنشئة آلية مجردة من الروح والفكر والقيم الإنسانية، تجعلهم ينظرون إلى العربية وآدابها بازدراء، وأنها تباين في الصميم ما ينبغي أن يُعنى به أمثالهم، وهو العلوم التي يخصون فيها، وينظر بعضهم إلى المخصين فيها نظرة دونية، مبناها على الاستصغار، والعجز، وضعف العقل، وقلة الفهم؛ ولذلك يجد المرء عند خريجي الكليات التي تدرس هذه العلوم ضعف تفكير، وقلة وعي، يجعلانهم أدنى إلى الآلات منهم إلى الناس الأسوياء. مع أن الغرب الذي يقتدي به العرب في ماديته ينشِّئ أبناءه على خلاف ما ينشئ عليه العرب أبناءهم، ودونك ما قال أحمد زكي، رئيس تحرير مجلة «العربي»

الكويتية الأسبق: كنت يوما في زيارة جامعة من جامعات أمريكة الكبرى، وصحبني عميد كلية الهندسة فيها لزيارة كليته. ومررنا بقاعة المحاضرات، فقال لي إن بها طلبة الهندسة في آخر سنواتهم الدراسية، وكان الدرس القائم في الأدب الانجليزي. وحسبت أذني خذلتني، فلم أحسن سمعا، فسألته عما قال، فقال: نعم، إنه درس في الأدب الانجليزي. ولما أحسَّ بعجبي من أن يعطى طلبة الهندسة درسا في الأدب الإنجليزي، وعجبي من أن يكون ذلك في السنة النهائية، إذ تشتد العناية بالتخصص ومواده، قال لي إن هذه الخطة جديدة في سياسة الجامعة، أن تمزج علوم الهندسة القاسية بلين العلوم الإنسانية، كالأدب، والفلسفة، وعلم الاجتماع، حتى لا يخرج المهندس وهو لا يعرف من دنياه غير الهندسة علما، وغير الهندسة مهنة؛ فتؤثر المهنة في خلقه وطبعه، فيصبح كأدوات الرسم التي هي وسائل عمله، جفاء وجمودا، أو المكنات التي يديرها، تجري وليس لها فطنة ولا وعي، فتهرس ولا تعلم أنها هرست. ويسمع المرء كل يوم ويرى في المجتمعات العربية وفي تفكيرها وفهمها أشياء محيرة، تنم على أنها في أزمة فكرية، وضائقة حضارية، وأنها لا تعي ماهية الإنسان، فلا يهمها أن تخطط حياتها على أساس من تلك الماهية. إن اللغة ليست أصواتا يحدثها الإنسان للإعراب عن حاجاته الدنيا، بل هي أفكار، وعواطف، ومشاعر، وأشواق، وآمال، وأحزان، وأفراح منطوقة، ووشائج وعلاقات ممدودة، وكلما تسامت تلك المعاني في نفس الإنسان، وتباعد ما بينها وبين التراب تسامت الأصوات والحروف المبينة عنها عن الحروف والأصوات التي تصدرها العامة والدهماء، والعكس بالعكس، كما قال لايبنيز: «من المعروف أن اللغة مرآة العقل، وأن الشعوب حين تسمو بتفكيرها تُحْسِن أداء اللغة كما يدل عليه مثال اليونان والرومان والعرب». كيف يكون المرء مثقفا ورائدا من رادة الفكر، ولغته ولغة الأحمق والمعتوه والجاهل والطفل والعجوز واحدة؟!

إن اللغة التي كانت تُتكلم قبلنا بآلاف السنين جديدة علينا جدَّتَها على الذين استعملوها أول مرة؛ لأننا لم نستعملها مذ كانت، وإنما استعملناها مذ كنا، وهي واللهجات التي نتكلم بها اليوم سواء في ذلك، فليس فيها ما صنعناه بأنفسنا، ويستوي عندنا أن يكون عمْر الواحدة منها آلاف السنين ومئات السنين وعقودا

معدودة، فـ«أبي»، و«أمي»، و«بَحْر»، و«نَهَر»، و«جَبَل» جديدة عندنا، جدتها عند أول عربي نطق بها، ولا نشعر بملل من استعمالها، ولا نجد توقا إلى غيرها من الألفاظ التي بمعناها، إذا استُحدثت في هذا الزمان، والأسلوب الذي يبلغ ما في قلوبنا لا نشعر بأنه قديم، ولا منزوف، وإن أتت عليه قرون كثير، وإنما المنزوف اللفظ الأجنبي؛ لأنه ليس له أصل في ثقافتنا، ولا مكان من قلوبنا، والأسلوب الهجين؛ فإنه ترجمة حرفية لأسلوب أجنبي، ليس بيننا وبينه سبب نفسي، يجعله أهلا لأن يكون دليلا على قلوبنا. وما يزال في اللغات الأوربية الحديثة كثير من المفردات اليونانية واللاتينية تستعمل في كل مجال من مجالات الحياة، لا تُمَلّ ولا تُجتوَى، ولا يُتبرَّم منها، ولا يضاق بها، كما أن أكثر العاميات العربية مفردات عربية تستعمل في الفصحى منذ الجاهلية، وهشام شرابي لا يملها، ولا يجتويها.

(٢)

ولو احتكمنا من الدنيا إلى حكم، لكانت اللغة التي عُمِّرت دهورا أفضل من اللغة الحديثة؛ لأن للمعمَّرة من الرسوخ في العقل والشعور، ومن التجارب والمسمَّيات، والمفاهيم والغنى الثقافي ما ليس للغة حديثة السن، لا تزيد ذخائرها العلمية والفنية والثقافية على ما اكتسبت في بضعة عقود، أو بضع مئات من السنين، وكل ما فيها من ذلك في القديمة منه ومن غيره أضعافه. والفرق بين اللغتين (القديمة والحديثة) كالفرق بين عالم، جرَّسه الدهر، فَحَوَى عقله من العلوم والحِكَم كنوزا وفيرة، وتجارب غزيرة، وشابٍّ غرٍّ، قليل العلم، لم يثقف من الدنيا شيئا ذا بال، وإن خَيَّل إليه العُجْبُ غيرَ ذلك. وإنما يؤثر هذه على تلك من يؤثر الذي هو أدنى على الذي هو خير؛ لأنه لا يصبر على طعام واحد، وهو مما يتصوَّن منه العالم والفيلسوف، أو لأنها أيسر عليه ولا تُحوجه إلى تعلم؛ لأنها هي التي يتكلم بها بالسليقة، وإن كانت دونها في كل شيء. وقد عدَّ الباحثون قدم العربية، وكون عمرها يُنيف على ألفَي عام مما أتاح لها تراكماً معرفيًّا عظيما، وذخيرةً اصطلاحية حافلة، وعدَّ عدم تغيرها -على قدمها- من المزايا التي حُرِمها سائر اللغات[1]. فما تزال لغة المستأخرين كما كانت لغة

(١) المصطلح التراثي العربي بين الإهمال والإعمال، وكتاب التمرنة، ٢/ ١٩.

المستقدمين، ما استغربت، ولا استعجمت، ولا أصاب أصولها وصيغها تغير، ويقرأ العربي اليوم نصوصها القديمة، فلا يستوحش منها، وإنما يأنس بها، ويتلذذ بتكرارها وتمثلها، ونصوص اللغات الأخرى تستغلق على الفهم، إذا أتى عليها قرنان، بل قرن واحد، فتصبح من مخلفات التاريخ، وتوضع لتفسيرها المعجمات، فإذا أتت عليها ثلاثة قرون أو أربعة عُدَّت من مقتنيات المتاحف[1].

وقال بعضهم إنها لغة ثبات وخلود، أي إنها تحتفظ بالشكل الذي اختار لها الذهن العربي، فاستقرَّت عليه، وتتحول كلمات الفرنسية -مثلا- وقواعدها من جيل إلى آخر، فينقطع ما بين الخلف والسلف، إلا أن يُترْجم للخلف ما ورَّث السلف[2]، كما يترجم تراث الأمم الأجنبية. ففرنسية القرن الثالث عشر، أو الرابع عشر الميلاديين -مثلا- ليست هي فرنسية القرن العشرين، ولا يفيد منها الفرنسيون أو يترجموها إلى الفرنسية الحديثة[3]. وأقدم نص بالفرنسية، يفهمه الفرنسيون يعود إلى عام ١٥٠٠ م. ويبدأ الأدب الفرنسي المقروء بفييون، شاعر القرن الخامس عشر، فرابلي، ومونتيني، أما كُتَّاب القرون الوسطى، كآدم الأحدب، في القرن الثالث عشر، فلا يقرأ لهم الفرنسيون إلا ما تُرجِم إلى الفرنسية الحديثة، بل لا يمكنهم أن يفهموا شعر الشعراء المذكورين إلا بالشروح المطولة[4]، ولا يدرسون ما قبل دو بيلي (القرن السادس عشر)[5]. ويتعاصى فهم الأدب الإنجليزي المكتوب بين ١١٠٠-١٥٠٠ للميلاد -وهو عصر الإنجليزية الوسيطة- على الإنجليز اليوم كل التعاصي؛ لأنهم يَلْقون منه اختلافاً في الألفاظ، والأصوات، والقواعد، والكتابة عما يعرفون من إنجليزيتهم المعاصرة، وإذا راموا قراءة الأدب الإنجليزي في عصوره الأولى، وجدوا أنهم يقرؤون لغة أجنبية، ولا يفهمونه إلا أن يترجم؛ لأن إنجليزية ما قبل القرن الحادي عشر، أو ما يسمى الإنجليزية القديمة في عداد اللغات الميتة، ولا يفهمها أحد، ولا علاقة

---

(١) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ٢١.

(٢) مكانة اللغة العربية بين زكي الأرسوزي وعثمان أمين، ٥٨.

(٣) قضايا لسانية وحضارية، ٤٨ وما بعدها.

(٤) لن تتكلم لغتي، ١٣ وما بعدها.

(٥) أتكلم جميع اللغات لكن بالعربية، ١٩، ولماذا تتغير اللغات، ٣٠٤.

لها ولا صلة بالإنجليزية الحديثة[1]. ولم يأت على وفاة شكسبير (ت ١٦١٦ م) إلا أربعةُ قرونٍ، ومع ذلك يجد الإنجليز من صعوبة فهمه أكثر مما يجد العرب من فهم المعلَّقات التي أتى عليها نحو من أربعة عشرَ قرناً، ولا يفهمون من أدبه إلا ما ترجم إلى الإنجليزية الحديثة. أما أدب جفري تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠ م)، فلا يُفهَم المكتوب منه إلا بشق الأنفس، أما الشفهي، فلا يفهم ألبتة، وإنما يمكن أن يُلِم بالمعنى المجمل لصفحة منه دون عناء القارئُ المثقف ثقافةً إنجليزية، أما الإنجليزية القديمة، وهي التي تسبق الوسيطة، فأمرها أصعب[2]. ولا يفهم الألماني المعاصر كلمةً واحدةً من اللغة التي كان يتكلم بها أجداده منذ ألف عام[3]. وما زال العرب يقرؤون النصوص المأثورة عن أقدم شعراء الجاهلية، فيفهمونها من غير مشقة، ويفهم متوسط الثقافة منهم شعر المهلهل، عدي بن ربيعة، وطرفة بن العبد، وامرئ القيس، وعمرو بن قميئة، ولا يجدون صعوبة في قراءة ابن المقفع، وأبي حيان التوحيدي؛ لأن العربية الفصحى لم يطرأ عليها تغير ذو بال؛ من أجل ذلك يَقرأ شعر نزار قباني مَنْ يقرأ شعر العباس بن الأحنف، ويقرأ شعر صالح بن عبد القدوس كما يقرأ شعر صلاح عبد الصبور، ومن يقرأ «زقاق المدق» يقرأ «كتاب البخلاء». فذاكرة العرب أطول من ذاكرة الأوربيين، فهي تخترق خمسة عشر قرنا، ولا تتجاوز ذاكرة الأوربيين (اللغوية والأدبية) خمسة قرون[4]. وحاضر العربية يجري على ماضيها، فهي في تغير معاكس لتغير اللغات المعروفة اليوم، وقد شهدت اللغات على انفجارها، وانقسامها، وابتعادها عن أصولها، ووُلِدت منها لغات متعددة، ومنقطعة عن أصولها، ومختلفة فيما بينها، وتابعت كل واحدة منها تغيرها، كأنما تؤذن بميلاد لغات جديدة[5]، وحافظت العربية طوال عمرها المديد على نظامها الصوتي، والصرفي، والنحوي، على حين كانت أربعة قرون هي أقصى ما تبلغه لغة من

---

(١) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ١٠٢.

(٢) انظر: مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي، ٧، والأدب الإنجليزي من البدايات، ٢٧، وامتحان الكفاية اللغوية، ١٠، وتاريخ الآداب الأوربية من الأصول حتى نهاية القرون الوسطى، ١/ ٣٢٠، والعربية تواجه التحديات.

(٣) الفصحى لغة القرآن، ٣٠١.

(٤) لن تتكلم لغتي، ١٣ وما بعدها.

(٥) قضايا لسانية وحضارية، ٤٧.

اللغات محافظةً على نظامها، ثم تجنح إلى التغير[1]. وبقاء العربية على حالها، ما حال بينها وبين أن تتغير التغير الإيجابي على ما تقتضي حاجات أهلها في كل عصر، من غير أن تتبدل، وأن تكون طوعا لكل مأرب من مآربهم، دون مسخ. وفي ذلك دليلُ مرونتها التي لا تبارَى، وقابليتها للتجدد، وهما مما تحدَّت به الزمن. وكان الإسلام سندا لها مهمًّا، تتجدد بتجدده، وتسير بريحه، وتحلُّ حيث حلَّ، وتُحمَل معه في القلوب، وتتأبى على الزوال كما يتأبى عليه، على خلاف ما وقع للغات القديمة، كاللاتينية، فقد اعتزلت بين جدران المعابد كما اعتزلت النصرانية، وشاخت كما شاخت[2]. وهو مما عده بعض المستشرقين من مزاياها، كريجس بلاشير، فقد قال: إن فرنسية القرون الوسطى تختلف كل الاختلاف عن فرنسية القرن السابع عشر، وفرنسية القرن السابع عشر مختلفة عن فرنسية اليوم، ولا يتبين المرء أن أصل هذه الفرنسيات واحد إلا بالبحث والموازنة، ويتبين من أول نظرة -ولو كان أجنبيا- أن العربية عربية واحدة، وأن عربية القرآن هي عربية اليوم، وهذا مما تتميز به من سائر اللغات[3]. وعاب فيلا سبازا الإنجليزية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات الأوربية بأنها «تحدرت من لغات ميتة، ولا تزال حتى الآن تعالج رِمَم تلك اللغات؛ لتأخذ من دمائها ما تحتاج إليه»[4].

وليس ما صارت إليه تلك اللغات من قطيعة بين ماضيها وحاضرها مما يستميل عاقلا: أن تَجْعل أمةٌ بينها وبين تراثها حجبا، فلا تخلص إليه، أو تفيد منه إلا بالترجمة، وإنما يَحرِص على أن تظل أبواب تراثه مشرعة أمام أمته، تفيد من أقدمه كما تفيد من أحدثه، من غير وساطة، وهو ما حرص عليه علماء العرب قبل هذا العصر، لهذه الغاية بعينها، وهو مما يحمد لهم، ويستحقون به التجلة والإكبار، وهو أثر من آثار ارتباط العربية بالقرآن والشرع الإسلامي. وإن كان في الدنيا ما يُغتبَط به، فإن هذا لمما يغتبط به، وإن الوسيلة التي أتاحته لجديرة بأن يعض عليها بالنواجذ، لولا أن من العرب من يجدُّ في جعل مآثر العرب مثالب، ومحاسنهم مساوئ، ويجتهد في هدم ما يعتزُّون به، ويَعتَزُون إليه، إذا تفردوا به

---

(١) العولمة والعولمة المضادة، ٣٩٠.
(٢) بعض الإشكاليات، ٣٨.
(٣) الفصحى لغة القرآن، ٣٠٤.
(٤) السابق، ٣٠٨.

عن غيرهم؛ لما يعتقد من أن الكمال في المماثلة، والنقص في المخالفة. وما أتيح للعربية دون غيرها من اللغات مما يسَّر للعرب أن يطَّلعوا على دينهم في مصادره الأولى (القرآن والحديث)، من غير وساطة، وكتب النصارى -مثلا- ومصادر تشريعهم مترجمة كلها، وليس فيها ما يؤثِّر فيهم كما يؤثر القرآن والحديث في عامة العرب وخاصتهم. وهذا من أسباب محاولة صرف العرب عن العربية، بكل وسيلة، واستحداث عربية جديدة -إذا تعذر صرفهم عن العربية الأصيلة-، فإن العربية الأصيلة أهم وسيلة لربط حاضر الأمة بتاريخها الثقافي والحضاري الذي تستمد منه قوتها المعنوية، وهو مؤثر نفسي قوي، مدَّها في تاريخها الحديث بطاقة لا تُحَدُّ، وثباتٍ وتصدٍّ لكل احتلال، ولا سيما إذا بان أنه يريد المساس بهويتها، وهذا من أسباب أن الأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي ما زالت تتأبى على الاستسلام والخضوع للغرب، على ضعفها المادي، كما خضع له غيرها من الأمم واستسلم، وما زالت جذوة التحدي التي أوقدها قول الله -تعالى-: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)، (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) تشتعل بين جوانحها، وتتطلع إلى اليوم الذي تَنزل فيه المنزلة التي تعتقد أنها خُلِقت لها: (خير أمة أخرجت للناس). وكانت العربية من أقوى ما أعان على ذلك، فهي التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب، وحالت دون ذوبانه في فرنسة، وكانت وقودا للصلابة الجزائرية التي تصدت لأبشع استعمار في العصر الحديث، بل ربما في التاريخ كله، فثبتت له ١٣٢ عاما ثبات الجبال الراسيات، حتى ردته على عقبيه. وكانت رمزا لوحدة العالم الإسلامي في الثقافة المدنية، والرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، وما تزال هي الرباط الوثيق الذي يحول بين الوطن العربي والتفكك، وحصن العرب الأخير، والحامل الباقي لتراثهم الجمالي والمعرفي[1]. وإذا خرج كل إقليم عنها إلى عاميته، تقطَّع ما بينه وبين العلوم العربية الإسلامية، وفقَدَ ذاكرته، وألغى ماضيه العلمي، ليبدأ

---

(١) انظر: اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، ٣٨، والعربية، ٢٤٢، والله أو الدمار، ٧٦، والفصحى لغة القرآن، ١١٣ و٣٠، واللغة والسلطة والمجتمع، ٩٤، وصراع الحضارات، ط٢، ٩٨ - ١٠٦، وهل تقتل مواقع الاتصال الاجتماعي اللغة العربية؟.

مستقبله منفردا، لا يحرره من مجاهله إلا لغة أقوى من عاميته، ولن تكون إلا لغة من لغات الاستعمار[1]. ولما كان هذا أثرَها، كان حرص المستعمر على زحزحتها، وإلقاء بغضها في القلوب، وصرف العرب عنها، وما يزال ذلك دأبه إلى اليوم، فقد ورد فيما يسمى «مشروع الشرق الأوسط الكبير» أنه لا بد أن تُخْضَع العربية للتغيير والتحرر من الصور القديمة التي ما زالت عليها منذ قرون، فإن بقاءها على أصولها جعلَ من الصعب على أهل الحضارات والأديان الأخري أن يتعلموها ويفهموها، أو يفهموا ما يتحدث به أهلها، وسيكون ذلك بتغيير دراستها في المدارس العربية والإسلامية كلها، وإلغاء المناهج المبنية على دراسة قواعدها، وصورها الجمالية، وإبداعها، والكلمات والأشعار التي تنتهي بقافية واحدة (الشعر العمودي)، فإن هذه المناهج تشتمل على توجيهات ومبادئ دينية، لا تعين على مواصلة غير العرب[2]. ولا يخفى أن هذا التغيير من منفعة ما سماه المشروع «غير العرب» وحدهم، وليس من مصلحة العرب، وإن زعم أن سيكون وسيلة تواصُل بينهم وبين غيرهم، على عادة الغرب في زعم أن منافعه هي مصالح الخلق كلهم، إيهاما وتغريرا وتأليبا، وخداعا عن حقيقة ما يريد.

أما أن العربية الفصحى منزوفة، فلا معنى له، فاللغات، وإن قدُمت، لا تنزف؛ لأن جدَّتها وجمالها من جدة مضمونها وجماله، وهذا لا يُنزَف:

ولكنَّه صَوْبُ العقول، إذ انجلت سحائبُ منه، أُعْقِبَتْ بسحائبِ

وما يزال يُكتَب بالعربية من النثر الأنيق، والشعر البليغ مثل الذي كان يكتب في العصور الخوالي، وما هو أفضل من بعضه، فقد كتب الزيات، والعقاد، والمازني، وطه حسين، وعبد العزيز البشري، والبشير الإبراهيمي، وعمر أبو ريشة، والجواهري، وحافظ جميل، وغيرهم من كتاب العصر وشعرائه ما يهز ويطرب، ولم يقل زجَّال واحد في طول بلاد العرب وعرضها، ما يداني ما قالوا، ولا اشتهر كما اشتهروا، على كثرة الزجل والزجالين، ولا كانت له منزلة كمنزلة شاعر كبير، لا في بلده، ولا في الوطن العربي كله، وهذا دليل

---

(١) اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، ٣٢٩.

(٢) الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، ٢٩١ وما بعدها.

على قيمة العامية، ومنزلتها من حياة العرب، وأن دعاتها يريدون أن يجاوزوا بها قدرها، فتُعْجِزُهم. لقد دعا إليها يوسف الخال، وزعم أنها «لغة الشعب، ولغة الحياة»، بيد أنه لم يقرض بها شعره إلا بعد أن افتعل ما سماه «أزمة الشعر»، وعنى بها أن الشعر العربي المعاصر في أزمة، من أهم أسبابها ما اصطدمت به من «جدار اللغة» العربية الفصحى، فهي لغة، تُكتب ولا تُحكى، وهذا جعل الشعر العربي الحديث ضعيف الصلة بالحياة، فإما أن يخترق جدارها، وإما أن يموت[1]. فأعاد كتابة كتابه «كليلة ودمنة» بالعامية، وكتب مجموعة شعرية، عنوانها «البداية الثانية»، فكانت «بداية عسيرة مميتة»، و«إعلانا بانطفاء آخر شرارة شعرية بقيت فيه»[2]، وهذا دليل على أن «الجدار»، و«الأزمة» مفتعلان، وأن «الجدار» -إن لم يكن ذا غرض سياسي، كما يُفهم من محاضرته في مؤتمر رومة[3]- ينطوي على إحساس شديد بالإخفاق، وهو جدار ذاتي، أما «الأزمة»، ففي القضايا التي يعانيها، ويريد معالجتها، ثم صِغَر موهبته، وفقر لغته، وضمور مخيلته الشعرية، وليس في العربية التي يكتب بها[4]. واصطنعها سعيد عقل بعد الفصحى، فأخفق أيضا، وأخفق كتابه «يارا»، على إصراره عليه[5]، وانتهى، ولم يبق له ذكر إلا فيمن كانوا يدورون في فلكه من الحاقدين على العربية والعروبة، من أعضاء الحزب السوري القومي الاجتماعي، والتوجه اللبناني.

وما زال شكسبير يحتل عند الإنجليز منزلة، لا تدانيها منزلة شاعر أو كاتب،

---

(١) أفق الحداثة، ٦٦.

(٢) السابق، ٤٣ و٦٦.

(٣) يشير سامي مهدي إلى عبارة ليوسف الخال، وردت في محاضرته في مؤتمر روما، قال فيها: «كم حاول أسلافنا في مختلف مراحل تاريخنا أن يرسموا بالدماء حينا، والدموع حينا آخر، هذه الحدود، ويفرضوا في نطاقها وحدة لغوية وحضارية، فأخفقوا، وكانت آخر المحاولات الإسلام، وحين أخذ يتصدع كقوة سياسية واجتماعية في عالم اليوم، أحللنا محله فكرة القومية، فهل ننجح نحن أيضا حيث أخفق أسلافنا من قبل؟» (الأديب العربي في العالم الحديث، ٤٠ وما بعدها). والعبارة فيها غموض، إلا أن ما فهم منها سامي مهدي -فيما يبدو- أن يوسف الخال يريد أن يستقل كل بلد عربي بلغة، وتكون له حدود لغوية وحضارية كما أن له حدودا سياسية، بأن يصطنع لهجته لغة مكان العربية الفصحى التي تجمع الأقطار العربية كلها، وكان الإسلام يحول دون ذلك؛ لأنه يجمع العرب على لغة واحدة يعدونها لغة الوحي، فلما ضعف في نفوسهم، تولت ذلك القومية العربية، وهو يتذرع إلى ما يريد باصطناع العامية لغة للأدب، وتسميتها لغة الشعب والحياة، ولكنه يخفي حقيقة ما يريد.

(٤) السابق، ٦٥ وما بعدها.

(٥) السابق، ٤٦.

حتى كانوا يقولون في أوج إمبراطوريتهم: «لو كان على إنجلترة أن تختار بين الهند وشكسبير، لاختارت شكسبير»[1]، مع أن الإنجليزية التي كَتَب بها قديمة في الإنجليزية التي يكتب بها أحياء الإنجليز، فلم يَضَع من فنِّه قِدَمُ لغته، ولا رفعت من فن غيره حداثة لغته؛ لأن مردَّ الإبداع إلى ما ذكرتُ، لا إلى إبدال حرف بحرف، أو صيغة بصيغة، أو تغيير معنى كلمة؛ فهذا ونحوه خارج عن ماهية الإبداع، وليس من صنع الشاعر أو الكاتب، وإنما يحببه إلى من هو لغته إلفه إياه، لا أنه خير مما هو أقدم منه. وكم مألوف يستفظعه غير من أَلِفَه، كما يستفظع العرب قول اليهود: «شلوم وفْرَخا»، و«أَنِي كتفْتْ إتْ عَلْ هلُّوَح»، و«زُوتْ أُزْنَخا»، و«شَلْ نَعْلَيْخَا مِنْ عَلْ رِگْليخَا»، و«يشموئيل»، و«يِتْسْحَق»، و«حاخام»، و«حُخْمه»، أي: سلام وبركة، وكتبت على اللوح، وتلك أذنك، واخلع نعليك من رجيليك، وإسماعيل، وإسحاق، وحكيم، وحكمة. وإلْف اليهود هذا ونحوه من العبرية هو الذي جعلهم يؤثرونه على مرادفه من العربية. وإذا فُرِض أن هذا النطق ونحوه من العبرية متولد من السامية الأولى التي هي العربية، أو أختها، فالمصير إليه لا يعني المصير إلى الذي هو خير، ولا أن العبرية أمثل من العربية؛ فإنَّ قِيَم الأشياء مستقلة عن الزمن. ولو كان مردُّ الإبداع إلى استعمال ما يدخل اللغة من تغير في الألفاظ والمعاني، لكان أحدث شاعر إنجليزي سنًّا أولى من شكسبير بمنزلته عند الإنجليز، وكان جفري شوسر من أجدر شعراء الإنجليز بأن يسقط من ديوان الإبداع؛ لأنه من أقدمهم، لكن مكانة جفري شوسر في الأدب الإنجليزي ما تزال على حالها، ولم ينل منها الدهر[2]. وكذلك دانتي عند الإيطاليين، وهوميروس عند اليونانيين، وهوراس عند اللاتين، وأبو القاسم الفردوسي عند الفرس، وعظماء الشعراء والأدباء في كل أمة.

وتظهر المزاجية في كلام هشام شرابي في ادعائه أنْ ليس في لغات العالم الحديث لغة كالعربية الفصحى، في هيمنتها ومقدرتها على غَلِّ الفكر، وشَلِّ التعبير. وقوله إنه تعلَّمها لا من حيث هي لغة أخرى، فحسب، بل من حيث

---

(١) واقع اللغة العربية بين التفكير والتعبير وأثره في الهوية، ١٨.

(٢) انظر: تاريخ الآداب الأوربية، ١/ ٣٢٠.

هي لغة عُلوية، تظهر بجانبها لغة الحياة التي نتكلمها في الحياة اليومية لغةً ناقصة مشوَّهة، إنها اللغة التي يتقنها الخاصة، ذوو السلطان، وفيها تكمن وسائل السيطرة بأنواعها العقدية، في الألفاظ، والمفاهيم، والأساليب، والقيم، وبأنواعها المادية، أما العامية، فلغة الأطفال، والفقراء، وعامة الناس[1]. وإذا صح هذا في العربية، صحّ في كل لغة فيها هذان النوعان من الكلام: العامي والفصيح، كالألمانية، والإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والصينية، وكثيرٍ من لغات العالم، فإنَّ نصْف سكان العالم إما ثنائيو اللغة، وإما متعددوها[2]، وثنائية اللغة وتعددها يقتضيان أن تكون وراء الفصحى عامية، أو لغة وطنية، وأن يكون لكل منهما مقام. وإذا كان هذا في العربية «أبويةً»، و«غَلاًّ للفكر»، و«شلاًّ» له، ففي هذه اللغات وغيرها من لغات العالم مثله، وربما كان هو مقتضى أن تكون لغة مثالية، إذ معنى أن تكون مثالية، أن تكون ذات قواعد، لا تُقبَل مخالفتها، ولو قُبِلت ما كانت مثالية، ولا كان لتدوينها معنى. فأكثر الصينيين -مثلا- يتكلمون الخانية (لغة بكين)، وهي مقسمة إلى عشرات اللهجات التي باعد بينها الزمن، حتى غدا التفاهم بين أهلها صعبا، وغير ممكن أحيانا[3]، ومع ذلك كان أول قرار قرَّره ماو تسي تونغ هو: «على كل صيني أن يتكلم اللغة الخانية، ويتخلى عن الإنجليزية، وكل لهجة صينية أخرى»[4]. والعربية الفصحى هي لغة العلم، والفكر، والأدب، وليس فيما كتب بالعامية -منذ العصر العباسي إلى اليوم، على كثرته- ما يَعْدِل ما كُتب بها، أو يدانيه، أو يقوم مقامه، أو يغني عنه. ومما لا يتجاسر أحد على قوله -بالغا ما بلغ من التعصب- أن العامية لغة علم، أو فكر، أو أدب رفيع، وإنما هي لغة العادات، والتواصل، والحاجات الدنيا، ومن أرادها لغير ذلك، فإنما يريدها لغير ما خُلِقَت له، وهو يخالف سنة من سنن اللغة والاجتماع البشري. أعني العامية المستعملة، لا العامية التي يمكن أن تصطنع لغة مثالية، فتغدو لغة علم وفن، فكل عامية قابلة لذلك، ولكنها إذا صارت لغة مثالية صارت لغة خاصةً، وصارت كالعربية الفصحى، «لغة أبوية»، «تغل الفكر

(١) النقد الحضاري للمجتمع العربي، ٢٠.
(٢) أثر التعليم في المدارس والجامعات باللغة الأجنبية في اللغة العربية، ٢٦٥.
(٣) قضية التعريب في الجزائر، ١٢.
(٤) العرب والانتحار اللغوي، ٥٧.

وتشله»، ونزل غيرها من اللهجات منزلة العامية التي هي «لغة الديموقراطية، والطفل، والفقير»، إلخ، فإنما «اللغة لهجة، لها جيش، وسلاح بحريَّة»[1]، فلما اصْطُنِعت لغةً رسمية صارت لغة طبقية، لا يتكلمها إلا العلماء، والمثقفون، والذين يُمْكنهم أن يتعلموها تعلما، وتَنزَّل غيرهم من العامة الذين لا يقوون على التعلم إلى ما دونها، لمَّا ترفَّعت عنهم. واللغات المثالية، وما يكتب بها من آداب راقية، لا تكون في متناول الأميِّين، ومن شاكلهم من عامة الناس، وترفُّعها عنهم ليس مما يعيبها، فكتابات عمالقة الأدب الإنجليزي، كشكسبير، وملتون، وبايرون، وكولردج، إلخ، ليست في وسع عامة الإنجليز. والإنجليزية التي كتبوا بها، ويكتب بها أمثالهم هي إنجليزية هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، والمثقفين في ساحل أمريكة الشرقي، وسكان المدن البيض، الأوربيين، الذكور، البالغين، المثقفين، ذوي الميول الجنسية السوية، وهم الطبقة العليا التي بيدها الحكم، أما العامية، فلغة النساء، والفلاحين، والملونين، ورجال نقابات العمل، والمجانين، وعمال المناجم في دورهام ببريطانية، ومُزَارِعي الغرب الأوسط بأمريكة، أي عامة الناس[2]. واللغة التي يكتب بها الفلاسفة وكبار المفكرين في العالم كله ليست في وسع العامة، وبُعْدها من العامة لا يغضُّ منها، وكذلك العربية الفصحى وما كُتب بها من آداب وعلوم. ومن تحصيل الحاصل أن ينبه على أن الإنجليزية التي كان يؤلف بها هشام شرابي كتبه، ويكتب في الصحف والمجلات، ويحاضر في الجامعات ليست هي الإنجليزية التي يتكلم بها عامة الأمريكيين في الأسواق، ودكاكين الحدادة، ولا هي الإنجليزية التي كان يكلِّم بها نفسَه، وعامةَ الناس، فإن لهذه الحال إنجليزية، ولتلك أخرى[3]. ولكن هشاما لا يستثقل «الإنجليزية الفصحى»، ولا يرى فيها ما يرى في العربية الفصحى، والحالان واحدة!. وإنما تشلُّ الفصحى وتَغُلُّ فكر من لا يعرفها، وكذلك تفعل كلُّ لغة بفكر من لا يعرفها. على أن للغة الإنسانية كلها -لهجة كانت أو لغة- سلطانا على أهلها ملزما، لا يُتجاوز، وحدودا لا تُتعدى، وهي

(١) الغريزة اللغوية، ٣٧.

(٢) عنف اللغة، ١١٥ وما بعدها.

(٣) انظر: اللغة العربية تواجه التحديات.

غير قابلة للتغيير المفاجئ والشامل، وليست أمرا خاصا (شخصيا)، ونظامها مفروض على من يستعملها، وليس له أن يتصرف فيه، وكل مخالفة له، سهوا أو خطأ، تعرِّض المخالف للعقاب المادي أو المعنوي، كالتحقير، والتغريم، والاستصغار، وإظهار ما يدل على الشك في سلامة العقل، أو صحة الانتماء، أو العلم باللغة، وكذلك الظاهرة الاجتماعية -واللغة ظاهرة اجتماعية-: قسرية وملزمة، ولا خيار فيها، وليس لأحد إلا التزامها، والانقياد لها، ما دام يدَّعي الانتماء إلى أهلها؛ ولذلك وصفها رولان بارت بالفاشية[1].

أما أن العامية ناقصة معها، فحكم معياري، يصدق على كل عامية، إذا ووزن بينها وبين فصحاها، وذلك هو معنى أنها عامية، وسبب عدم تدوينها وتعليمها، وسبب اتخاذ الفصحى لغة رسمية، دونها. وهي ناقصة؛ لأن كمال اللغة في سعة معجمها، وغزارة مفاهيمها، ودقة أساليبها، وما تشتمل عليه من آداب وعلوم وفنون، ومن وازن بين عامية من العاميات وفصحاها، علم وجه النقص فيها، ووجه الكمال في الفصحى، وقد أبنَّا عن شيء من ذلك. وهذا سبب أن الفصحى لغة الخاصة الذين سماهم هشام «ذوي السلطان». وأما كون العامية لغة الأطفال والنساء والفقراء؛ فإن اللغة الفصحى عِلْم وفنٌّ، والعلم والفن للخاصة، دون العامة، وإن كانا متاحين للعامة إتاحتهما للخاصة، لكن من غير المعتاد أن يتعلق اهتمام العامة بالعلم والفن. وإذا كان الجهل ليس مما تُمْدَح به العامة، فما جهلها بالفصحى وعجزها عن استعمالها مما تمدح به أيضا؛ لأنها علم، والجهل بالعلم منقصة. وليست معرفتها بالعامية دون الفصحى مما يجعل للعامية فضلا على الفصحى، إلا إن كان جهلها يجعل للجهل فضلا على العلم. على أننا إن خصصنا العربية الفصحى في المجتمع العربي الحديث بالكلام، ولزمنا فيما نقول ما يقتضي العلم من النزاهة، ألفينا كلام هشام لا يصدق عليها، فذوو السلطان من العرب لا يعرفون من العربية إلا ما يعرف الفقراء والأطفال والنساء، وسائر المجتمع، ولا يتكلمون بها إلا أن يقرأ أحدهم نصًّا مكتوبا له، في مناسبة عامة، أما ما يتكلمون به في غير ذلك، فالعامية التي يتكلم بها سائر الناس. أما الأغنياء، والأعيان، والمثقفون، فيندر فيهم من يعرف الفصحى،

---

(١) انظر: اللغة والهوية، ٣٤ وما بعدها و٣٦ و٣٩ وما بعدها.

أو يتكلم بها، أو يُلْقي لها بالا، حتى أساتيذ الجامعات، والصحفيون، وجل الإعلاميين، حتى المذيعين، وكثير ممن يتعاطون الكتابة، وإنما المستعمل في أكثر الأحوال هو العامية. وإنما يكتب الكاتب بما شدا من لغة الإعلام الدارجة، ثم يتولى إصلاحَ ما يقع فيه من أخطاء مصححون، تتخذهم الصحف ودور النشر، لا يكادون يعرفون من العربية إلا ما تعمل عوامل الإعراب، وآية ذلك أن تسمع الكاتب والمؤلف يتحدث بالعامية، لا يعرف غيرها، ثم يصدر له الكتاب مستقيما على قواعد الإعراب، والدارجِ من أساليب العربية «الحديثة».

فليست العربية الفصحى إذن لغة طبقية، وإذا كان شيء من ذلك قد كان يوما، فإنما كان قبل هذا العصر، حين كان الناس يعتدُّون بها، ويتصوَّنون من اللحن فيها، ويعدُّونه من مثالب العالم والأديب، وإن كانت الطبقية لا تعيبها، فالعلم لا يكون إلا طبقيا، أي خاصا بفئة من الناس، وما ينبغي أن تلصق مساوئ الطبقة في السياسة والاقتصاد بالطبقة في العلم، كما يريد هشام شرابي، من أجل أن ينفِّر من العربية، فإذا كانت الطبقة في السياسة والاقتصاد تورث، ولا تتاح لمن أرادها من غير أهلها، ومبناها على الحيف، والتمييز، وعدم تكافؤ الفرص، فليست الطبقة في العلم كذلك، بل هي متاحة لكل من أرادها، والطبقية فيها مجاز، وهي بعيدة من مفهوم الطبقة السلبي.

ولمحمد معموري، وهو لغوي تونسي، يقيم في أمريكة ويدرِّس بجامعة جورج تاون، رأي ليس ببعيد من آراء هشام، يقول فيه إن العلاقة القائمة بين معرفة اللغة الفصحى والتغير الاجتماعي الاقتصادي تدل على أن بقاء العربية الفصحى سببٌ رئيس للتفاوت الاجتماعي[1]. وهو «من مفتريات المستعربة»، كما قال الدكتور محمد الأوراغي، إذ يعدُّون العربية سبب الفوارق الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي، مع أن المستعمل من اللغات في بيوت الموسرين من المغاربة -مثلا- ليس باللهجة المغربية، ومما يصعب إنكاره أن الارتقاء إلى المناصب العليا في المغرب مرهون بإتقان اللغات الأجنبية، والتجمل بثقافاتها[2]. وكذلك الحال في سائر الوطن العربي. ومحمد معموري وأمثاله

---

(١) التبعية اللغوية، ٥.

(٢) الموضع السابق.

يتنكبون هذه الحقيقة التي لا يمكن إنكارها إلى ادعاءٍ ما لا دليل عليه، كما لا دليل على زعْم أن من خصوصية العربية الفصحى السيطرة، والأيديولوجية، والقمع، والعنف، والأبوية، كما زعم هشام، وإن كان كل ما نسب إلى العربية من هذا ونحوه يصدق على كل لغة مثالية، ولا يخص العربية دون غيرها، وهو حكم، ما أعرف ما يصدِّقه، لا في العربية، ولا في غيرها من اللغات ما عدا لغات الدول المستعمرة، ولا سيما الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والروسية، والإسبانية، وإنما جرت عادة الشعوب في أكثر دول العالم بأن يصطنعوا لغة من لغاتهم لمقامات بعينها، فيدونونها، ويعلِّمونها، ويدونون بها ما يجل من علومهم وآدابهم، ويتقيدون بها، ويجعلون لغير تلك المقامات لغة أو لغات أخرى، فمن خلط بين اللغات أو المقامات رُدَّ إلى ما ينبغي؛ فكان رده إليه من مقتضيات الأعراف، ولا عنف، ولا شيءَ من تلك التهم. ولا يخفى -بعد- ما في لغة هشام شرابي مما نَسب إلى العربية الفصحى من «أبوية»، يبدو أن مصدرها ثقافته، وفكره، وطبعه، وانتماؤه السياسي، لا سيطرة العربية الفصحى عليه، أو عجزه عن الانفكاك من ربقتها، وكسر قبضتها على وعيه وأسلوبه في الكتابة[1]؛ فإن غيره يكتب بها، فلا يكون في لغته ما رمى به العربية. أما «الفصام النفسي والاجتماعي الذي أوقعته العربية الفصحى»، فينبغي أن يكون غيرها من اللغات يوقع مثله، إن كان سببه أن فيها الفصيح والعامي، وأن لكل منهما مقاما غير مقام الآخر. وإذا سَلِمت الشعوب من هذا الفصام، مع وجود هذين النوعين في لغاتها، فلم يُبيِّن هشام لِمَ أصيب به العرب دونهم. أما أن العربية الفصحى تأبى أن تكون لغة طيعة للوعي الذاتي، وألا شيء أقدر على إخماد جذوة الفكر المبدع وتشويهه من إلباسه رداءها؛ لأنها غير قادرة على التعبير العلمي، إلخ، فإن اللغة الإنسانية عامة وعاء صالح لما يوضع فيه، وليست بأصلح لموضوع منها لآخر، وهي قادرة على الإبانة عن كل ما يريد المتكلم بها، بشرط أن يكون عنده ما يقول[2]. والأديب -من حيث هو مبدع- يمكن أن يعبر عن هواه كيف

(١) النقد الحضاري للمجتمع العربي، ٢٠.
(٢) اللغة، ٤٢١.

شاء، بكل لغة شاء[1]. وإنما يذمُّ العربيةَ من يذمها، ويقول إنها غير صالحة للعلم مَن له مآرب غير علمية، ومن ابتُلي بحب مماثلة الغرب، فهو يعدُّ كل مخالفة له نقصا، وكل موافقة كمالا، أو من تستخفه دعاية مَن جعلوا لغاتهم مُثُلاً للُّغات، وأنفسهم وحضارتهم مثلا للشعوب والحضارات، فما خالفهم، فهو دون، وما وافقهم فذاك، كما قال رينان إن اللغات السامية القديمة ليس فيها سِفْر قصصي، ولا تمثيل، ولا علم، وإن كان فيها، فهو قليل، ومنتشر في المواخير، وليس علوما مستقلة، وليست فيها فلسفة، ولا علم حياة، ولا علم مدنية، ولا علم اجتماع، وكلها ممكنة في اللغات الآرية فقط[2]، مع أن ما يقول علماء اللغة في الغرب أن لِلُّغات كلِّها -وإن اختلفت- وظائفَ منتظمة وقاصدة؛ فمن غير الصحيح أن يقال إن فيها لغات غنية وأخرى فقيرة، ولغات راقية وأخرى بدائية، ولغات قريبة من الاتصال الحيواني وأخرى بعيدة منه، وكل لغة توافق حضارة الشعب الذي يستعملها وحياته[3]. وحبُّ المماثلة هو الذي حمل أهله على الدعوة إلى جعْل العربية لغة لصقية، يزاد في كلمها ما يزاد في كلم اللغات الأوربية، بدلا من الاشتقاق، كما زاد بعضهم الميم، أو الميم والياء على بعض الكلمات العربية، نحو: صوتم، وصوتيم، ومعنم، إلخ. وهو الذي جعل أهله يعتقدون أن اللغة لا تصلح للعلم إلا أن تكون لغة أوربية، أو تُبنى على ما تُبنى عليه اللغات الأوربية، كما زعم محمد معموري أن العربية لا تصلح للعلم، وأنها لغة معقدة وصعبة، وتتسم بالغموض، وعدم التحديد، وأن نظامها محدد تحديدا سيئا[4]، وقال محمد كامل حسين إن مما «لا نزاع فيه أنها لا تصلح لدراسة الرياضيات العليا، والمشتغلون بهذه العلوم يستحيل عليهم أن يفكروا فيها تفكيرا حرا عميقا، إذا اتجهت عنايتهم إلى تمييزه (العدد) وجنسه وإعرابه. هذه العلوم لا تستقيم مع مقتضيات قواعد الفصحى العالية، بحال من الأحوال، وكذلك علوم الفيزيقا، والكيمياء»[5]. وهي أقاويل علمية في نظر صاحبها، ولأنها كذلك أذاع

(١) مؤتمر الأدب العربي المعاصر، ٥٥.
(٢) محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، ١٦٢.
(٣) انظر: قضايا لسانية وحضارية، ٣١.
(٤) التبعية اللغوية، ٣.
(٥) اللغة العربية المعاصرة، ٨ (نقلا عن: أبحاث في العربية الفصحى، ١٩٥).

بها لِيُخْرِج قومه (العرب) من ضيق الحماسة والتعصب ومضارهما، إلى سعة العلم ومنافعه. بيد أن علماء اللغة يشفقون على من يقول بهذا القول مرتين، مرة لأنه يقول به، ومرة لأنه ينسبه إلى العلم، وإنما هو -في أحسن الأحوال- ظنٌّ، ساق إليه «ولَع المغلوب بتقليد الغالب»، فأراه أن فيه من الكمال ما ليس فيه، وأن في نفسه من دواعي الاحتقار ما ليس فيها. وأقرب ما تُنْقَض به هذه الظنون أن جل لغات العالم كتبت بها الرياضيات العليا، والفيزياء، والكيمياء، وكتبت بها العلوم كلها، بلا استثناء، ودُرِّست، وأن العربية أسبق إلى الرياضيات وأعرق فيها من كل لغة أوربية، ومنها تعلم الأوربيون الرياضيات.

ولا جديد فيما قال هشام وشريف في العربية، وإنما هو تلخيص وترداد لما قال المهجريون الشماليون، ولا سيما جبران خليل جبران، في مقالته الشهيرة: «لكم لغتكم ولي لغتي»، فقد قال إنها عجوز مقعدة، معتلة الأعضاء، وقواعدها حاتمة، وقوانينها محدودة يابسة، وإنها كخشب النعش: لا يزهر ولا يثمر، وإن النحاة مملون مضجرون[١]. وإن كان جبران إنما يوازن بينها وبين لغته، لا بينها وبين العامية، كما يفعل هشام وشريف. ومن علم أن هشاما ترجم نصوصا من الأدب العربي إلى «اللغة اللبنانية»، «بالحرف اللبناني»[٢]، أي اللهجة اللبنانية، بحرف سعيد عقل، علم أنه كان من أنصار تلك اللغة، ومن أنصار حرفها، ولم يَعجَب لما قد سلف من آرائه، ولا لحدَّته فيما وصف به العربية، وجَعَله مع سعيد عقل في قَرَن، وكان سعيد يجتوي الفصحى وأهلها، ويلتفُّ حوله من يحقدون عليهما، وكان يقول: «من أراد لغة القرآن فليذهب إلى أرض القرآن»[٣]. وكان هشام -إلى ذلك- ينتمي إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي[٤]، كسعيد عقل، إلا أن سعيدا انضم بعد ذلك إلى التوجه اللبناني، وهو توجه نشأ

(١) انظر: المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، ٩٣.

(٢) اللغة اللبنانية بالحرف اللاتيني بين رسائل الهاتف والعقل الإلكتروني وسعيد عقل.

(٣) اللغة كميدان للمجابهة، ٢.

(٤) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٩٣.

داخل الحزب السوري، يدعو إلى الأمة اللبنانية بدلا من الأمة السورية[١]. وكان الحزب السوري يعادي القومية العربية ويناهض دعاتها، ويعادي الوحدة العربية ويعارضها معارضة بلغت حد العنف، وكان الذين ينتمون إليه ينفرون من كل دعوة للعروبة[٢].

(٣)

ومن هذا القبيل ما يقول بعضهم من أن العربية لغة سيف وناقة وصحراء، ولا تصلح للتعبير عن العلوم المعقدة والمتغيرة تغيراً سريعاً؛ فإن عالم الصحراء والبداوة بعيد من عالم الحاسوب، والشابكة، والأقمار الصناعية، وإنما هي لغة أدب وعواطف، تصلح للغزل، والوقوف على الديار، ولا تصلح للفكر العلمي المادي[٣]. وقول محمد عابد الجابري إن ثبات العربية وطبيعتها الحسية ليست بفضيلة، ولا موطنا لفلسفة متوهمة خاصة بها وبأهلها، يجب استخراجها وإبراز أصالتها، وإنما هو أمر واقعي تاريخي، يجب النظر إليه بعين النقد، لا بعين الرضا: فالعالم الذي نشأت فيه، أو جُمِعت فيه، عالم حسي جامد، عالم أعراب، يحيون زمناً ممتداً كامتداد الصحراء، زمن التكرار، والرتابة، ومكانٌ طبيعي وحضاري وعقلي فارغ، وهادئ، كل شيء فيه صورة حسية بصرية سمعية. هذا العالم هو ما تنقله العربية إلى أهلها، اليوم وقبل اليوم، وسيظل كذلك ما دامت هذه اللغة خاضعة لمقاييس عصر التدوين وقيوده. إن الأعرابي هو صانع العالم العربي، وهو عالم فقير، وجافٌّ، وخاص بالعصر الجاهلي[٤]. وهو شبيه بما كان يرى البيروني من أن الفارسية لا تصلح «إلا للأخبار الكسروية، والأسمار الليلية»[٥]. واللغة -من حيث هي نظام نحوي وصرفي- محايدة، وقابلة لأن تَحمل ما حُمِّلت، وتنتقل من حال إلى نقيضه، فقد كانت العربية في الجاهلية لغة الجاهليين، ثم صارت في الإسلام لغة المسلمين، وكانت لغة قوم

---

(١) عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، ٩٥..
(٢) أفق الحداثة، ٢٣.
(٣) العربية تواجه التحديات.
(٤) تكوين العقل العربي، ٨٦ وما بعدها.
(٥) كتاب الصيدنة (مخطوط) (نقلا عن: حركة التعريب في العراق، ٥ وما بعدها).

يقيمون في الصحراء، ثم صارت لغة قوم يقيمون في المدن، والرياض، وعلى شواطئ الأنهار والبحار والمحيطات، وكانت لغة فقيرة، تدور على وصف الفيافي والقفار، وما في الصحراء من مخلوقات، ولا تخرج عن حياة العرب في الجاهلية، ولا يزيد ما اشتملت عليه من مفاهيم على ما تضم بيئة الجزيرة المادية والمعنوية، ثم صارت وعاء لما جدَّ في حياتهم من علم، وفكر، وفنٍّ، ونُقِل إليها ما جادت به قرائح أمم الأرض من علوم، وآداب، وفنون، وأفكار، وفلسفات، وصارت لغة العالم الأولى، غير منازعة، فأبانت في الحالين عما أراد الجاهليون وما أراد المسلمون، بل أبانت عن كل ما أراد من تكلم بها: فأبانت عما أراد الزنادقة، والملحدون، والدهريون، والمانوية، واليهود، والنصارى، والصابئة، والسحرة، والمشعوذون، والمخرِّفون، كما أبانت عما أراد الفقهاء، والمتكلمون، والفلاسفة، والوعَّاظ، والصوفية، والرياضيون، والأطباء، والفيزيائيون، والفلكيون، والكيميائيون، إلخ، وأبان بها أبو نواس، ووالبة بن الحباب، ومطيع بن إياس، وحماد عجرد، وابن عُنَين، وابن سكَّرة، ونزار قباني، وكل خليع من الشعراء، عما أراد، كما أبان بها سابق البربري، وأبو العتاهية، وابن الفارض، وأبو العلاء المعري، وأبو إسحاق الإلبيري، والبوصيري، ومحيي الدين بن العربي، وكل زاهد وحكيم، عما أرادوا. وهي -إلى ذلك- لغة العراق، والشام، ومصر، وفارس، وخراسان، والأندلس، وتونس، والمغرب، وتركية، وإفريقية، والهند، والملايو، وليست لغة الجزيرة وحدها. وهي اليوم لغة السياسة، والاقتصاد، والإدارة، والعلم، والتقنية، والشابكة، والحداثة، وما بعد الحداثة، والإبداع، والتقليد، والتبعية، والخنوع، والهوان، والعمالة، إلخ. وما حالَ بينها وبين شيء من ذلك يوما أنْ نشأت في الصحراء، كما لم يحل بين غيرها من اللغات وبين ما صارت إليه أن نشأت في بيئة مادية، زراعية أو رعوية. ولا حالت نشأتها الأولى دون أن تبين عن أشد المعاني تجريدا وإيغالا في العقل والروح، وبعْدا من الحس والمادة، وقد رأينا كيف جازت من أشد الأشياء حسية إلى أشدها بعدا من الحس، وهي طبيعة اللغات كلها. ولا شيء يجعل اللغة مرهونة بالبيئة المادية التي نشأت فيها أول مرة، ولا بما كان عليه أهلها الأولون من ثقافة، في طور من أطوار تاريخهم، بل هي قادرة على أن تكون حيث يكون

أهلها، وحيث يريدون أن يكونوا. وما كانت اللاتينية ولا اليونانية خيرا منها، ولا كان البيان عما دُوِّن بهما من علوم وآداب وفلسفات أيسر عليهما منه عليها. إن «العقل»، و«الحكمة»، و«الروح»، و«المجد»، و«الشرف» تدل الآن على معان مجردة، وهي في الأصل إنما تدل على معان حسية، كما قد رأينا، بيد أن تلك الحسية لا أثر لها الآن في هذه الكلمات، بل هي أبعد ما تكون عنها، ولا يَعرِف أنها كانت تدل على معان حسية إلا من فتَّش عن أصل اشتقاقها في المعجمات. وأقلُّ العرب من يعرف أصولها واشتقاقها، ووجْه المجاز فيها، وكيف انتقلت من الحس إلى المعنى، كما أن culture، بمعنى الثقافة تدل على أمر معنوي بعيد من الحسية، وإنما هي مشتقة من Cultura اللاتينية، بمعنى العناية بالحقل والماشية، ثم انتقلت إلى الدلالة على فلاحة الأرض، ثم انتقلت إلى تنمية الكفاية، على سبيل المجاز[1]؛ وإنما جاز الأوربي من هذا المعنى المادي إلى المعنى الحسي؛ لأنه مزارع، ولأن الحضارة الأوربية حضارة زراعة[2]؛ ولذلك كان للأعمال التي تُستخرَج بها خيرات الأرض، كالحرث، والبذر، والحصاد أثر كبير فيها، وفي صياغةِ رموز حضارتها؛ فمن ثم سمى الفرنسي الزراعة (Culture)، مجازا[3]. واللفظ الذي يقابلها في العربية الحديثة (الثقافة) مأخوذ من التثقيف، وهو -في الأصل- التقويم، أي تقويم الرماح بآلة من حديد أو خشب، تسمى الثِّقاف، شُبِّه تقويم العقول بتقويم الرماح، وسميت العلوم التي يستقيم بها الفكر ثقافة. لكن أقلَّ الأوربيين من يعلم أن culture مشتقة من Cultura الدالة على العناية بالحقل والماشية، وأقل العرب من يعلم أن «الثقافة» مشتقة من تثقيف الرماح. فما ضرَّ هاتين الكلمتين أن كان أصلهما البعيد ماديا حسيا؟ وماذا حجبت ماديتهما من المعاني؟. وبعض مفاهيم الفلسفة، مع أنها من أكثر المفاهيم تجريدا، وبعدا عن الحس، مصدرها حسي، كمصدر مفردات اللغة كلها، فالفيلسوف يعبر بلغة قومه، ويقتبس منها ما شاء من الألفاظ، للإبانة عن تصوراته المجردة، ومعنى ذلك أن ألفاظه كلها حسية في أصلها، ولكنه

---

(١) مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ١٧.

(٢) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٣٢.

(٣) مشكلة الثقافة، ٢٦.

يجردها من حسيتها لتلائم تصوراته الفلسفية، ككلمة theôria، اليونانية، فإنها تعني في الأصل النظر بالعين، وكذلك اللفظان العربيان المقابلان لها «النظر»، و«التأمل»، والألفاظ اللاتينية الأصل contemplation (من contmplari بمعنى تأمل)، وspécolatoin (من speculari بمعنى النظر)، وintuition (من intueri بمعنى رأى)، وكلمة «العقل» العربية، وتفيد الربط، وcomprendre، بمعنى الفهم، وcocevior (من concipere بمعنى قبض)، وapprehender (بمعنى قبض) وهي فرنسية كلها، وكلمة begriefen (بمعنى قبَض)، وwahrnehmen (بمعنى أدرك)، الألمانيتين. وقد حاولت الفلسفة الألمانية التعبير عن المضامين الفكرية بألفاظ، وُضعت، في استعمالها العادي، للدلالة على الرؤية، واعتمدت، ولا سيما فلسفة الظواهر، على ما يتصل بالإمساك باليد[1]. والكلمة اليونانية إيدوس (eidos) تدل على الشكل الذي يظهر للعين، ثم أصبحت تعني في الفلسفة المثال أو الماهية. والفعل الألماني aufheben هو اللفظ الأوحد الذي يدل على معنيين متضادين في الألمانية، هما حذف الشيء وحفظه، وهي التي جعلها هيغل مفتاح فلسفته في الجدل[2]. ولا يخفى أن culture مأخوذة من بيئة زراعية، و«الثقافة» مأخوذة من بيئة صحراوية، لكن الكلمتين أبانتا عن مفهوم واحد، وليست لإحداهما فضيلة على الأخرى، أي إن البيئة الزراعية ليست لها فضيلة على اللغة أكثر من البيئة الصحراوية. وتسمى الرافعة بالإنجليزية crane، وcrane -في الأصل- طائر الكُرْكي، شُبِّهت به، ويمكن العرب أن يسموها الكركي، أو الغُرنوق، أو النعامة، أو الزرافة، تشبيها لها بها كما فعل الإنجليز، أو يشتقوا لها اسما من عملها، كما سموها رافعة. وأيًّا يختاروا لها، فلن يقصِّر عما تؤدي التسمية الإنجليزية، ما دامت العلاقة بين اللفظ والمعنى اعتباطية. وليست البيئة الإنجليزية بأصلح من غيرها من البيئات لأن يُجْتاز منها إلى العلم والفكر والروح، وإنما البيئات في هذا متكافئة، ولا يفضِّل إحداها على الأخرى إلا مَن لا يعرف حقيقة اللغة. وليست اللغة ملكا لبيئتها الأولى، ولا لمضمونها في حقبة من الزمن، ولا هما قَدَرها الذي ليس لها محيد عنه. وينبغي أن يميز

---

(١) سؤال المنهج، ٩٩ وما بعدها.

(٢) السابق، ١٠١.

هذا من بقاء ظلال البيئة في اللغة، كائنا ما كان الموضوع الذي تعبر عنه، فإنه لا يعيبها، بل هو مما ينبغي أن يُستبقَى، ويحرص على بقائه؛ لأنه جزء من التاريخ والثقافة، وعنصر من عناصر الهوية، والتخلي عنه كتناسي النسب إعجابا بمن لا يُعرَف له نسب. وهو أمر، لا تدعو إليه حاجة علمية ولا عملية، وإنما تحمل عليه نفسية المغلوب الذي يتبرأ مما ليس في الغالب، ويَخْزَى أن تكون له خصوصية دونه؛ لأنها دليل على أنه يختلف عنه، واختلافه عنه منقصة، يسوءه أن يُظهَر عليها. وسيبقى قلب العربي -ما بقي على أصالته- معلقًا بظلال الصحراء في العربية، ويَرى تلك الظلال روابط بينه وبين ذلك العالم، وبينه وبين تاريخه القريب والبعيد، والأطوار التي أجازها العرب، أما غيرها من اللغات، فلا يجد فيها شيئا من ذلك، وإن تعلمها، وأفاد مما اشتملت عليه من علوم وآداب؛ لأنها لغة قوم آخرين، لا يربطه بهم وببيئتهم وتاريخهم وثقافتهم إلا ما تشترك فيه الثقافات والبيئات، ولهذا كانت اللغة هوية، وكانت البيئة التي ينشأ فيها المرء بابا، لا يلج القلبَ والعقلَ شيءٌ إلا منه.

والقول إن العربية تصلح للشعر والتغزل بالحبيبة، وذكر السهاد وسهر الليالي، وليست بقادرة على مواجهة عصر المحسوس، والمُخْتَرَع، والمجرَّد، إلخ، جزء من تفكير نمطي، بنى عليه بعضهم توزيع اللغات على الأغراض والمعاني، كأنَّ الفرنسية لغة الدبلوماسية، والإنجليزية لغة الأعمال والتجارة، والألمانية لغة الحرب، إلخ، وما يُنسَب إلى شارلكان من أنه قال إنه إذا خاطب مولاه، خاطبه بالإسبانية، أو النساء خاطبهن بالإيطالية، أو حصانَه خاطبه بالألمانية، أما الرجال، فيخاطبهم بالفرنسية. وما قالت مدام دي ستايل: الإيطالية والإسبانية موزونتان للإيقاع والتلحين، بل هما كالغناء الرخيم، والفرنسية لائقة بالمحاضرات، والتخاطب، ومناقشات النواب، والنشاط الطبيعي في الإنجليز أورث لغتهم حالة في التعبير، تقوم مقام السجع، في اللغة، والألمانية أكثر فلسفة من الإيطالية، وأكثر شعرا متينا من الفرنسية، وأكثر من الإنجليزية ملاءمة لقوافي الشعر، ولكن يبقى لها نوع من اليبوسة، جاءها -في الغالب- من أنها لم تستعمل في المجتمع ولا في الجمهور[1]. وهو توزيع، يصعب فهمه؛ لما

(١) غرائب الغرب، ٢/ ١٠ وما بعدها.

بينه وبين الواقع من تجافٍ، كأنَّ الفرنسية لا تصلح لغير القضايا الدبلوماسية، ولا تصلح للعلم والفن، والإنجليزية إنما تصلح للأعمال، ولا تصلح للعلم والأدب. وكل ما يمكن أن يُحمَل عليه أن هذه اللغات استُعْمِلت في الفنون المذكورة أكثر مما استعملت في غيرها، وأبدع فيها أهلها ما لم يبدع غيرهم، وتركوا من الآثار ما لم يترك غيرهم. وكذلك القول إن العربية تصلح للشعر، والعواطف والغزل، قد يكون المراد به أن فيها من الغزل والشعر العاطفي ما ليس في غيرها، أو أنهما أكثر ما نظم فيه العرب من الموضوعات، كما قال الفارابي إن أكثر شعر العرب «في الكدية والنهم»، أي المديح والغزل، وإن لم يكن الغزل والشعر العاطفي فيها أكثر من غيرهما من الآداب والعلوم والفنون، كالتاريخ، وعلوم الدين[1]، مع أن هذا الحكم يصدق على اللغات في حقب دون حقب. فهي إذن عبارات ارتسامية رمزية، ظاهرها بعيد من الصواب، وما ينبغي الاعتداد بها في بحث جادٍّ، ولا أن يستنتج منها حكم، يُنسب إلى العلم.

وما من لغة من اللغات الحديثة التي بلغت من العلم والحضارة مبلغا، وغلبت، وانتشرت في العالم إلا لها أصل بدائي غاية في السذاجة، ونشأت في بيئة مادية صرف، وكان أهلها متوحشين، أو أدنى إلى التوحش منهم إلى العلم والتحضر، كالفرنسية، والإسبانية، والإنجليزية، والروسية، وكان عرب الجاهلية خيرا منهم، وأدنى إلى التحضر، والقيم والمثل الإنسانية، وأنضج عقولا، وأنبل أخلاقا، وكانوا -إلى ذلك- على بقية من الحنيفية. فقد كانت شعوب أوربة الغربية، في إبان ازدهار الحضارة الإسلامية منحطة متوحشة، كما قال معاصروها، كصاعد الأندلسي، فقد قال إنهم «أشبه بالبهائم منهم بالناس؛ لأن من كان موغلا في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمور من الشمال، فإفراط بُعْد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برَّد هواءهم، وكثَّف جوَّهم؛ فصارت لذلك أمزجتهم باردة، وأخلاقهم فُجَّة، فعظمت أبدانهم، وابيضَّت ألوانهم، وانسدلت شعورهم؛ فعَدِموا بهذا دقة الأفهام، وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العي والغباوة»[2]. وقال

(١) العربية تواجه التحديات.
(٢) طبقات الأمم، ٤١.

أسامة بن منقذ: «سبحان الخالق البارئ، إذا خبرَ الإنسان أمور الفرنج سبَّح الله -تعالى- وقدَّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال، لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل»[1]، «فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلَّدوا وعاشروا المسلمين»[2]، «وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة»[3]، ويجد أحدهم الرجل مع زوجه في فراشها، فيقول له: «وحق ديني إن عُدتَ فعلْتَ كذا تخاصمت أنا وأنت»، فكان هذا نكيره، ومبلغ غيرته»[4]. وقال سكوانتو، وهو هندي أحمر، خطفه نَخَّاس إنجليزي، فاستعبده في بريطانية مدة، ثم باعه نخاسٌ آخر في مَلَقة بإسبانية، فلبث في بريطانية وإسبانية عمرا، ثم أمكنه الإفلات من مستعبِديه، فعاد إلى وطنه، بليموث بأمريكة، عام ١٦١٩ م، قال إن الأوربيين يكرهون النظافة، وقلما يغتسلون ويبدلون ثيابهم، وكان يشمئز من روائح المهاجرين منهم إلى أمريكة، وقد عجز عن إقناعهم بالاغتسال والنظافة[5]. وذكر ابن فضلان مثل ذلك عن الروس، فقال إنهم «أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة». وذكر من قذارتهم وتوحشهم شيئا عجيبا[6]. دعك مما كانت عليه هذه الشعوب قبل هذا التاريخ بألف عام ونحو ذلك. والعلم والصناعة لم يكونا قبل هذا العصر في بيئة أوربة الغربية، وإنما كانت أوربة الغربية بيئة زراعية، رعوية، يتسم أهلها بالتوحش، والجهل المطلق، ومفارقة الإنسانية في كثير من صفاتها وأخلاقها، فقيرة من الأفكار، والآداب، والعلوم، والفنون، فلما تغيرت عقول أهلها، طاوعتها اللغة، فغدت بيئة علم، وآداب، وفنون، وفلسفة، وصناعة. وليست البيئة الزراعية الرعوية بأقل مادية من البيئة الصحراوية، كما يوهم كلام بعض من ينسبون العربية إلى الإيغال في المادية، فكلتاهما بيئة مادية، غير أن البيئة الصحراوية أدنى من البيئة الزراعية

(١) كتاب الاعتبار، ١٣٢.
(٢) السابق، ١٣٤.
(٣) السابق، ١٣٥.
(٤) السابق، ١٣٦.
(٥) أمريكا والإبادات الجماعية، ٤٠ وما بعدها.
(٦) رسالة ابن فضلان، ١٥١ وما بعدها.

إلى العقل والروح والتجريد، لما فيها من فراغ، واتساع، وقلة أحياء، ولذلك كان نزوع أهلها إلى الأخلاق والفضيلة أشد، وهم في ذلك بخلاف أهل البيئة الزراعية، فإن المادية والنفعية عليهم أغلب.

وقد جمع ما قال محمد عابد الجابري بين أمرين مختلفين: «حسية» العربية، وخضوعها لمقاييس عصر التدوين، فالحسية تتعلق بالمضمون، ومقاييس عصر التدوين تتعلق بالشكل، أي نظام العربية، وإنما جمع بينهما ليعلل أحدهما بالآخر، ويقيم بينهما علاقة، يرتِّب عليها أن بقاء العربية على أصول نظامها النحوي والصرفي، ليس أمرا محمودا، كما أن ما اشتمل عليه أدبها في الجاهلية من جفاف، وسكون، وفراغ، ليس من محاسنها. فإن أريد لها الخروج من تلك النشأة، والتخلص مما علِق بها منها، فيجب أن يُدخَل عليها من التغيير -أو يؤذن بدخوله- ما يُخرجها من ذلك الطور بما فيه، وأن تُخرَج من قبضة الأعرابي الذي «صَنعَ العالم العربي الفقير، الجاف، الجاهلي». وتعني «قبضة الأعرابي» لزوم المسموع عن العرب، والاقتصار على المروي عن أهل السليقة منهم، في عصور الاحتجاج، وعدم التصرف في اللغة بما يخالف ذلك. وهي أمور تدخل في التنفير أكثر مما تُبنَى على أصل علمي، بآيةِ ما وَقفَ بالعربية عند العصر الجاهلي دون ما تلاه من العصور، ليسوِّي أدب ابن الرومي، وأبي حيان التوحيدي، والمعري، والمتنبي، والشريف الرضي، والصنوبري، والأدب الأندلسي، والأدب الصوفي، وما كتب بالعربية من علوم، وآداب، وفلسفة، وتشريع، بالأدب الجاهلي، ويجعل البيئة التي صورها أدب العصور الإسلامية كالبيئة التي صورها الأدب الجاهلي. ويغفل عن أن العربية في الإسلام، من حيث هي مضمون، ليست لغة الأعراب وحدهم، وإنما هي لغة أمم شتى، ذات حضارات شتى، فما كَتَبَ الجويني، والغزالي، والزمخشري، ولسان الدين بن الخطيب، وابن النفيس، وفخر الدين الرازي، وابن سينا، والفارابي، والبيروني، والخوارزمي، وابن الهيثم، وابن خلدون، إلخ، ليس من صنع الأعراب، وليس بينه وبين ما قال الأعراب في الجاهلية من نسب سوى اللغة، من حيث هي وعاء. والغفلة عن هذا، أو التغافل عنه يسويان بين هذا النتاج الحضاري وذاك، ليقيس حكمه في شكل اللغة على حكمه في مضمونها، ويجعل علة

ذلك واحدة، هي أنهما من صنع الأعراب، وإنما يصنع الأعرابُ -في نظره- الجمودَ، والفراغَ، إلخ. مع أنه لا تلازم بين شكل اللغة ومضمونها، أي: لا تلازم بين بناء الكلمة الصرفي، وبناء الجملة النحوي، وحياة عرب الجاهلية في الجزيرةِ، فما يعبر عنه ذلك الشكل من المعاني، قد يكون المعبِّر به غير عربي، ولا رأى جزيرة العرب. وقد بقي شكل العربية على ما كان عليه منذ الجاهلية، ولم يكن لمضمونها صورة واحدة. وللغة، بأصواتها، ونحوها، وصرفها، وجود مستقل عن استعداد المتكلم النفسي، وقدراته، وهي -من حيث هي نظام- مفروضة عليه، ومستقلة عنه، وسابقة له، وما يتاح له من التصرف فيها محدود، وهي بمنزلة آلة، وضعت في يده، فهو يستعملها في أغراض شتى. وليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثر في اللغة يُحدث مثلها آثارا في التفكير مماثلةً. فأجزاء اللغة الرئيسة الدائمة تتحول على وفق قواعد، ليس لتفكير المرء أثر فيها. وهذا سبب افتراض أن للغة حياة مستقلة عن الإنسان، كما أن لها وجودا مستقلا عنه. والفروق التي تنشأ بين لغتي شعبين، ولو كانتا من أصل واحد، يمكن تفسيرها بظواهر لغوية خاصة بهما، وليس مردها إلى اختلاف في طريقة تفكير الشعبين[1]. وقد تكون الفكرة واحدة، وإنما تختلف العبارة عنها، فكون إحدى اللغات تقول: liber Petri (كتاب بطرس)، وتقول الأخرى: Le livre de Pierre (الكتاب الذي لبيير) لا يقتضي أن يكون الشعبان مختلفين في تصور علاقة الملكية، وإنما يختلفان في التعبير عنها، ليس إلا. ولهذا الاختلاف أسباب تاريخية. وتطلُّب معرفة طريقة تفكير شعب من خصائص لغته مشروع مخفق، إذا راعينا ما في حوزتنا من وسائل البحث[2]. ومن التحكم أن تُعَدَّ اللغة وليدة طريقة التفكير، أو طريقة التفكير وليدة اللغة، وكل منهما وليدة الأحوال، ونتاج الثقافة والمدنية[3]. فلا ارتباط لشكل اللغة بإنسان، أو زمان أو مكان، وهو حمَّال لما حُمِّل. والخضوع لمقاييس عصر التدوين والخروج عليها مسألة قابلة للنقاش، بشرط أن تَلْزَم منطق العلم، وطبيعة اللغة، وتتجرد من أهواء الكسالى

(١) اللغة، ٢٩٩ وما بعدها.
(٢) السابق، ٣٠١.
(٣) السابق، ٢٩٩.

وعجزهم، وما يريدون من انتهاك القواعد؛ ليتحللوا من عقدة الشعور بذنب الجهل بالعربية.

أما ما قال جسبرسن، من أن جماعة من أعمق المفكرين كثيرا ما اشتكوا من أن لغة قومهم كانت في بعض الأحيان عائقا لهم عن النفاذ إلى حقائق بعض الأشياء، لأن اللغة بمفرداتها وصيغها الثابتة تجبرهم على أن يسلكوا طرقا مسلوكة، ويقتفوا آثار الأولين، حتى آلَ بهم الأمر إلى أن يكون تفكيرهم كتفكيرهم[1] -فإنما يعني به اللغة من حيث هي مضمون، لا اللغة من حيث هي شكل، فمضمون اللغة جزء من ثقافة أهلها، يتأثر به المرء تأثرا غير واع، ولا سيما العبارات الدارجة على الألسنة، والعبارات الجارية مجرى الأمثال، فإنها تؤثِّر في تكوين الإنسان الفكري والعاطفي، وقد يرددها من لا يعتقدها، كما يردد الملحد من العرب: الحمد لله، وما شاء الله، وإن شاء الله، ورحمه الله، بل قد يرددها من لا يفهم ما تعني؛ كما نردد نحن اليوم عبارات مثل: لله دره، وقاتله الله، ولا أبا لك، ولعمرك، وثكلتك أمك، وويلك، وتربت يداك، وكالمجاز الإسنادي الذي يدل ظاهره على خلاف ما نعتقد، كأفناه الدهر، وشيبته الأيام، إلخ، وكما نردد بعض العبارات الشائعة المترجمة من اللغات الأجنبية، على خلافها لما نعتقد، كـ«سخرية القدر»، و«رحمة السماء»، و«الثورة الخلاقة»، إلخ. ونردد في كلامنا «الغول» ونحن نعتقد أن الغول من المستحيلات. وهذا معنى قول فيخته: إن اللغة هي التي تكوِّن الإنسان، وتؤثر فيه، وليس العكس، وهي صدى روح الأمة، وتؤثر في التصورات، وتسبغ عليها معاني وألوانا، وتعكس عليها أشعة وظلالا خاصة بها، هي التي تجعل الإنسان من هو، وليست مجرد أداة يعبر بها الإنسان عن نفسه، بل هي الطبيعة الإنسانية التي تخرج منه في صورة أصوات خاصة، لا يمكن أن تكون غيرَها، وبهذه الأصوات الخاصة التي هي صدى الروح بما تحمل من شحنات عاطفية، وتصورات ومفاهيم وذكريات مشتركة، يتفاهم هو ومن يشاركه في تلك التصورات، والمفاهيم، والطبائع، والعادات، والذكريات، أي مواطنوه، ولو وُلِدوا في قارات غير قارَّته[2]. وهو

---

(١) حياة اللغة، ٧٠٦ (نقلا عن: العلاقة بين اللغة والفكر، ٣٦).

(٢) إنية وأصالة، ٥٧.

معنى قول بول ريكور إن فهمَ الإنسان نفسه والعالم من حوله يعتمد على اللغة، فهي التي تعبِّر عن ذلك الفهم[١]، وقول دولاكروا إنها تصنع الفكر ويصنعها[٢]، وإنها تصوغ الأفكار، في رأي روف، وقول فندريس إنها توجِّه بالقوة تفكيرنا جميعا، وقول سابير إن عالم المرء الحقيقي تحدده العادات اللغوية المختلفة عن عادات أخرى في أنظمة اجتماعية ذات لغات مختلفة عن لغته[٣]. فنحن نرى، ونسمع، ونعبر على الوجه الذي نرى ونسمع ونعبر به لأن عادات الجماعات اللغوية قد هيأت لنا سلفًا اختيارات معينة في التفسير، وهذا معنى قول هيدغر إن لغته هي العيون التي ينظر بها إلى العالم.

وذهب شريف الشوباشي إلى أن العربية هي اللغة التي لم تتغير قواعدها ونحوها وصرفها منذ ألْف وخمسمائة عام، من دون اللغات، واللغة التي يصرُّ أهلها على تحنيطها، ويبذلون ما استطاعوا في الحفاظ على نقائها، مع أنها أصبحت قيدا، يكبِّل العقل، ويغلُّ طاقة العرب المبدعة، ويعين على حرمانهم من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التي يفتحها العالم الحديث لمسايرة الرقي العلمي الحضاري[٤]. والحفاظ على نظام اللغة ونقائها ليس مما يعيبها، ولا هو عمل يعمله العرب دون غيرهم، وإنما تفعله أمم الأرض كلها، وإن تفاوتت فيه، والعربية -إن سُلِّم ما قال- لا يعيبها ألا يتغير نظامها، وإنما هو فضيلة من فضائلها، وقد تغيرت في كل ما لا يضر التغير فيه، أساليبَ، واشتقاقا، ودلالة، دون أصولها النحوية والصرفية والصوتية، ويكفي المرء أن يقرأ كتابا من الكتب القديمة، وآخر من الكتب الحديثة ليرى فرْقَ ما بينهما[٥]. وأعني بالكتب الحديثة كتب الأدباء الذين يكتبون بالعربية عن علم بها، لا الذين لا يعرفون منها إلا ما يهجِّنها. وبهذا أمكنهم أن يسيروا بالعربية حيث يقتضي العصر، من غير أن ينقطعوا عن ماضيهم، أو يَفصلوا ماضي العربية عن حاضرها، أو ينقلوها نقلة تحول دون أن يفهم المعاصر ما كُتِب بها قبل ألفي عام. وهذا التجديد ونحوه

(١) ما هو طريق مارتن هيدغر إلى اللغة؟.

(٢) الفلسفة، ٦٤ (نقلا عن: العلاقة بين اللغة والفكر، ١٧).

(٣) خمسون سنة من التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية، ٧٦ وما بعدها.

(٤) لتحيا اللغة العربية، ٣.

(٥) انظر: دراسات في العربية وتاريخها، ١٣٨.

هو الذي يفيد اللغات، أما إحلال صوت مكان صوت، وصيغة مكان أخرى، كما تُحَلُّ الهمزة محل القاف في «وَأَفْ»، وتُحَلُّ «يُوْأَف» محل «يقف»، فليس بالذي يفيد اللغة، ولا بالذي يجعلها أمثل مما كانت، ولا هو أكثر وفاء بالتعبير عن حاجات النفس العربية، وما جدَّ لها من علم وفكر، وما بلغت فيهما من رقي وتجدد، بل يضرها؛ لأنه ينقلها من لغة إلى أخرى، ويقطع ما بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وحسْب الذي يزن الأمور بميزان المصلحة، وينظر إليها بعين العلم والعقل أن يعلم أن ما سماه شريف الشوباشي تحنيطا كان له من الفضائل على العرب ما قد رأينا، وأن العرب من المحيط إلى الخليج يلتقون، فيتحدثون، ويفهم بعضهم بعضا، كما يتحدث أهل البلد الواحد، وتعقد قممهم، وتكتب وثائقهم بلغة واحدة، ويكلم بعض حكامهم بعضا من غير ترجمان، وهم -إلى ذلك- يشعرون بأنهم أمة واحدة، مصيرها واحد.

ولم يَحُل النحويون بين أحد من العرب وأن يغير لغته، وإنما عدُّوا ذلك أمرا طبيعيا، ليس لهم أن يحولوا دونه، ولا نفْعَ للعربية في أن يحال بينهم وبين تغييرها، ولكنهم كانوا يرون أن يكون التغيير في العامية دون الفصحى، ولذلك كانت وما زالت في تغير مستمر، وجعلوا لكل منهما مقاما. وإذا حُلِّل قول الشوباشي إن العربية أصبحت قيدا، يكبِّل العقل، ويغلُّ طاقة العرب المبدعة، ويعين على حرمانهم من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التي يفتحها العالم الحديث لمسايرة الرقي العلمي الحضاري، تبين أن ليس تحته كبير معنى، وإنما هو ككلام عبد العزيز فهمي في الرسم العربي، وليس في وسعه أن يبين كيف صارت العربية قيدا، ولا كيف كبَّلت العقل، وغلَّت طاقة العرب المبدعة، وإنما هو كلام إنشائي، ليس له غاية وراء التهويل والإيهام والتنفير، فقد عرَّب العرب العلوم كلها، ودرَّسوها في أطوار التعليم كلها، وأبدعوا في الأدب، شعرا ونثرا، كما أبدع غيرهم من الشعوب، فعمَّ غلَّت العربية، إذن؟ وكيف غلَّت؟ ومن ذا الذي غلت غير الجاهلين بها، والذين لا يجدون ما يقولون؟.

وقول شريف هذا كقول أدونيس: العربية شكل وجرس، في المقام الأول، أي قواعد مجردة قبل أن تكون انبثاقا من الحياة، أو تطابقا مع الواقع. إنها لغة ثانية إلى جانب اللغة اليومية الجارية، إنها كما يعبر جاك بيرك لغة الهبوط على الحياة،

لا صدور عنها، لذلك هي لغة فكرية أو ذهنية، وليست لغة حياة، ومن هنا ثبات أشكالها وتراكيبها[1]. وهو كلام لا معنى له أيضا، فضلا عن أنه بعيد من حقيقة العربية، وحقيقة كل لغة إنسانية، كما أنه مخالف لماضي العربية وحاضرها، ومن قرأه خُيِّل إليه أن صاحبه لا يفكر في حقيقة ما يقول، وإنما يلقي القول على العواهن استصغارا للقارئ، أو تعويلا على أن «مَنْ يَسمع يَخَل»، أو تعمدا للتجني. وقد بينت سلمى الخضراء الجيوسي جانبا من ذلك في تعليقها على قول أدونيس هذا، فقالت: نحن شعراء ننظم شعرنا بالعربية، بلغة الشعر العربي التي تطورت طوال القرون أكثر من كل عنصر آخر من عناصر الشعر، فعبرت عن خشونة البادية، وملأت القصائد بعشرات المرادفات الدقيقة للأشياء، وهي خاصية من خصائص اللغات غير المتحجرة، كما يقول اللغويون، ثم تحضرت، فعبرت عن مجون أبي نواس، وتهتك بشار، وتبسطت مع أبي العتاهية حتى قربت من النثر، وتعقدت مع المتنبي بعبارات متوترة، ومشاعر غنية، ثم تقعرت مع لزوميات المعري، ورقت ولانت وتقصفت مع الموشحات، وذابت عذوبة ونعومة في المذهب الفارضي، ثم أطاعت في العصر الحديث التعبير الرمزي والسريالي، فاستطاع الشاعر منا أن يبين عن أدق مشاعره وأفكاره العصرية بلغة الشعر العربي النامية أبدا. وإن كان لا يخفى علي أنها قد تبدو غير ملائمة للكاتب المسرحي والقاص؛ لأن القصة والمسرحية تعرضان كثيرا للحياة اليومية العادية، وتستعملان الحوار، أما الشعر فله لغته الخاصة، لغة الإيحاء والتوتر التي لا تنبثق من لغة الحياة اليومية، بل من الوجدان العميق، والضمير التاريخي الكامن في اللغة الشعرية، والأساليب والأداة. لكن الاتجاه التجديدي يجب ألا يكون سحقا لمقومات شخصيتنا[2].

وإذا رجعنا إلى ما اقترح شريف من التغيير الذي يرى أن يُدخَل على العربية لم نجد له فضلا على ما ذم منها، فإذا أُبطل التفريق بين المذكر والمؤنث، فصار يقال: الرجال جاؤوا، والنساء جاؤوا، لم يكن الإبطال أقرب إلى الإبداع والانطلاق من التفريق بينهما، أي معنى بديع وراق في: النساء جاؤوا، ليس في:

---

(١) الشعر العربي ومشكلة التجديد ١٧٩.

(٢) السابق (المناقشات)، ١٩٥ وما بعدها.

جاءت النساء؟ وإذا ألغي المثنى، وصُيِّرت الأسماء إما مفردات وإما جموعا، لم يكن إلغاؤه أدعى إلى الإبداع وأعون عليه من الإبقاء عليه. وكذلك إذا ألغيت الجملة الفعلية، وأبقي على الجملة الاسمية وحدها؛ فماهية الإبداع جد بعيدة من هذا، وهذا ونحوه من كلام شريف يدل على أنه لا يتصور الإبداع، والرقي، ولا يدرك كنههما، ولا السبيل إليهما. وقد غير العامة من الفصحى ما أراد شريف وهشام أن يُغيَّر، فما أبدعوا، ولا أنتجوا أدبا ذا بال، ولا أبدع الذين يصطنعون العامية في التعليم، والزجل، والروايات، والمسلسلات، ولا بلغوا من الرقي ما يغري بمتابعتهم، بل ما زالوا حيث سائرُ المجتمع العربي، وما زال ما ينشر بالعامية من الدواوين والروايات، ويبث من المسلسلات غير معتد به، ولا عدَّه امرؤ جادٌّ، يعرف الأدب والفن أكثر من تهريج، يتلهَّى به من أعياه الطريق إلى الأدب الراقي، وإنما المعتد به ما يكتب بالفصحى وحدها.

وثم ضروب من التجني على العربية، أشبه شيء بالكلام المزاجي الذي لا يتقيد بمنطق، ولا يعتدُّ بمصلحة، وإنما همه أن يزيح العربية من الحياة، ويتبدل بها، ولكنه يتوسل إلى ذلك بالتعبث بها حتى تغدو مسخا غير صالح لشيء، فيقتنع أهلها بأن المصير إلى اللغة التي حذيت عليها خير من الصورة الشوهاء التي آلت إليها. وهذا، وإن لم يكن مرادَ كل من يتجنون على العربية، هو ما ستنتهي إليه دعوتهم، إن أجيبت. فمما يأخذ هؤلاء على العربية أنها تخلو من المختصرات التي هي سمة من سمات اللغات الأوربية التي توفِّر على أصحابها كثيرا من الوقت في الكتابة والتفاهم. وتخلو من تركيب الكلمات، والتركيب سمة من سمات اللغات المتجددة، ولا تسمح بالبدء بالساكن، وهو قيد ينبغي أن يُلغَى[(١)]. ولا يخفى أن هذه مآخذ ساذجة، ولا يترتب عليها كبير فائدة، ولا تختلف عما قد رأينا من مآخذ سعيد عقل على الرسم العربي، وهي أشبه شيء بالدعوة إلى تغيير العرب «جلدهم اللغوي»، ليماثلوا غيرهم[(٢)]. فالبدء بالساكن -مثلا- لا يترتب عليه نفع، ولا يترتب على عدمه ضر، وإلغاؤه -إن أُلغي- لا يفيد العربية إلا أن تقترب من نظام بعض اللغات الأجنبية الصوتي، وليس في

---

(١) العربية تواجه التحديات.

(٢) الموضع السابق.

الاقتراب منه فائدة، يُحرَص عليها. وعدم البدء بالساكن خصيصة تشارك العربيةَ فيها اليابانية[1]، غير أن ذلك لا يشفع لها؛ لأنها ليست بلغة غربية. والتركيب والاختصار في العربية منهما ما يكفي، مع أن اللغات تختلف في خصائصها، وما ينبغي أن تحذى لغة على أخرى، فإن في ذلك إفسادا لها، وانتهاكا لهويتها.

ووصفَ بعضهم العربية الفصحى بالجمود، وكل لغة عزلت عن العلوم والحياة جمدت، بل ماتت، لا محالة، فقد بَذَلَ الفُرْس لصالح بن عبد الرحمن، كاتبِ الحجاج بن يوسف -وقد عَرَض عليه أن يعرِّب له ديوان الحساب، فقبل الحجاج، وقلَّده تعريبه- مائةَ ألف درهم على أن يُظْهِر له العجز عن التعريب، فأبى، وكان ذلك بعد أن حاول بعضهم أن يثنيه عنه، ويقنعه بأنَّ في لغة الديوان ما لا يمكن تعريبه، فلما أعياهم، قالوا له: «قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعتَ أصل الفارسية!»[2]. فقد علموا أن إخراج الفارسية من ديوان الحساب قطْعٌ لأصلها، إذ كل لغة لا تستعمل في المُهِمَّات من شؤون الحياة، تموت، وإن استعملت في بعض المقامات، كما أن السريانية والآرامية اليوم مقطوعتان من الدنيا، وإن كانتا تستعملان في شعائر بعض نصارى الشام والعراق وتركية، وفي بعض أمور حياتهم اليومية. ويتولى العرب اليوم وحكوماتهم قتل العربية بعزلها عن الحياة عمدا، وحشرها في زوايا، ليست هي أشدها تأثيرا في حياة الناس، كما تعزلها الجامعات عن التخصصات العلمية، والمهم من التخصصات الإنسانية، وتحشرها فيما سوى ذلك من التخصصات التي لا يُعنَى بها أكثر الناس، هذا إلى تعمُّد حكومات المغرب العربي -غير ليبية- استعمال الفرنسية في أكثر الإدارات، وأكثر شؤون الحياة العامة، فضلا عن اصطناعها في أطوار التعليم كلها. ويريد بعض العرب -مع ذلك- أن تكون العربية كالإنجليزية والفرنسية، ويعيبونها ألا تكون مثلهما، وكيف تكون مثلهما، ومن يُرجَى لحراستها يسعى في قتلها؟!

---

(١) العربية تواجه التحديات.

(٢) الفهرست، ٣٣٨.

ثالثا- عدم الصلاحية للعلم

أما أن العربية عاجزة عن مسايرة المخترعات الحديثة، والبيان عما يَجِدُّ كل يوم، ولا تُبلِّغ أهلها السعادة العظمى بالرقي والمكانة الاجتماعية؛ لأنها لا تضمن لهم الراحة، والمنصب، وإنما تجرُّ عليهم الاحتقار والاشمئزاز، والاتهام بالتعصب والتأخر، ولا يتأتى منها سوى العقد الاجتماعية، إلخ، فخارج عن ماهية العربية، من حيث هي لغة، وإنما هو من عمل العرب، فهم الذين عجزوا عن مسايرة المخترعات، وجعلوا «السعادة العظمى»، والرقي والمكانة الاجتماعية إلى اللغات الأجنبية، وهم الذين أخرجوا العربية من الحياة، ويسخرون من متعلمها، ويهزؤون به، ويحتقرونه، ويتهمونه بالتعصب، لقلة وعيهم، ومخالفتهم ما عليه شعوب الأرض من تقديس لغاتها. أما اللغات، فليس فيها لغة علمية بالطبع، وأخرى غير علمية بالطبع، ولغات متقدمة وأخرى متأخرة، وإنما هي نظام رمزي، يستعان به على التواصل، ووسيلة مطواعة بأيدي أهلها، يبلغون بها ما أرادوا، وما هو وسيلة لا يكون إلا تابعا لمستعمله[1]، يرتقي بارتقائه، وينحط بانحطاطه، ويتسع باتساع عقله، ويضيق بضيقه، وليس له استقلال دونه، وازدهار اللغة في زمان، وخمولها في غيره، ليسا باللذين يدلان على صلاحيتها للعلم أو عدم صلاحيتها له، وإنما مردُّ ذلك إلى حال أهلها الذين يقوون ويضعفون، ويَغْلِبون ويُغْلَبون، فتقوى بقوتهم، وتضعف بضعفهم، وتَغْلِب بغلَبهم. وكل لغة -مهما تكن عليه من البدائية- قابلة لاستيعاب حضارة العصر كلها، إذا ما نهض بها أهلها، و«الفكر المتوحش» ليس بفكر قوم متوحشين، ولكنه فكر إنساني في تلقائيته، لم تهذِّبه الصناعة، ولا ثقَّفه النحت، وهو -مع ذلك- فكر رمزي، ولغته مجرَّدة، ومعانيها عامَّة، ككل لغة أخرى، ومنها اللغات التي بلغت أوج الرقي. والإنسانية واحدة، وخصائصها الفكرية واحدة، وتشترك لغاتها في خصائص

---

(١) التعدد اللغوي، ٢٨، والتبعية اللغوية، ٤ وما بعدها.

تجريدية ورمزية، تهيئ اللغات كلها للمهامِّ كلها[1]؛ ولذلك يقول علماء اللغة: كل ما يمكن قوله بالألمانية يمكن قوله بالسواحلية[2]. وما انتهى إليه البحث اللغوي أنْ ليس في اللغات لغة غير مؤهلة للإبانة عن أبعد الأفكار غورا، مهما يكن عليه أهلها من بداوة، ولا فكرةٌ فلسفيةٌ -مهما يكن حظها من الدقة والتعقيد- لا يمكن الإبانة عنها بالمتداول من لغات الناس، وأن من الممكن التحاور بلغة الزولو في فوائد الفلسفة التجريبية أو العقلانية، والتحدث عن الظاهرة الوجودية بلغة غرينلاند الغربية، ومجملُ الخبرة المعرفية وتصنيفاتُها يمكن إبلاغها بكل لغة حية[3]، وأن كل لغة -من الناحية النظرية- لديها الاكتفاء الذاتي، وتستطيع أن تستجيب لحاجات الاتصال الإنساني ومتطلباته في ثقافة معينة[4]. ومن الأوهام الكبيرة أن يُظَنَّ أن العلم والتقدم منوطان بلغات دون أخر، فلو صحَّ ذلك، لفاقت الدول الناطقة بالإنجليزية في الرياضيات والعلوم غيرها من الدول، ولكنَّ آخر نتائج المنافسة العالمية بين المدارس في الرياضيات والعلوم أحلَّت كورية في المرتبة الأولى، واليابان في المرتبة الثانية، وهما تدرِّسان بلغتيهما[5]. واللغات الإنسانية، من حيث هي لغات أشد تطورا وتعقدا مما نظن بها، كما قال جون ليونز: كل لغة درسناها إلى الآن، مهما بدا المجتمع الذي يستعملها بدائيا، أو غير متحضر من نواح أخرى، برهنت على أنها نظام اتصال معقد ومتطور جدا، وأن ما يستطيع عالم اللغة قوله في فكرة التطور الثقافي من البربرية إلى الحضارة، هو أنه لم يتبين علاقة متبادلة ما بين الأطوار المختلفة للتطور الثقافي التي مرت بها المجتمعات، ونوع اللغة المنطوقة في هذه الأطوار. فلا يوجد -مثلا- شيء يمكن عده نوعا من اللغات، يصلح للعصر الحجري، كما لا يوجد نوع من اللغة يكون صفة متميزة لمجتمعات جمع الطعام، أو رعي المواشي، أو المجتمعات الصناعية الحديثة، من جهة أخرى[6]. وقال: توجد اختلافات كبيرة بين اللغات

---

(١) كما تكون أمتنا تكون لغتنا.

(٢) لغتي اليدشية، ٢٧٥.

(٣) في اللغة والفكر، ٤٢، وعبر منظار اللغة، ١٨ وما بعدها، وفقه الترجمة، ٣٦.

(٤) التعليم وثنائية اللغة، ٣٣.

(٥) تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، ٤٣ وما بعدها و٩٣

(٦) اللغة واللغويات، جون لوينز، ترجمة محمد إسحاق العناني، عمان، ١٩٩١، ٧٠ (نقلا عن: اللغة العربية على مدارج القرن الواحد والعشرين، ١٣).

المختلفة في مجموع المفردات. وقد يكون من الضروري تعلم لغة أخرى، أو تعلم مجموعة من المفردات المتخصصة، إذا أراد أحدنا دراسة موضوع معين، أو التحدث المرضي. ومن هذه الناحية قد تكون إحدى اللغات أكثر تهيؤا من غيرها لخدمة أغراض معينة، إلا أن هذا لا يعني أن إحدى اللغات أغنى أو أفقر جوهريا من غيرها[1]. واللغات الحية كلها أنظمة اتصال فعالة، ومع تغير حاجات المجتمع الاتصالية تتغير لغته على ما تقتضي حاجاته الجديدة، وتتسع مفرداتها، إما بالاستعارة، وإما باشتقاق كلمات جديدة من الكلمات الموجودة، ولا يعني افتقار ما يسمى لغات العالم المتخلف إلى كلمات تدل على مفاهيم العلم أنها بدائية أكثر من اللغات التي فيها هذه الكلمات، وإنما يعني أن المشتغلين بالعلم لما يستعملوها[2]. وما من لغة من اللغات التي كتب بها العلم في هذا العصر إلا كانت لغة محلية، لا يعرفها إلا فئة قليلة من الناس، كالفرنسية، فلم يكن لها شأن يذكر، قبل القرن الثامن عشر الميلادي، وإنما كانت لهجة محكية، تتكلم بها قلة من الفرنسيين، ما كانت تزيد في زمن الثورة على ٣٠٪[3]، هم أهل ضواحي باريس، يوم كانت تسمى جزيرة فرنسة (Ile de France)، وكانت مقر البيت الذي أسس المملكة الفرنسية، وقد مكنها ذلك من التغلب على سائر اللهجات، والتوسع بتوسع ملكه[4]. ثم بدأت في القرن الخامس عشر تستعمل قليلا في الوثائق القانونية والإجراءات القضائية والمراسلات التجارية، وبدأ الحد من استعمال اللاتينية في الأعمال التجارية والحكومية. وقضى مرسوم Edit Villers-Cotterêts بوجوب كتابة المستندات القضائية والإدارية كافة بها، دون غيرها. وكانت في القرن السادس عشر توصف بأنها لغة فظَّة، إذا ما ووزنت باليونانية[5]، والفرنسيون يزدرونها، ويزدرون ما يُكتب بها، ويعرضون عنه، ويستنكف بعضهم من الكتابة بها، ويعتقدون أنها ليست أهلا لأن تكون

---

(١) اللغة واللغويات، ٦٤ (نقلا عن اللغة العربية على مدارج القرن الواحد والعشرين، ١٤).

(٢) السابق، ١٤.

(٣) شجاعة العربية، ١٠٦، واللغة والاقتصاد، ٤٢.

(٤) اشهدي يا جزائر، ٢٤٩.

(٥) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٤٧، واللغة العربية في العصر الحديث، ٣١، وقضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، ١٨٤.

لغة علم وأدب، كما يبدو من تقريع جواشيم دوبلاي إياهم في كتاب، نشره عام ١٥٤٩ م، قال فيه: يظل لومي قليلا في هذه المسألة، مهما أَلُمْ بعضَ أبناء وطننا على حماقتهم وغرورهم، فهم -مع أنهم ليسوا أقل قدْرا من اليونانيين واللاتين- يزدرون كل ما يكتب بالفرنسية ويرفضونه، ويظلُّ عجبي قليلا، مهما أَعْجَبْ من غريبِ رأي بعض العلماء الذين يظنون أن لغتنا ليست قادرة على أن تكون لغة العلم والأدب الرفيع[1]. وقال: لِمَ نُعجَب -إذن- كل هذا الإعجاب بالغير؟ ولم نجور على أنفسنا كل هذا الجور؟ ولم نستجدي اللغات الغربية، وكأننا نخجل من استعمال لغتنا؟[2]، «لا ينبغي لك أن تخجل من الكتابة بلغتك»[3]. وفي عام ١٧٩٠ أحصى الأب غريغوار الذين يتكلمون بها في فرنسة، وهي لغتهم الأم، فألفاهم ثلاثة ملايين، وثلاثة ملايين يعرفونها معرفة محدودة، وخمسة وعشرون مليونا من سكان فرنسة يتكلمون بلغات أخرى، ومعرفتهم بالفرنسية مزجاة[4]. وبعد تقريع جواشيم بنحو قرنين (القرن الثامن عشر) غدت لغةَ أوربة كافة، ونالت من الحظوة في بلاطاتها كلها ما لم تنل لغة أوربية قبلها، فكانت تَتكلَّم بها كما يُتكلَّم بها في قصر فِرْساي[5]، وكانت لغةَ الطبقات العليا، والمحاكم، والمحافل الرسمية، والدينية، والإدارات، وكانت الطبقات العليا تستعمل مفرداتها في كلامها، تدليلا على أنها تعرفها، حتى ذهب من مفردات الإنجليزية بسبب ذلك ما بين ٦٠ و٨٠ ٪، وهيمنت عليها منذ استعمر النورمانديون بريطانية[6]، وحلَّت محل اللاتينية، حين عمَّ الاحتلال الفرنسي أقطار أوروبة، كألمانية، وإنجلترة، وبولونية، وهولندة، والسويد، والنروج، والدانمارك، وهنغارية، وغزت روسية القيصرية، وفرْنَسَتْها، وغدا بعض رجالها يعترفون بفوقها، ويستعينون على فَرْنسة روسية بالأساتيذ والتقنيين وأهل الفن، وغدا السفر إلى باريس عقيدة، وتضاعفت فيها الكتب والصحف الفرنسية، وصارت هي لغة النبلاء من الروس،

---

(١) حرب اللغات، ١٠٨.
(٢) السابق، ١٠٩.
(٣) السابق، ١١٠.
(٤) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٤٩.
(٥) السابق، ١١٣، واللغة وروابط الهيمنة عند ابن خلدون، ١٤٧ وما بعدها.
(٦) قضايا تأصيلية حول انقراض اللغات وازدهارها، ٣٦.

وكان حب الظهور والتعالي يحمل الملأ منهم على استعمالها، ولا يتكلم أطفالُ الطبقة الوسطى بالروسية إلا بصعوبة، وإنما يتكلم بالروسية عامة الشعب[١]، وكتب بها تولستوي أجزاء غير يسيرة من حوار روايته «الحرب والسلام»، وكتب افتتاحيتها بها مسايرة للواقع[٢]. وكانت النمسة تحكم بها، ونشرتها في هولندة النمسوية، وبلغت من الانتشار في هولندة أن لم يكن يفهم الهولندية من الهولنديين إلا قليل، وكذلك كان الأمر في ألمانية، وإيطالية، والدانمرك[٣]. وفي القرن التاسع عشر كان معظم دول أوربة يدين لها وللفكر الفرنسي بالولاء، وتعد الفرنسيين أساتيذها في الثقافة، وكانت الفرنسية هي لغة القصص، والمسرحيات، والفلسفة، والديبلوماسية، والمعاهدات الدولية[٤]، وصارت توصف بالجمال، والأناقة، وكلِّ وصف معْجِبٍ، توصف به اللغات.

وكانت الإنجليزية لهجة محلية، تتكلم بها طائفة من القبائل الجرمانية، تقيم على بحر الشمال، حيث هولندة، والدنمارك، وألمانية، ثم هاجرت إلى بريطانية في القرن الخامس الميلادي، وما كان يستعملها إلا العامة في كلامهم اليومي[٥]، وكانوا يرون أنها لا تصلح للكتابة والتوثيق[٦]، وقال بعضهم إنها ليست إلا لسان المصرف والسَّنَدات الكريه[٧]، وإنها وارث غير لائق لنوع من الهولندية، كانت تتكلم به جحافل من المتوحشين الجرمان في القرن الخامس الميلادي، ثم هجَّنها الاستعمار الإسكندنافي، ثم الاستعمار النورماندي. ولما غزا النورمنديون (وهم سكان نورمندية بشمالي فرنسة، ولغتهم الفرنسية) بريطانية عام ١٠٦٦ استعمل الإنجليز الفرنسية في إدارة الدولة، والتعليم، وكانت في القرن الرابع عشر هي التي تحظى بالمكانة السامية، وبها كُتبت الأعمال الأدبية الشهيرة، وبقيت الإنجليزية لغة العامة والدهماء والزراع والرعاة، وسكان

---

(١) اللغة والوعي القومي، ٢١٤، وحرب اللغات، ٨١، ومشكلات التعريب، ٢١ وما بعدها، وإمبراطورية الكلمة، ٥٦، وانظر: اللغة بين القومية والعالمية، ٢٨٨ وما بعدها.

(٢) إمبراطورية الكلمة، ٥٦٣.

(٣) الموضع السابق، ومشكلات التعريب، ٢١ وما بعدها، واللغة بين القومية والعالمية، ٢٨٨ وما بعدها.

(٤) كلمات العالم، ٤٣، واللغة بين القومية والعالمية، ٢٨٨.

(٥) لماذا تتغير اللغات، ١٨٧، وقضايا تأصيلية حول انقراض اللغات وازدهارها، ٣٦، وما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية؟.

(٦) اللغة والهوية، موقع مجلة التسامح.

(٧) اللسانيات الاجتماعية، ٢١٠.

الأرياف، أما القضاة والمتعلمون والحكام، فإنما كانوا يتكلمون بالفرنسية[(١)]. وظلت قرونا، وهي تقترض من الفرنسية، لفقرها، حتى اقترضت منها عشرة آلاف كلمة، دخلت فيما بقي من الإنجليزية القديمة[(٢)]، وذهب بعضهم إلى أنها اقترضت من الفرنسية واللاتينية وغيرهما ما بين ٥٥ و٧٥ ٪ من مفرداتها[(٣)]. ويرى بعضٌ أنها اقترضت منهما ومن النورمانية واليونانية ما بين ٧٧ و٨٠ ٪ من الإنجليزية الحالية[(٤)]. ولما أنشئت جامعة أكسفورد في القرن الرابع عشر، لم تكن تَستعمل الإنجليزية في التدريس، ولا كانت تستعملها الكاتدرائيات والمجامع الكنسية في نشر تعاليمها وأداء صلواتها. ولمَّا ترجموا إليها الكتاب المقدس، قال توماس مور، مستشار الملك هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٤٧ م)، ساخرا: «إن كلمات الرب تُرجِمت إلى لغة الحرَّاثين»[(٥)]، احتقارا لها. وظلت خالية من المصطلحات العلمية إلى القرن السادس عشر، وكانت اللاتينية هي لغة العلم والدين والقضاء والقانون، واللغة التي تتكلم بها الملكة إليزابيث مع السفراء الأجانب، وبها كتب جون ملتون لكروم ويل[(٦)]. ولما أحس الإنجليز في القرن السادس عشر الميلادي بالحاجة إلى المعرفة، لجأ علماؤهم إلى اللغات اللاتينية واليونانية، والعربية، فاستعاروا منها ما احتاجوا إليه من المصطلحات العلمية، فبلغ ٨٦ ٪ من المصطلحات المستعملة في الإنجليزية الحديثة[(٧)]. وكانت إلى عام ١٦٠٠ محصورة في الجزائر البريطانية، مع لغات أُخَر كثيرة[(٨)]، والذين يتكلمون بها بين خمسة ملايين وسبعة[(٩)]. وظلت كذلك إلى أول القرن العشرين. ولم تكن في بداية القرن العشرين سوى إحدى اللغات

(١) لماذا تتغير اللغات، ١٩٦، والسياسة اللغوية، ١٦٤، ومنزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ٨٧ وما بعدها.

(٢) لماذا تتغير اللغات، ١٩٦، والسياسة اللغوية، ١٦٤.

(٣) الأصوات والإشارات، ٩٢ (نقلا عن: العربية ورهانها العولمي لسانيا، ٧٢٦).

(٤) الأمازيغية المعيارية، ٤١.

(٥) لماذا تتغير اللغات، ١٧١.

(٦) قضايا تأصيلية حول انقراض اللغات وازدهارها، ٣٦، ومنزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ١٢٨، وقضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، ١٨٤.

(٧) منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ٩٢.

(٨) لماذا تتغير اللغات؟، ١٧٠.

(٩) ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية؟.

المهمة بعد الألمانية والفرنسية[١]. ومن خمولها، وقلة شيوعها، أن الفرنسيين عارضوا بشدة أن تسوِّي عصبة الأمم المتحدة بينها وبين الفرنسية في مؤتمر السلام الذي أعقب الحرب الأوربية الأولى، ولكن حضور أمريكة حال بين فرنسة وما تريد، فعلمت أنْ قد ولَّى عهد هيمنة الفرنسية[٢]. وفي القرن السادس عشر فُرض استعمالها في محاكم ويلز الكلتية، ومُنِع من لا يعرف الإنجليزية أن يتولى منصبا حكوميا[٣]. وإنما انتقلت من لغة أقلية في القرن السادس عشر الميلادي إلى اللغة الأولى في العالم بقوة بريطانية الاستعمارية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ثم بقوة أمريكة الثقافية التي ظهرت بعد الحرب الثانية[٤]، والتغير في توزيع القوة يورث تغيرا في استعمال اللغات[٥].

ولم يكن للروسية شأن يذكر منذ نحو مائتي عام، حتى ظهر بوشكين، وجوجول، وتولستوي، ودستويفسكي، وتشيكوف، فاتجه العالم إلى قراءة ما يكتبون[٦]. وكانت الإيطالية لهجة من لهجات اللغة اللاتينية، يحتقرها الإيطاليون، ويرون أنها دون العربية، وأن العربية وحدها هي لغة العلم والحضارة؛ فيجب اصطناعها من أجل النهوض، فقال الشاعر الإيطالي، فرنشيسكو بتراركا: ماذا؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبًا بعد ديموستن، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعرًا بعد هوميروس، ألا يستطيع أحدنا أن يكون كاتبا بعد العرب؟! لقد جارينا اليونان غالبًا، وتجاوزناهم أحيانًا، فنحن -إذن- قد جارينا أكثر الأمم، وتجاوزناها، وتزعمون أننا لا نستطيع أن نبلغ شأو العرب؟ يا للحماقة والضلال! ويا لعبقرية إيطالية النائمة، أو الخامدة![٧]. ثم غدت من اللغات الحية منذ عهد دانتي و«الكوميديا الإلهية»، وهي الآن لغة العلوم والفنون والآداب في إيطالية[٨]. وقد رأينا ما أسبغت عليها مدام دي ستايل من الإطراء بالجمال، وحسن الإيقاع.

---

(١) شيء من المأزق الهوياتي، ٤٤.
(٢) الهيمنة اللغوية، ٤٩.
(٣) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ٤٧.
(٤) السابق، ١٠، ولماذا تتغير اللغات، ١٧١ - ١٧٣.
(٥) صدام الحضارات، ١٣٨.
(٦) دور اللغة في تماسك شخصية الأمة، ٢٦.
(٧) حضارة العرب، ٥٦٩، وإشكالية تعريب التعليم العالي، ٢٤٤ - ٢٦٢. اللغة العربية لغة القرآن ورسالة الإسلام، ٢٦٢.
(٨) دور اللغة في تماسك شخصية الأمة، ٢٦.

وكانت العربية في الجاهلية لهجات شتى، ليس لأهلها علم ولا أدب مكتوبان، ولا يكاد يعرفها غير أهلها، وكان الفرس يحتقرونهم، ويرون أنْ ليس لهم شيء من خصال الخير، في أمر دين ولا دنيا[١]، فلما جاء الإسلام، وسلكوا طريق العلم والحضارة، صاروا هم المثل الأعلى، في كل شيء، وصار من كان يحتقرهم من الفرس يحاكيهم في كلامهم، وفعالهم، ولباسهم، كما يروى أن الأسود الغُنْدَجانيَّ كان يتلقب بالأعرابي، ويتعاطى تسويد لونه، فيدَّهن بالقطران، ويقعد في الشمس؛ ليحقق لنفسه التلقيب بالأعرابي[٢]. وصارت العربية لغةَ العلم الأولى في العالم، و«جميع الأمم فيها راغبون، وعليها مقبلون، ولها بالفضل مقرون، وبفصاحتها معترفون، وحتى نقلوا الكتب المنزلة، مثل التوراة والإنجيل والزبور، وسائرِ كتب الأنبياء، من السريانية والعبرانية إلى العربية، ونقلوا ما قالته حكماء العجم من الفارسية إلى العربية، وسائرَ ذلك من كتب الفلسفة، والطب، والنجوم، والهندسة، والحساب من اليونانية والهندية إلى العربية. وحرصت كل أمة على تعلُّم العربية؛ ليترجموا ما في أيديهم بها»[٣]. وتأثر كبار شعراء الغرب وأدبائهم، ولا سيما أبي الشعر الإنجليزي، جيفري شوسر، بالأدب العربي، وكانوا يقلدونه، كما قال وارتون: «إن الحركة الرومانتيكية في العصور الوسطى هي بلا ريب نتاجٌ عربي خالص»، ولولا «ألف ليلة وليلة» ماكان روبنسون كروزو، وقال هملتون جب: إن أوربة مدينة بقصصها للعرب كما أنها مدينة بدياناتها لليهود[٤]، وقال جوليان: «إن الشعر الغنائي الإسباني القديم ربيب أدب الأندلسيين المسلمين، وهو المورد الذي استفاد منه الفرنسيون، ومنه تنوعت أنواع الشعر في الغرب، وأثَّر في التطور والتجديد، وبقاء أسس حديثة لهذا الأدب»[٥]. وما أريد أن أطيل بسرد الأمثلة، وهي كثيرة جدا، وما ستر منها الأوربيون أكثر مما أعلنوا. ويمكن القارئ أن يعود إلى المقالتين المشار إليهما في ذيل الصفحة لمعرفة مزيد من

---

(١) انظر: جمهرة خطب العرب، ١/ ٥٠.
(٢) معجم الأدباء، ٢/ ٨٢٢.
(٣) كتاب الزينة، ١/ ٩٠.
(٤) لغة العرب وكيف ننهض بها، ١٥٣ وما بعدها.
(٥) الموضع السابق، والتنافذ الأدبي بين العربية والإنجليزية، ١٣ وما بعدها.

هذا التأثير، كما يمكنه أن يعود إلى «رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب فكرا ومادة»، لمحمد ماهر حمادة، و«محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب»، لفؤاد سزكين؛ ليقف على بعض ما ترجم الأوربيون من التراث الإسلامي في كل علم وفن، ومبلغ تأثرهم به، وما انتحلوا منه.

وإذا كان العرب اليوم يلبسون الملابس المرقومة بالإنجليزية التي كتبت عليها أسماء نجوم التمثيل، والرياضة، والخيالة (السينما) في الغرب، فقد كان الملك روجير النرمندي، ملك صقلية، عالما بالعربية، وكان يلبس الملابس العربية، ويرقم جبته الرسمية بالحروف العربية، وكان خاتمه وطابعه ونقوده مكتوبة بالعربية والنرماندية. وكان أميرال صقلية متضلعا من العربية، والعربية هي لغة التجارة والعلوم الدولية، في صقلية، وكان فردريك الثاني، ملك صقلية يلبس اللباس الشرقي، ويتخلق بكثير من عادات العرب[1]. وكان روجر بيكون الإنجليزي، في القرن الثالث عشر الميلادي يقول: إني لأعجب لمن يريد أن يتضلع من الفلسفة والعلم وهو لا يعرف العربية! وأهدى القيصر هاينرش السادس إلى ولده الأكبر فريدريك الثاني، لَمَّا عاد من إيطالية، معطفا، عليه رسوم وكتابة بالعربية، مؤرخة بالتاريخ الهجري[2]. وذكر ابن جبير أن نساء حاضرة صقلية (بالرمو) النصرانيات، فصيحات الألسن، ملتحفات منتقبات، يبرزن لكنائسهن حاملات زي المسلمين، من التحلي، والتخضب، والتعطر[3]. وقال إن غليام ملك صقلية كان «يتشبه في الانغماس في نعيم الملك، وترتيب قوانينه، ووضع أساليبه، وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أبهة الملك، وإظهار زينته، بملوك المسلمين»، وهو يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته (شعاره) «الحمد لله حق حمده»، وعلامة أبيه «الحمد لله شكرا لأنعمه»[4]. وبلغت العربية -في إبان غلَب المسلمين- من الانتشار في العالم أن رهبان إسبانية كانوا يعرِّبون قوانينهم لتسهُل قراءتها في الكنائس، وكتب بها جان سيفيل مَعارِض الكتب

---

(١) الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ٢٣٨.
(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ٤٠٩.
(٣) رحلة ابن جبير، ٣٠٧.
(٤) السابق، ٢٩٨.

المقدسة، ليفهمها الناس[1]. وكانت الجامعات الأوربية، كجامعة السوربون، تدرِّس بها العلوم والطب[2]، وكانت عندهم كالفرنسية والإنجليزية عند العرب اليوم. ومن آثار عموم العربية في أرجاء الأرض، واصطناعها لغة للعلم خارج بلاد العرب أن مسلمي الهند كانوا -قبل الاستعمار البريطاني- يدرِّسون الطب والعلوم بالعربية في كلية طب بكلكتة، كانوا يدعونها «الكلية الإسلامية المحمدية»، كانت تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية، وكان «كتاب أنيس المشرِّحين في علم الطب»، لروبرت هوبر، بترجمة جون تيلر، من الكتب التي تدرَّس فيها، ومنها استوردته مصر قبل أن تعود بعوث محمد علي من فرنسة[3]. وهذا يصدِّق قولةَ أبي مسلم الخراساني: كل قوم في إقبال دولتهم شجعان، وكل أمة في مبدأ سعادتها أفضل، وأنجد، وأشجع، وأمجد، وأسخى، وأجود، وأخطب، وأنطق، وأرأى، وأصدق[4].

ومن دأب الشعوب إذا غُلبت أن تحتقر نفسها، وتحتقر ما يميزها، وتنسب إليه ما حلَّ بها من هزيمة وهوان، وإذا عزَّت، وعظُمت عند نفوسها، نسبت إليه ما يعجبها من أمرها. فقد كان الألمان، منذ أحرق باراسيلْزوس- ثِيوفْراستُس بُومْباست الكتب اللاتينية (في ٢٤ حزيران ١٥٢٧)، ومنها ترجمات «القانون»، لابن سينا، في ميدان حافل ببال، وحوله جمهرة من الطلبة يهتفون، ثم راح هو وأنصاره يحاضرون ويؤلفون بالألمانية[5] -يقدسون الألمانية، ويُعجبَون بها، فلما هزمهم نابليون، أخذوا يحتقرونها، ويؤثرون عليها الفرنسية، حتى أصبحت شبهَ لغة أم ثانية في ألمانية، ولغةً ثانية للحوار والمجاملات. وكان الإعجاب بها في الولايات الألمانية الصغيرة أشد، وتعلقت بها الممالك الألمانية طوال القرن الثامن عشر تعلقا شديدا، وكتب بها بعض الأدباء أدبهم[6]، كما فُتِنوا بنابليون، حتى قال هيغل، لما رآه، إنه يمثل السلطة الروحية المطلقة[7].

(١) تقديم، اللسان العربي، ع ٣، ص ٤.
(٢) نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، ٢١.
(٣) أنيس المشرحين من المعاجم الرائدة في التقنية.
(٤) الإمتاع والمؤانسة، ١/ ٧٥.
(٥) تعريب العلوم – القضية، ٢٠٠.
(٦) الجمهورية العالمية للآداب، ٨١ وما بعدها.
(٧) رسالة إلى صديق حول مستقبل اللغة العربية.

وكان للفرنسية تأثير بالغ فيهم، في عهد لويس الرابع عشر، وأولعوا بها ولعا شديدا؛ فكانوا يقلدون الفرنسيين في لباسهم وطعامهم وكلامهم، وغَصَّ بعض النصوص الألمانية بالعبارات الفرنسية، حتى إن استعمال الإنجليزية الشائع اليوم يبدو تافهاً إذا ما ووزن باستعمال الفرنسية آن ذاك[1]. ومما يبين عن إجلالهم الفرنسيين أن الصحفي فردريخ سيبوروغ قال مرة غاضبا: هل من الممكن ألا يكون الإله فرنسيا؟![2]. وقال بيتر فون بولينز إن إشراك ألمانية في الثقافة الأوروبية الغربية الحديثة إنما كان بسبب تأثير الفرنسية البالغ في الألمان. وهيمنت الفرنسية على كثير من المجالات المهمة، وشاع استعمالها في البلاط والطبقة المترفة، والحديث، والرسائل، والعمارة، وتنظيم الحدائق، وبعض العلوم والفلسفة. وبلغ الدخيل من اللاتينية والفرنسية في الألمانية عام ١٨٠٠ خُمُسَ مفرداتها[3]. وفي عام ١٧٨٠ أصدر فردريك الثاني، ملك بروسية، دراسة قصيرة بالفرنسية، أظهر فيها هيمنة الفرنسية في آخر القرن الثامن عشر على مثقفي ألمانية. وكان -من اعتقاده فوق الفرنسية- يحتقر الألمانية، ويصفها بالفظاظة، ويقول إنها شبه همجية، ويتهمها بالإسهاب، وصعوبة التطويع، والافتقار إلى حسن الإيقاع، وإنها عكسُ اللغات الأنيقة (كالفرنسية). واقترح أن توسم بالسمات الإيطالية، أو اللاتينية. وقال إن فيها أفعالا مساعدة، وأفعالا مبنية للمعلوم ذات مقاطع أخيرة مزعجة، مثل: sagen ،geben ،nehmen، وإذا زيد في آخرها «a»، فصارت: sagena ،gebena ،nehmena، فلسوف يكون لها إيقاع جميل[4]. وهو شبيه بما يرى بعض العرب اليوم من زيادة اللواحق اليونانية واللاتينية في الكلمات العربية، لا لتكون أجمل وقعا في الآذان، وإنما لتؤدي من المعاني ما تؤدي في الفرنسية والإنجليزية، بدلا من الاشتقاق؛ لأنه -في نظرهم- يقصِّر عما يؤدي نظام التفئيم. كما كان يحتقر الأدب الألماني، ولا تعجبه روائع كلوبستوك، وليسنج، وفيلند، وهيردر، ولنز، ويقول: ليس في ألمانية ما تجدر تسميته أدبا، وكان -وهو في معسكره- يقرأ أدب راسين في

---

(١) هل الألمانية خليط لغوي؟.

(٢) السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ١٨٨.

(٣) هل الألمانية خليط لغوي؟.

(٤) الجمهورية العالمية للآداب، ٢٧ وما بعدها.

الصباح الباكر، ويستظهره واشتهر هو وأهل بيته بالولع بالفرنسية، واستعمالها بينهم في المراسلات. وظلت الفرنسية إلى آخر القرن الثامن عشر لغة الحديث في الأكاديمية البروسية التي أُسِّست عام ١٧٠٠[١]. وظن كثير من الألمان بعد هزيمة نابليون إياهم في معركة جينة عام ١٨٠٦ أنهم ينبغي أن يصطنعوا الفرنسية حتى يلحقوا بالعالم[٢]، كما يردد بعض العرب اليوم أنه يجب اصطناع الفرنسية والإنجليزية من أجل الانفتاح على العالم، والإفادة مما عنده من علم وتقنية. وكان بعض كبار كتابهم، كلايبنيز يكتب باللاتينية أو الفرنسية[٣]. وليس حتما أن تكون الألمانية كما قال فردريك، «ولكن عين السخط تبدي المساويا»، وكان قوله فيها وفي الفرنسية في زمان الفرنسية، وكل لغة في زمانها آنق، وأجمل، وأرقى، وأحسن وقعا، وأصلح للعلم، إلخ. وإنما تبدلت الحال لما تغيَّرت نظرة الألمان إلى أنفسهم، فاعتزُّوا بلغتهم، وتبدَّل ما كانوا يُكنُّون لها من احتقار حبا وإعجابا، وكان ذلك على يد هيردر، فقد أقام علاقة قوية بين اللغة والأمة؛ فارتبطت المطالب القومية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوربة كلها بالمطالب اللغوية، والثقافة الوطنية، وعُدَّت اللغة وسيلة تحرر الشعوب[٤].

وكان الإسبان -في إبان الحكم الإسلامي- يحتقرون لغتهم، ويجهلونها أشد الجهل، ويقبلون على العربية وتعلُّمها أشد الإقبال، كما يجهل العرب اليوم العربية، ويُعرضون عنها، ويقبلون على الفرنسية والإنجليزية. وكان ذلك يغيظ بعضهم، فيعاتبونهم فيه عتابا شديدا، كما قال ألْبَرُو القرطبي[٥]: إن إخواني في الدين يجدون لذة في قراءة شعر العرب وأخبارهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة من المسلمين، لا ليردوها وينقضوها، وإنما ليكتسبوا منها الأسلوب العربي الصحيح الجميل. إنك لا تجد واحدا من الإسبانيين، من غير رجال الدين، يقرأ الشروح اللاتينية على الأناجيل المقدسة،

(١) الجمهورية العالمية للآداب، ٢٦ وما بعدها، والسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، ١٨٦ وما بعدها، وهل الألمانية خليط لغوي؟ تأثير اللاتينية والإنجليزية والفرنسية على تطور اللغة الألمانية.

(٢) رسالة إلى صديق حول مستقبل اللغة العربية.

(٣) هل الألمانية خليط لغوي؟.

(٤) الجمهورية العالمية للآداب، ٨٩ و٩٢.

(٥) قسيس إسباني من أهل القرن التاسع.

أو يعكف على دراسة كتابات الحواريين، وآثار الأنبياء والرسل، يا حسرتا!! إن المبدعين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في لهفة، وينفقون أموالا طائلة في شراء كتبها، ويذيعون في كل مكان أن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب، فإن حدَّثتَهم عن كتب النصارى قالوا -بازدراء- إنها غير جديرة بأن يعتنى بها. يا ويلتا! لقد نسي النصارى كلَّ شيء، حتى لغتهم، فلا تكاد تجد في الألْف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحبه رسالة سالمة من الخطأ، ولكنك واجد كثيرا منهم يجيدون العربية، ويكتبونها بأسلوب منمق، وينظمون بالعربية ما يفوق شعر العرب، روعة وجمالا[1]. وقال آنخل جنثالث بالِنْثيا في مستعربي الإسبان: وقد تأثرت حياتهم الاجتماعية بالإسلام ونظمه تأثرا بعيدا، ومما يدل على ذلك تلك الحقيقة التي يعرفها الناس كلهم، وهي أنهم كانوا يؤثرون استعمال لغة العرب وأسمائهم وأزيائهم، ويجتهدون في أن ينتحلوا الهيئة الإسلامية في شؤون حياتهم كلها[2]. إلا أن ولع الأوربيين الأولين بالعربية يختلف عن غرام العرب الآخِرين بالفرنسية والإنجليزية اختلافا كبيرا: ولع الأوربيين بالعربية ولع بعلْم وأدب، تذوَّقوهما، فجدُّوا في تعلمهما؛ فأتقنوا العربية، وبرعوا في الكتابة بها، وليس فيه ما كان مدفوعا بتطلُّب نفع مادي، فلم يكن العرب يتعصبون للغتهم كما يتعصب الغربيون، ولا كان تعليمهم إياها بقصد الاستلاب والهيمنة والاستتباع كما يفعل الغربيون، ولا اتخذوها وسيلة لهندسة العقول، ونقل الثقافات، ولا كانوا يبوئون مَن حَذَقها من غيرهم منزلة، تكسبه المال والجاه، وإن قال بعض الباحثين إنه قد يكون من أسباب استعراب عجم الأندلس طموحهم إلى وظائف الدولة ورغبتهم في الوصول إلى دواوين الحكومة، فقد وصل كثير من هؤلاء إلى أعلى الرتب لدى الأمراء والخلفاء الأمويين، حتى كانت دواوين الحكومة تعطِّل يوم الأحد، لكثرة العاملين فيها منهم[3]. غير أن هؤلاء لم يكونوا بالكثرة التي تدل عليها هذه العبارة، وأن مجالات التوظيف بالعربية كانت قليلة، وتكاد

(١) الفكر الأندلسي، ٤٨٥.

(٢) السابق، ٤٨٥.

(٣) التأثير المتبادل بين الأمثال العربية والأمثال الإسبانية، ١

تقتصر على الكتابة، ولا تقاس بمجالات التوظيف الآن، في التعليم، والصحة، والشركات، والوزارات، والصحافة، وسائر وسائل الإعلام وشؤون الحياة. ولم ينفقوا على نشرها من الأموال ما تنفق الدول الغربية على نشر لغاتها، ولا كانوا يتاجرون بها، أو يستعينون بتعليمها على التجارة، ولا حملوا أحدا على تعلمها، لا بالدعاية، ولا بالإغراء، ولا بالإكراه، ولا كانوا يريدون من تعليمها، إن علَّموها، نفعا ماديا، أو معنويا، ولا زينوا لأحد أن يتخلى عن لغته، ولا حاربوا لغة من اللغات، ولا تنقَّصوها، ولا ادَّعوا أن لغتهم مقدسة، وإن أُعجبوا بها كما يعجب كل قوم بلغتهم، وبينوا ما يرون فيها من مزايا، أقرَّ بها غيرهم من أهل الشرق والغرب، وما زالوا يقرون بها، وإنما كان يتعلمها من يتعلمها إعجابا بها، أو اعتقادا أنها لسان دينه الذي يجب أن يتعلمه، وكتابه الذي يتعبد بتلاوته. وتُقرُّ بريطانية بأنها إنما تعلم الإنجليزية وتنشرها تكسُّبًا واصطناعا، كما قال مدير المجلس الثقافي البريطاني العام في تقرير له عامي ١٩٨٨/ ١٩٨٩: إن الذهب الأسود عند بريطانية ليس ذلك الذي تستخرجه من بحر الشمال، وإنما الإنجليزية، إن الإنجليزية تمتد في أعماق ثقافتنا، وتتأصل فيها، وهي أكثر لغة انتشارا في العالم اليوم، ولا سيما الاقتصاد، وتقنية المعلومات. إن التحدي -في نظرنا- يكمن في الانتفاع بهذا النفوذ أشدَّ ما يكون الانتفاع[١]. ويُقِرُّ المجلس بأن المكان الذي فيه المصالح الاقتصادية والسياسية والعسكرية البريطانية هو الذي يقرِّر سياسة تعليم الإنجليزية[٢]. ويقرُّ الفرنسيون والألمان بأن من أغراض نشر الفرنسية والألمانية استمالة الشعوب إلى البضاعة الفرنسية والألمانية.

وغرام العرب اليوم بالإنجليزية والفرنسية غرام نفعي، قلَّ أن يصحبه فقه بهما حقيقي، أو كبير إفادة منهما. هذا إلى أن فرنسة وبريطانية وإيطالية أوجبت لغاتها على من استعمرت من العرب، فتعلَّمَها من تعلمها رغَبًا ورهَبًا؛ فقد جعلتها لغات الإدارة، والتعليم، ورهنت بتعلمها المالَ، والجاهَ، والمنصب، وأخرجت منها العربية. وأُنفقت على نشر الإنجليزية والفرنسية الأموال الطائلة، حتى قال أحد الباحثين الغربيين إن ما أنفقت المنظمات الحكومية والأهلية على نشرها

---

(١) الهيمنة اللغوية، ٧٤.

(٢) السابق، ٤٣٥.

من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠ أكثر ما أُنفق في التاريخ على ترويج لغة من اللغات[١]. والإنجليزية -مثلا- لا يسعى في نشرها بلد واحد، وإنما بلدانٌ عدة (بريطانية، وأمريكة، ونيوزيلندة، وأوسترالية، وكندة)، من أقوى دول العالم وأغناها[٢]، وبعض هذه الدول كان يسيطر على أقطار كثيرة، كبريطانية، يوم كانت لا تغيب عن مستعمراتها الشمس، فكانت لغتها تمتد حيث يمتد سلطانها، ثم بقيت حيث تركتها[٣]. وكان انتشار الفرنسية والإنجليزية مصاحبا لتجارة الرقيق، والهيمنة الاستعمارية التسلطية التي لم تكن تحمل قيمة إنسانية، وإنما تريد لتستعبد البشر، وتستحوذ على أرزاقهم، وتجبرهم على شراء بضاعتها[٤]. ومردُّ الفرق بين نظرة الغربيين قديما إلى العربية، ونظرة العرب حديثا إلى اللغات الغربية إلى الفرق بين غاية الفتوح الإسلامية، وغايات الاستعمار الغربي، فقد كانت غاية الفتوح الإسلامية دعوة الناس إلى الإسلام، ولم تكن لها غاية وراء ذلك، فمن دخل في الإسلام غدا أخا مساويا، يعامَل بما يعامَل به سائر المسلمين، ويستوي هو والفاتحون في كل شيء. واللغات محترمة، وهي آية من آيات الله، نَصَبَها دليلا على قدرته: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)، فلا تُمْحَى، ولا يُنال منها، ولا تُحَلُّ العربية محلَّها عنوة، من أجل ذلك اجتورت هي وغيرها من اللغات في البلاد المفتوحة طوال التاريخ الإسلامي، فكان أهلها يتكلمون بها، ويتكلم بها معهم كثير من المسلمين[٥]. ولم يكن في السياسة الإسلامية أن يُقضى على واحدة منها أو تقصى، وإنما انتقل عنها مَنِ انتقل من أهلها طواعية، لتغير قيمتها الاقتصادية والاجتماعية. والاحتلال الغربي -إلى ذلك- احتلال مصحوب بالشعور بالفوق، واحتقار الغير، فهو مبني على الاستلاب المعنوي، يُتذرَّع به إلى الاستلاب المادي، وكل عمل يعمله الاستعمار قبل الاحتلال وبعده فهذه غايته، وليست له غاية وراءها، وإن بدا أنه بعيد منها، كبناء المدارس، والمستشفيات،

---

(١) الهيمنة اللغوية، ١٠

(٢) السابق، ٣٦.

(٣) السابق، ٢.

(٤) السابق، ٨.

(٥) انظر: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ٤٦ - ٤٩.

وتعليم اللغات، فإنما ذلك وسيلة إلى استعباد العقول، وتحقير الشعوب إلى أنفسها، وتحقير ما يمتُّ إليها وإلى تاريخها وحضارتها بسبب، والتبرؤ منه، وتعليقها بالمستعمر وحضارته، وحملها على أن ترى أنفسها بالعين التي يراها بها، وتراه بالعين التي يرى بها نفسه؛ فتدين له، وتخلي بينه وبين بلادها، يصيب منها ما شاء، فإن رحل بقوَّته المادية -لأن تلك التبعية أغنته عنها- بقي الإعجاب والتعلق، على وجه يجعل البلاد أسواقا لبضاعته، والشعوب حرفاء لمصانعه، والبلاد مصدرا لما يحتاج إليه من المواد، ويتوسل إلى ذلك بوسائل شتى، منها التعليم، وإقناع الشعوب بأن لغاتها منحطة ووضيعة، إذا قيست إلى لغته[1]، كما قال مارك توين عام ١٨٦٧: وقفتُ بجانب وزير الحرب، وقلت له: اجمع الهنود في صعيد واذبحهم جميعا، فإن لم تفعل، فعليك بالبديل الناجع، وهو الصابون والتعليم، فالصابون والتعليم أنجع من المذبحة، وأعظم فتكًا، وأبقى أثرا؛ فإن الهنود قد ينبتون بعد مجزرة أو شبهها، فإن علَّمتَهم وغسلتهم، قضيت عليهم لا محالة، عاجلا أو آجلا، فإن التعليم والصابون يمحوان هويتهم، ويدمران قواعد وجودهم. وقلْتُ له: «سيدي، اقصف كل هندي من هنود السهول بالصابون والتعليم، ودعه يموت»[2]. وهو موت معنوي؛ لأنه يَنْسَى بالغسل لغته وهويته، فيحتقر نفسه، وينتحل هوية الغاسل، ويعتز بمماثلته، والتبعية له، وينحلُّ فيه. وكان من صور ذلك الموتِ، لنجاحِ خطة مارك توين، أنْ فقدت شعوب هندية كثيرة أسماءها، وصارت لا تُعرَف، وتعرِّف نفسها إلا بالأسماء التي ألصق بها الغزاة الأوربيون[3].

وما أصاب العرب من الولع باللغات الأجنبية شبيه بما أصاب اليهود في فلسطين المحتلة، فقد صارت الإنجليزية والروسية في الأعوام الأخيرة تحديا جديا لأحادية اللغة في إسرائيل، بسبب تزايد العولمة، والاتصال الدولي، والعلاقة القوية والفريدة مع الغرب، ولا سيما أمريكة[4]، وكثرة المهاجرين من روسية، في العقد العاشر من القرن العشرين، وهي هجرة نفعية لا عقدية،

(١) النهضة اللغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني، ٤٧، وأمريكة والإبادات الثقافية، ١٧.
(٢) أمريكة والإبادات الثقافية، ١٥
(٣) السابق، ١٦.
(٤) اللغة العربية في إسرائيل، ٣٦.

وترتب على ذلك أنهم ظلوا يعتزون بثقافتهم الروسية، ويفخرون بها، وبلغتهم، ويستعملونها في المجالات العامة، كلما أمكنهم ذلك، ويكتبون بها لافتات حوانيتهم[1]. وكان إقبال اليهود على العبرية -قبل ذلك- مدفوعا بالصلة بين اللغة والهوية، كما أرادتها الحركة الصهيونية، فضغطت على المهاجرين اليهود ليتعلموها لغةً رئيسة، وحضتهم على الانتقال من لغاتهم إليها، وعدَّت المحافظة على اللغة الأم وغيرها من اللغات كراهية للهوية القومية الجديدة ومقاومة لها، وعائقا لنجاح العقيدة الصهيونية[2]. فلما قامت الدولة، وزال الخوف على الهوية، خمدت الحماسة للعبرية، وقلَّت العناية بها، ولا سيما جيل الأبناء، بعد أن صارت هي اللغة الأم التي ليس فيها معنى عقدي أو تاريخي، يدعو إلى التعصب لها، كما كان الآباء يتعصبون لها قبل إنشاء الدولة. وغدا اليهود ينظرون إليها بفتور، حتى قال أحد باحثيهم إنها صارت مكروهة، بعد ما عمَّ التشاؤم من مكانتها الثقافية، حتى صار بعضهم يخشى اندثارها، فهم يتهاونون في الحفاظ على نقائها، ويحبون التكثر من المفردات العامية المستمدة من اللغات الأجنبية. ولا تخلو لغة الصفوة من ذلك، إما لأنهم لا يجيدون العبرية، وإما لأنهم لا يعنون كثيرا بطريقة كلامهم. وقد بدأ هذا الفتور منذ العقد التاسع من القرن العشرين، بعد حرب لبنان الأولى، ومع بدايات ما «بعد الصهيونية» المترتبة على «ما بعد الحداثة». وما بعد الصهيونية تناهِض جمود العبرية، والالتزام الصارم بمصادرها القديمة. ومن آثار ذلك كتابة ألواح الشوارع بلغات أجنبية، ولا سيما الإنجليزية، وتغيير الشركات أسماءها بأسماء أجنبية، وافتتاح بعض الصحف مواقعَ بأسماء أجنبية، وازدياد استعمال اللغة الأجنبية، وكثرة الكتابات والدراسات التي تنتقد على العبرية جمودها، وتدعو إلى تجديدها، وظهور توجهات تنتقد على العبرية الفصحى اعتمادها على النقاء اللغوي، وتسخر منها[3]. ولا يخفى ما بين العرب واليهود من توافق في هذا، مع ما كان ينبغي أن يكون بينهم من تخالف، حتى ليخيل إلى الباحث أن ما

---

(١) اللغة العربية في إسرائيل.٣٦.

(٢) السابق، ٣٥ وما بعدها.

(٣) اللغة العبرية في الكيان الصهيوني، ٤٠٦ - ٤٠٨.

يشيع في إسرائيل من ذلك هو أصل ما يشيع في البلاد العربية اليوم، وأن ما قد رأينا من أقوال العرب وما سنرى ليس إلا انتحالا لما يقول اليهود في العبرية. وإذا لم يكن هذا الظن صحيحا، ولم يكن بعض العرب متأثرين بما تكتب هذه الطائفة من اليهود، فهو دليل على أن حال كثير من اللغات في العالم واحد، وأن ما أصاب العربَ هو ما أصاب غيرهم من الازورار عن الهوية والخصوصية، ومنها اللغة، والنزوع إلى الاندماج في العولمة ومسايرتها، والولع بالإنجليزية، والمسارعة في اصطناعها، وتجاوز اللغة القومية.

(٢)

غير أن كون ذلك سنة من سنن الاجتماع إنما يفسِّر الظاهرة، ولا يسوغها، ولا يعذر فيها؛ فإن للعربية عند العرب شأنا غير شأن اللغات، فهي لغة القرآن، ولسان الشرع، ووعاء التراث العربي الإسلامي، وآخر ما بقي من الأسباب بين العرب، زد على ذلك ما يجب أن يعتقد المسلمون في أنفسهم، من أنهم خير أمة أخرجت للناس، والأمة الوسط الشاهدة عليهم، وذلك يقتضي أن يكونوا أكرم على أنفسهم من التبعية لأمة من الأمم، ولا سيما الأمم التي تتخذهم عدوا حضاريا إستراتيجيا، وتنْصَب في كيدهم ما لا تنصب في كيد أمة، وهو كيد يتكشَّف لهم كل يوم من صنوفه ما يستوجب الجدَّ في صده، والحؤول بين الكائدين وما يريدون بهم، وعداوةٌ، غلبت أهلَها أن يكتموها، أو يخفوا بعضها. هذا إلى ما يعلمون من ضعف السياسة العربية الرسمية، وعدم مبالاتها العربيةَ، وأنها لا تراها بالعين التي يجب أن تُرَى بها، وتبعيتها في تلك السياسة لهوى من يعتقد العرب أنهم عدو لهم، وموافقتهم فيما يبيِّتون لها، وما يريدون من التمكين للغاتهم بدلا منها. فإن هذا جدير بأن يستثير من الحمية للعربية ما يدفع عنها ما يراد بها، وينزلها المنزلة التي ينفس عليها الأعداء، بدلا من الاشتغال بترداد الدعاوي المستنفدة الفارغة من كل معنى، المجردة من كل غاية وطنية وقومية، كترداد أنها غير صالحة للعلم، وأن اصطناعها فيه مدعاة إلى الحؤول دون مصادر المعرفة التي إنما أُلِّفت بلغات أجنبية؛ فخير من هذا أن ينصرف مردِّدوه -إن كانوا صادقين فيما يدعون من إرادة الخير للأوطان- إلى الضغط

على الحكومات للتحول عن سياستها غير الوطنية، وتبصير الشعوب بما يجب عليها من الاجتهاد في ذلك، والنصب فيه حتى يبلغوا منه ما يجب الحرص على بلوغه، فهو السبيل الأوحد إلى توطين العلم، وتجاوز العقد النفسية والثقافة التي صنعتها دعاية الاستعمار، والأقلام التي يعوزها العلم، كما تعوزها الوطنية، والعزة الحضارية.

والخلاصة أن هزيمة الشعوب تورث ضربا من احتقار النفس؛ وتعظيم الغالب، واعتقاد أن كماله هو سبب غلَبِه وهزيمتِها[1]. ويترتب على ذلك أن يضع المغلوب الغالب فوق منزلته، ويرى أن فيه من المزايا ما ليس فيه، وينزل نفسه دون منزلتها، ثم يتَلَمَّس لفعل الغالب من المعاني ما لا يَحتمِل، ويلصق بنفسه من المثالب ما ليس فيها. وهي نظرات غير نزيهة، وتقويم يتم في أحوال نفسية غير معتادة. وآية ذلك أن اللغات التي احتقرها أهلها، وكانوا يتنقَّصونها، كان لها بعد ذلك شأن، كالإنجليزية، والإيطالية، والفرنسية، والإسبانية، والألمانية، واللغات التي كانت تعظَّم، وتنزل فوق منزلتها اطُّرِحت بعد ذلك، ومات بعضها، كاليونانية، واللاتينية. وفي هذا السياق ينبغي أن يوضع ما نرى من تنقُّص العربية، والثناء على الإنجليزية والفرنسية، فإنه أمر عارض، وإذا صلح حال العرب، رأوا لغتهم بعين غير التي يرونها بها، وأحلوها المنزلة التي كانت تحلها عند سلفهم، والعبرة بالمآلات، لا بالعوارض؛ فإنها زائلة، إذا زالت أسبابها. فمملكة تشنج الصينية لما انهارت عام ١٩١٠، ووقعت الحرب الأهلية بين الصينيين، فرض الزعماء المتنافسون الأفكار الغربية على الصينيين، ومع نهاية العقد الخامس كانت المستجلبات من الاتحاد السوفييتي تفوق ما يستجلب من الغرب، وغدت الصين تُعرَف بأنها مجتمع اشتراكي. وكان كل شيء في اليابان قبل الحرب الأوربية الثانية، من دين، وثقافة، مسخرا للحرب، فلما هُزِمت، أُلْقيَ كل شيء جانبا، وغدا غيرَ ذي قيمة، وصار كل ذي صلة بالغرب، ولا سيما أمريكة، حَسَنًا، ومرغوبا فيه، وتشبهت اليابان بأمريكة كما تشبهت الصين بالاتحاد السوفييتي[2]. فلما تجاوزتا ذلك الطور، ونجح اقتصادهما، نسب الصينيون واليابانيون كل

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، ١/ ٢٤٢.

(٢) صدام الحضارات، ٢٠٧ وما بعدها.

تقدُّم وتميُّز لهما إلى ثقافتهم وديانتهم، وكذلك فعل غيرهم من الشعوب الآسوية، وأظهروا ازورارا عن الغرب وثقافته، والتحررَ من مثُله، وظهر فيهم تحدٍ للغرب، وحرصٌ على منادَّته، وإصرار على الاستقلال عنه[1]. ولما بلغت فرنسة أوج تأثيرها في أوربة، وعظم رضاها عن نفسها، أخذت تتأمل خصائصها الثقافية، وتبحث عن فضائل خاصة بها، يمكن أن تردَّ إليها ذلك. وهو أمر تفعله الأمم كلها، إذا آنست من نفسها فوقا ظاهرا[2]. ولسوف تتغير حال العرب، ونظرتهم إلى أنفسهم ولغتهم وحضارتهم إذا تغيرت حالهم كما تغيرت نظرة الصينيين واليابانيين وسائر الآسويين إلى أنفسهم، وينظرون إليها بالعين التي كانوا يرونها بها قبل أن يوحي إليهم الاستعمار من احتقارها ما أوحى.

وينبغي أن يُعلم أن ما يُرى اليوم من مبالغة في تنقُّص العربية وغيرها من عناصر الهوية، والإرجاف بأنها ماتت، ولا أمل في تداركها، أو إنعاشها، أمر مقصود، غايته أن يكون العرب كاليابانيين، في تعلق الغرب، واحتقار النفس، والثقافة، والاستسلام، وموت روح المقاومة، والثأرِ، والانتصاف. ووسيلة ذلك هي طمس الهوية، وتجاوز الثقافة، بأن يعاد تأويل الإسلام، ويحرَّف ما أمكن تحريفه من القرآن، ويحرَّم تعليم ما لا يستطاع تحريفه؛ حتى لا يكون له تأثير في حياة العرب وثقافتهم، وتستبدل بالعربية لغة أجنبية، على الوجه الذي رسم مشروع الشرق الأوسط الكبير، وتُحقَّر النفس والثقافة العربيتان إلى العرب. ويُرى بعض ذلك فيما ينسب إليهم من إرهاب، وغلو، ومعاداة للتقدم، والحداثة، ونسبتهم إلى الأصولية، والانغلاق. مع أن الذي يتولى كبر تلك الدعاية يستيقن في نفسه أنه غير صادق ولا نزيه فيما يقول، وإنما هي حرب نفسية، يراد بها كسر شوكة العرب، وحملهم على الاستسلام، ليطمئن عدوهم إلى انقيادهم له، ويأمن ثأرهم منه، كما استسلمت اليابان لأمريكة بعد هزيمتها، وأَمِنتَ ثأرها، وكسرت شوكة الهنود الحمر، وطمست هويتهم، ومحت ثقافتهم، واستتبعتهم، وجعلتهم يأنفون من ماضيهم، ويجتهدون في نسيان تاريخهم، وأقصى ما يرجون أن يندمجوا فيها؛ فقد قال صموئيل هنتنغتون إن

(١) صدام الحضارات، ٢١٠- ١٢٢.

(٢) إمبراطورية الكلمة، ٥٦١.

الغرب يفهم أن الصحوة الإسلامية تنحو منحى الصينيين واليابانيين في التكيف مع الغرب، فهي تسعى لحلٍّ، ليس في العقيدة الغربية، وإنما في الإسلام، وتَقَبُّلُ الحداثة، ولكنها ترفض التغريب، وهي حركة فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية عريضة، تعمُّ العالم الإسلامي، وليس ما يسميه الغرب الأصولية إلا عنصرا واحدا من إحياءٍ أكثر شمولا للأفكار والمزاولات والعلوم الإسلامية، والانبعاث هو التيار الرئيس، وليس بمتطرف، وهو منتشر وليس بمعزول[1]. وقال إن الغرب يعلم أن الإسلام والحداثة لا يتعارضان، وأن المسلمين المستقيمين يمكنهم استعمال العلوم بفعالية في المصانع، واستعمال الأسلحة المتقدمة، والتحديث لا يتطلب من أحد اتباع عقيدة سياسية بعينها، أو مجموعةِ من المؤسسات[2]. أي إن روح الحداثة ليس هو تطبيق الغرب للحداثة، ولا كل من خالف تطبيق الحداثة الغربية كان عدوا للحداثة. وانبعاث أديان الشعوب غير الغربية دليل على أنها تعارض الغرب، ولا ترفض الحداثة، وإنما ترفض الثقافة العلمانية، والنسبية المتفسخة التي ارتبطت بالغرب، وترفض التغريب، وتعلن استقلال ثقافتها عن الغرب، كأنما تقول له: إننا نريد أن نتقدم، ولكن لا نريد أن نكون إياك[3]. وضَرَبَ المثَلَ لذلك من بعض الشرقيين الذين درسوا في الغرب، فتأثروا به حينا من الدهر تأثرا شديدا، فلما رجعوا إلى بلادهم لم يصنعوا لها شيئا حتى انتموا إليها وإلى ثقافتها، وتخلوا عما كانوا يتقلدون من حداثة الغرب وعلمانيته، كمحمد علي جناح، وهاري لي كوان، وسولومون بندارانايكا، فهؤلاء خريجو جامعات غربية لامعون، ومحامون مهرة، درسوا في أكسفورد، وكامبردج، ولينكولن، على الترتيب. فلما رجعوا إلى بلادهم كانوا من النخب المتغربة، فكان محمد علي جناح علمانيا صلبا، وكان لي «أفضل من يحمل الدم الإنجليزي شرقي قناة السويس»، وكانت بندارانايكا نصرانية، ولكي يقودوا شعوبهم كان لزاما أن يعودوا إلى أصالتهم، وثقافتهم، فصار جناح مصلحا متحمسا للإسلام دينًا لباكستان، وأصلاً يبنى عليه استقلالها عن الهند،

---

(١) إمبراطورية الكلمة، ٢١٥.
(٢) السابق، ١٦٣.
(٣) صدام الحضارات، ٢٠١.

وتعلَّم لي المندرينية، وغدا خطيبا مفوها، يدعو للكنفوشيوسية، وصار اسمه لي كوان نيو، فكان أبا النهضة السنغافورية، وتقلدت بندرانايكا البوذية، ودعت إلى القومية السنهالية في سيرلنكة[1]. وما يُلْبِسه الإعلام الغربيُّ المسلمين وغيرَهم من الشعوب التي تريد الحداثة، ولكنها ترفض تطبيقها الغربي، تشويه متعمَّد، على طريقة الغرب في إعادة بناء العدو، ثم تسديد السهام إليه، وهو ما يَفعل بالعربية، ويردده العرب، ويعملون بمقتضاه.

إن مردَّ حال العربية اليوم إلى العرب، فهم أناس تغلب على مثقفيهم ثقافة العوام، وما بها من الزهد في الكمال، وقلة الوعي، وصغر الهمم، وضعف العزائم، وقلة الطموح، والرضا بالهون والدون، والرغبة عن كل ما يكلِّف جهدا، وعدم حمل النفس على خلاف ما تهوى، إلا أن يكون فيه نفع خاص، والغرام بالنفس ومنافعها وبلوغها من أقصر الطرق. هذا إلى عدم وجود سياسة لغوية جادة، كما يبدو من قلة التشريع اللغوي في الوطن العربي، وعدم العمل بالموجود منه، وتسخير وسائل الإعلام في هدم العربية والسخرية منها وتبغيضها إلى الناس، وهدم كل ما تعب في بنائه مدرسو اللغة، وتنفق الدول العربية على الإذاعات عشرات الملايين لهدم ما أنفقت في بنائه مئات الملايين، وينبغي مكافحة هذا الوباء في الصحافة والإذاعة، وسائر أجهزة الإعلام»[2]، وغلبة قلة الوعي على الحكومات، وقلة المنتمي منها إلى العروبة والإسلام انتماء يحمل مثله على غير ما تقتضي التبعية، والهيام باللغات الأجنبية، وفرْضِها على الناس، والمسارعة فيما يريد الاستعمار من إخراج العربية من الحياة. إن حال العربية اليوم، وما ينالها من صدود وإعراض أمر، لا بد أن يكون، فقد زُحزِحت عن العلم، والمال، والأعمال، وجُعلت لما يُرغَب عنه من شؤون الحياة؛ فكان لزاما أن يُعرِض عنها من لا يفيد منها، وألا يحرص عليها من لا يدعوه شيء في الحياة إلى معرفتها. وليس من غايات التعليم العربي التربية ولا التعليم، ولا صناعة المواطنين الصالحين، ولا بناء أوطان، تبقى، وإنما هو عمل صوري،

---

(١) صدام الحضارات، ١٨٧.

(٢) التصويب اللغوي في الخطاب الإعلامي، محمد بنشريفة، اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، ١٧٦.

ككثير من الأعمال التي تنال بها الحكومات الشرعية، بما توهم من أنها تعمل ما تعمل الحكومات الوطنية، ومنها ما يخاف عواقب التعليم، ويعدُّ المتعلمين خصوما له[1]؛ فهو يعارض التعريبَ ومجانية التعليم معارضة كاملة؛ لأن هذين ييسران التعليم، ويعينان على انتشاره، وعكسهما يَحُدُّ منه، ويجعله من الصعوبة بحيث لا يصبر عليه ويفيد منه إلا أقل الناس. وكانت غاية بعضها «أن يصنع بلادا كاملة على مزاجه، وحسب ثقافته وأفكاره»[2]؛ فكان يعارض التعريب، ويحمل الناس على الفرنسية حملا.

(١) ٢٣ مارس ١٩٦٥: عند ما جرى الدم أنهارا في الدار البيضاء.

(٢) بورقيبة: سيرة شبه محرمة، ٢٢٣.

المراجع

- آراء وأفكار (اللغة العربية والحروف اللاتينية)، عبد القادر حمزة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٨، ج ٩.
- آراء وأفكار، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، م ٣، ع ٦.
- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، ١٣٩١ هـ، د. م.
- أبحاث في العربية الفصحى، غانم قدوري الحمد، عمان، دار عمار، ١٤٢٦هـ.
- اتجاهات السياسة اللغوية، محمود فهمي حجازي، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٦ هـ.
- أتكلم جميع اللغات لكن بالعربية، عبد الفتاح كيليطو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء، دار توبقال، ط١، ٢٠١٣ م.
- أثر التعليم في المدارس والجامعات باللغة الأجنبية في اللغة العربية وهوية الطفل العربي: دراسة ميدانية في الجمهورية العربية السورية نموذجا، أحمد علي كنعان، ضمن بحوث مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة، ١٧ - ١٩ فبراير ٢٠٠٧ م.
- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دمشق، دار القلم، ط٤، ١٤٠٥ هـ.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، جدة، دار المنهاج، ط١، ١٤٣٢ هـ.
- أخطاء اللغويين، محمد كامل حسين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢٢.
- الأداء المسقاع في لغة المذياع، صالح بلعيد، الإذاعة الوطنية وترقية أداء اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ٢٠٠٩ م.
- أدباء ومواقف، رجاء النقاش، صيدا وبيروت، المكتبة العصرية، د. ت.

- الأدب الإنجليزي من البدايات في القرن السابع إلى ثمانينيات القرن العشرين، ج. ثورنلي وجنيث روبرتس، تعريب أحمد الشويخات، الرياض، دار المريخ، ١٤١٠ هـ.
- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد هيكل، القاهرة، دار المعارف، ط١٢، ١٩٩٧ م.
- الأدب العربي تجاه مشكلتي اللغة والحرف، إبراهيم مدكور، مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما لمنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١، منشورات أضواء.
- الأدب في خطر، تزفيطان طودروف، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، الدار البيضاء، دار توبقال، ط٢، ١٩٩٠ م.
- الأديب العربي في العالم الحديث، يوسف الخال، مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما المنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١، منشورات أضواء.
- ازدواجية اللغة والمزاوجة بين اللغات، محمد الديداوي، وقائع ندوة المساهمة المغربية في دراسة الترجمة،
معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، ٢٠٠٨ م.
- الازدواجية اللغوية الأمارة، محمود الذوادي، تونس، تبر الزمان، ٢٠١٣ هـ.
- الازدواجية اللغوية في الجزائر المستقلة: دراسة سوسيو لسانية، بوزيد ساس هادف، موقع اللسانيات اللغة التواصل والتفاعل والمجتمع،
http://brahmiblogspotcom.blogspot.com/201104//blog-post_9635.html
- أزمة التعليم في العالم العربي: الجزائر أنموذجا، ذهبية حمو الحاج، مجلة عالم التربية، ع٢٤، ٢٠١٥ م.
- أساسيات اللغة اليابانية وقواعدها، هارون السوالقة،
http://www.ogurano.net/jpar/showthread.php?t=28.
- الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦ م.

- الأسس النفسية والاجتماعية للغة العربية، الشاذلي الفيتوري، اللغة العربية والوعي القومي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦ م.
- أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، عباس محمود العقاد، القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٢ م.
- إشكالية تعريب التعليم العالي، محمود أحمد السيد، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨١، جمادى الآخرة ١٤١٨ هـ.
- اشهدي يا جزائر، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٢.
- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق محمد عمارة، بيروت والقاهرة، دار الشروق، ط١، ١٤١٤ هـ.
- أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة: مناهج ترقية اللغة تنظيرا ومصطلحا ومعجما، محمد رشاد الحمزاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨ م.
- أفق الحداثة وحداثة النمط: دراسة في حداثة مجلة «شعر» بيئة ومشروعا ونموذجا، سامي مهدي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨ م.
- الله أو الدمار، سعد جمعة، القاهرة، المختار الإسلامي، ط٣، ١٣٩٦ هـ.
- الأمازيغية المعيارية بين اختلاق لغة جديدة وصناعة الوهم الإيديولوجي، محمد الكوخي، مجلة تبيُّن، ع ٧، مج ٢، شتاء ٢٠١٤ م.
- الأمالي، أبو علي القالي، بيروت، دار الكتب العلمية (مصور عن طبعة بولاق)، ١٣٩٨ هـ.
- إمبراطوريات الكلمة: تاريخ اللغات في العالم، نيكولاس أوستلر، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١١ م.
- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت.
-امتحان الكفاية اللغوية، محمد عصفور، مجمع اللغة العربية الأردني،
https://www.majma.org.jo/res/seasons/324-32/.doc
- أمريكا والإبادات الثقافية، منير العكش، دار رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٩ م.

- أمريكا والإبادات الجماعية، منير العكش، رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٢م.
- انقراض اللغة العربية خلال القرن الحالي، علي القاسمي، موقع شبكة فولتير، http://www.voltairenet.org/article145997.html
- إنية وأصالة، مولود قاسم نايت بلقاسم، الجزائر، دار الأمة، ٢٠١٣ هـ.
- أنيس المشرحين من المعاجم الرائدة في التقنية، يوسف عز الدين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الأعداد ٩٦ - ٩٨ (المكتبة الشاملة).
- الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، بيروت، دار النفائس، ط٣، ١٣٩٩ هـ.
- بحوث ومقالات في اللغة، رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، والرياض، دار الرفاعي، ط١، ١٤٠٣ هـ.
- بذور الكلام: أصل اللغة وتطورها، جين أتشسن، ترجمة وفيق فائق كريشات، موقع الباحث العلمي،
http://k-tb.com/book/Arabi00859.
- برنارد شو، سلامة موسى، القاهرة، كلمات عربية للترجمة والنشر، د. ت.
- البعد السياسي لقضية اللغة العربية، عبد الله النفيسي، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٥ هـ.
- بعض الإشكاليات المتعلقة بلغتنا العربية، الشاذلي القليبي، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٣، رجب ١٤١٩ هـ.
- بورقيبة: سيرة شبه محرمة، الصافي سعيد، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، ط١، ٢٠٠٠ م.
- البورقيبية والهوية: صراع مشاريع، الحسين بن عيسى، تونس، مكتبة تونس، ط١، ٢٠١٥ م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٥، ١٤٠٥ هـ.

- بيجماليون، جورج برنارد شو، ترجمة حسام صادق التميمي، بيروت، دار مكتبة الهلال ودار البحار، ٢٠٠٨ م.
- تاريخ الآداب الأوربية من الأصول حتى نهاية القرون الوسطى، مجموعة من المؤلفين، ترجمة صياح الجهيم، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠١٣ م.
- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، نفوسة زكريا سعد، الإسكندرية، دار نشر الثقافة، ١٣٨٣ هـ.
- تأثير اللاتينية والإنجليزية والفرنسية على تطور اللغة الألمانية،
http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/spr/ar4980180.
- التأثير المتبادل بين الأمثال العربية والأمثال الإسبانية، محمد بن شريفة، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرية، ع ٩٥ (موقع المكتبة الشاملة).
- تأهيل معلمي اللغة العربية: الواقع والطموح، لطيفة النجار، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠٠٨ م.
- التبعية اللغوية أساس التخلف الشمولي، محمد الأوراغي، صحيفة العلم، السبت ١٤ شعبان ١٤١٩ هـ.
- التجارة بالتعليم في الوطن العربي: الإشكاليات والمخاطر والرؤية المستقبلية، محيا زيتون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠١٣ م.
- تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، محمد جابر الأنصاري، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٢ م.
- التحديات التي تواجهها اللغة العربية المعاصرة في تعلمها والتعليم بها في دول الخليج العربي: المملكة العربية السعودية أنموذجا، أحمد محمد المعتوق، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ط١، ٢٠٠٨ م.
- التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية بالمغرب، فؤاد بو علي، التخطيط والسياسة اللغوية: تجارب من الدول العربية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٧ هـ.

- التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية في فرنسة: دراسة حالة، محمد أحمد طجو، الإستراتيجيات الدولية في خدمة اللغات الوطنية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- تدريس المقررات التعليمية بغير العربية في مدارس التعليم العام، مجموعة كتاب، الرياض، مركز حمد الجاسر الثقافي، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- تدريس النحو في الجامعات العربية: رؤية مستقبلية، شيماء مصطفى العمري، مناهج تعليم اللغة العربية في الجامعات العربية الرائدة: الواقع وفرص التطور، تحرير عبد الرحمن الخميس، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٦ هـ.
- تركيا: إحياء اللغة العثمانية إرث ثقيل في ميزان السياسة، موقع الخليج أونلاين

http://alkhaleejonline.net/.

- التصويب اللغوي في الخطاب الإعلامي، محمد بن شريفة، اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١١ - ١٢ ذو القعدة ١٤٣١ هـ.
- التصويب اللغوي في وسائل الإعلام العربي، محمد بن شريفة، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٩٣ (موقع المكتبة الشاملة).
- التعدد اللغوي: انعكاساته على النسيج الاجتماعي، محمد الأوراغي، الرباط، كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، ط١، ٢٠٠٢ م.
- التعددية اللغوية في الجزائر: الطلبة الجامعيون أنموذجا: دراسة ميدانية بجامعة سعد دحلب بالبليدة، سحنون شاوش أمينة وبهلول سميرة، مذكرة مقدمة لنيل الليسانس بكلية الآداب بجامعة سعد دحلب بالبليدة، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م.
- تعريب العلوم: القضية، أحمد شفيق الخطيب، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٧٩، جمادى الآخرة ١٤١٧ هـ.
- التعريب في الجزائر: كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكفونية، عثمان سعدي، الجزائر، دار الأمة، ١٩٩٣ م.

- التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا، عبد الرحمن سلامة «ابن الدوايمة»، دمشق، وزراة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٦ م.
- التعريب في الجزائر: وجها الحصيلة، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، موقع محمد اسليم
http://aslimnet.free.fr/traductions/articles/bilan.htm.
- التعريب ووسائل تحقيقه، محمد الفاسي، مجلة الأصالة الجزائرية، ع ١٧، ١٩٧٤ م.
- تعليم الجهل في زمن العولمة والإصلاح التربوي في تونس، الهادي التيمومي، تونس، دار محمد علي للنشر، ٢٠١٦ م.
- التعليم في الوطن العربي: تقرير المرصد العربي للتربية عام ٢٠١٢ م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة، عبد الله الدنان، الشارقة، المنتدى الإسلامي، ط١، ١٤٣٥ هـ.
- تعليم اللغة العربية في إيران: دراسة نقدية في أهدافها ومناهجها، محمد نبي أحمدي وعلي سليمى، مجلة إضاءات نقدية، السنة ٢، العدد ٥، ٢٠١٢ م.
- التعليم وثنائية اللغة، ميجل سجوان ووليام ف. مكاي، ترجمة إبراهيم بن حمد القعيد ومحمد عاطف
مجاهد محمد، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤١٥ هـ.
- التعليمية وإشكالية التعريب في الجزائر، موقع محمد ربيع الغامدي.
- تقديم، مجلة اللسان العربي، ع ٣.
- تقييم تجربة التعليم العالي، نبيل حامد حسن بشير، صحيفة الراكوبة الإلكترونية
https://www.alrakoba.net/articles-action-show-id-.
- تكملة إصلاح ما تغلط به العامة، الجواليقي، حاتم صالح الضامن، دمشق، دار البشائر، ط١، ١٤٢٨ هـ.
- تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١٠، ٢٠٠٩ م.

- التنافذ الأدبي بين العربية والإنجليزية، يوسف عز الدين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٩٥، (موقع المكتبة الشاملة).
- الثالث والعشرون من مارس ١٩٦٥: عند ما جرى الدم أنهارا في الدار البيضاء، إسماعيل عزام، موقع هسبريس
https://www.hespress.com.
- ثقافتنا في ضوء التاريخ، عبد الله العروي، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٤، ١٩٩٧ م.
- الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة، نهاد الموسى، القاهرة، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٣ م.
- الثورات العربية أسهمت في توحيد لهجات لغة الضاد، شارلوته شميتس وغيدو تسبيشن، ترجمة سمير جريس، موقع قنطرة
http://ar.qantara.de/content/hmy-lqwmys-ltkhssy-wdwr-llm-wlthwrt-fy-twhyd-llg-lrby-lthwrt-lrby-shmt-fy-twhyd-lhjt-lg-ldd.
- جامعتنا المريضة، عبد السلام الككلي، في نقد المدرسة التونسية، تونس، مجمع الأطرش، ٢٠١٦ م.
- جدوى التخطيط اللغوي اليوم، عبد الفتاح الجحمري، مجلة التعريب، ع، شعبان ١٤٣٧ هـ.
- جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- الجمهورية العالمية للآداب، باسكال كازانوفا، ترجمة أمل الصبان، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٢ م.
- حرب اللغات والسياسات اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة حمزة حسن، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٨ م.
- حركة التعريب في العراق، أحمد مطلوب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٣ م.
- الحروف الأولى: دراسة في تاريخ الكتابة، خلف طايع، ٢٠٠٧ م.
- الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، مصطفى بكري، موقع بوابة داماس.

- الحروف اللاتينية بديلا عن العربية، مصطفى بكري، في التعريب والتغريب، محمود فوزي المناوي، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٤٢٦هـ.
- الحروف اللاتينية لكتابة العربية، عبد العزيز فهمي، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٤٤ م.
- الحروف اللاتينية لكتابة العربية، عبد الوهاب عزام، مجلة الرسالة، ع ٥٨٧.
- الحصيلة اللغوية، أحمد محمد المعتوق، الكويت، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، ١٩٩٦ م.
- حضارة العرب، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٩ م.
- حضارة العرب في الأندلس، ليفي بروفنسال، ترجمة ذوقان فرقوط، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ت.
- حوار اللغة، عبد القادر الفاسي الفهري، حافيظ الإسماعيلي العلوي، الرباط، منشورات زاوية، ط١، ٢٠٠٧ م.
- حول رد العامي إلى الأصل، محمد هيثم الخياط، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٩، شعبان ١٤٢١ هـ.
- حياتي، أحمد أمين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٦، ١٩٧٨ م.
- خبر هام: مؤتمر للمحافظين الجدد لإعادة تفسير القرآن وعلمنة الإسلام، ومؤتمر أمريكي يروج لتحريف القرآن الكريم و«علمنة» الإسلام، موقع مفكرة الإسلام.
- الخصائص، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧١ هـ.
- خمسون سنة من التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية: صراع هويات ينتهي إلى الأمية، طيبي غماري، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، ع ٧، ديسمبر ٢٠١٢ م.
- الدارجة في الإعلام والسينما، مصطفى الطالب، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.

- الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- الدارجة والعربية: صراع لغوي أم تكامل وظيفي، مصطفى الخلفي، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، علي الزيدي، صفاقس، منشورات دار الفارابي، ٢٠١٤ م.
- دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، دمشق، المكتب الإسلامي ومكتبة الفتح، ط٢، ١٣٨٠ هـ.
- دراسات لغوية، حسين نصار، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١ هـ.
- دعوى الصعوبة في تعلم العربية، عز الدين التنوخي، مجلة المجمع العلمي بدمشق، مج ٤١، ج ٣، ربيع الأول ١٣٨٦ هـ.
- الدعوة إلى الدارجة بالمغرب: الجُذور والامتدادات، الأهدافُ والمُسَوِّغاتُ، عبد العلي الودغيري، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- دور اللغة العربية في ارتقاء الوعي الديني في باكستان، محمد علي غوري، http://pu.edu.pk/images/journal/uoc/PDF-FILES/(1)%20M.Ali%20Ghori893-.pdf
- دور اللغة في تماسك شخصية الأمة، الحبيب المخ، دراسات في اللغة والحضارة، ملتقى ١٩٧٤، تونس، ١٩٧٥ م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
- ذم الخطأ في الشعر، ابن فارس، تحقيق رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٠ هـ.
- رأي في جنس العدد، محمد كامل حسين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ١٤.

- الرجل الصنم: كمال أتاتورك، ضابط تركي سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٨ هـ.
- رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، د. ت.
- رسالة ابن فضلان، أحمد بن فضلان، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٧٩ هـ.
- رسالة إلى صديق حول مستقبل اللغة العربية، حامد الحمود، صحيفة القبس، يوم ١٩/ ٤/ ٢٠١٢ م.
- رسالة مراتب العلوم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٣ م.
- رسالة المعلمين، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ط١، ١٣٩٩ هـ.
- الرسم الإملائي: الواقع وآفاق التطوير، صالح إبراهيم الحسن، بيروت، دار عالم الكتب، ط١، ١٤٣١ هـ.
- سؤال المنهج: في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، طه عبد الرحمن، جمع وتقديم رضوان مرحوم، بيروت، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط١، ٢٠١٥ م.
- السياسات اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة محمد يحياتن، الجزائر، منشورات الاختلاف، وبيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- السياسة اللغوية في البلاد العربية، عبد القادر الفاسي الفهري، دار الكتاب الجديد، ط١، ٢٠١٣ م.
- السياسة اللغوية والتخطيط: مسار ونماذج، عبد القادر الفاسي الفهري، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٥ هـ.
- شجاعة العربية: أبحاث ودروس في فقه اللغة، سالم علوي، الجزائر، دار الآفاق، د. ت.
- الشعر العربي ومشكلة التجديد، أدونيس (علي أحمد سعيد)، مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما لمنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١، منشورات أضواء.

- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٧ هـ.
- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، دار صادر، ط٩، ١٤٢١ هـ.
- شيء من المأزق الهوياتي، في مؤسسات التعليم الجامعي الخليجي: الهجرة نحو الإنجليزية، عبد الله البريدي، قضايا التعليم وتحدياته في دول مجلس التعاون الخليجي لدول الخليج العربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٥ م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، علق عليه أحمد حسن بسج، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.
- صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، صموئيل هنتنغتون، تعريب مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف، ليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٩ هـ.
- صراع الحضارات، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٢ م.
- صرخة مغربي، عبد الله لخلوفي، د. ت.
- طبقات الأمم، صاعد الأندلسي، بيروت، دار الطليعة، ١٤٠٦ هـ.
- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٤ م.
- طريق العودة، بهارتي موكرجي، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- عالمية الأبجدية العربية وتعريف باللغات التي كتبت بها، عبد الرزاق القوصي، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، الرياض، ط١/ ١٤٣٦ هـ.
- العامية الليبية من فصيحة تدرجت إلى دارجة تفصحت، علي فهمي خشيم، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٩، شعبان ١٤٢١ هـ.

- عبر منظار اللغة: لِمَ يبدو العالم مختلفا بلغات أخرى؟، غاي دويتشر، ترجمة حنان عبد المحسن مظفر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، ٢٠١٥ م.
- العدوان على العربية عدوان على الإسلام، عبد الرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي، ط١، ١٤١٧ هـ.
- العرب والانتحار اللغوي، عبد السلام المسدي، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ٢٠١١ م.
- العربية: الإستراتيجية والأمن، عبد القادر الفاسي الفهري، شبكة صوت العربية
http://www.voiceofarabic.net/index.php?option=com_content&view=article&id=437:363&catid=68:2008-50-10-07-06-16&Itemid=423.
-العربية تواجه التحديات، عبد الرحمن طالب، موقع المكتبة الإسلامية،
http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&ChapterId=4&BookId=2155&CatId=201&startno=0.
- العربية: دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك، ترجمة رمضان عبد التواب، مصر، مكتبة الخانجي، ١٤٠٠ هـ.
- العربية الفصيحة لغة التعليم في الوطن العربي، عبد العزيز البسام، اللغة العربية والوعي القومي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦ م.
- العربية لغة العلوم والتقنية، عبد الصبور شاهين، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٦ م.
- العربية ورهانها العولمي لسانيا، عبد الجليل مرتاض، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- العربية والوعي القومي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦م.
- عصر التشهير بالعرب والمسلمين: نحن والعالم بعد ١١ سبتمبر، جلال أمين، القاهرة، مكتبة الشروق، ط٢، ١٤٢٨ هـ.

- العلاقة بين اللغة والفكر: دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة، أحمد عبد الرحمن حماد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥ م.
- علاقة السياسة اللغوية بالتخطيط اللغوي: دراسة حالات من الوطن العربي، هدى الصيفي، رسالة ماجستير في كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر، عام ١٤٣٥ - ١٤٣٦ هـ.
- عناصر تحديث النص الشعري في مجلة شعر، منى علام، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، ١٤٢٦ - ١٤٢٧ هـ.
- عند ما تموت اللغات: انقراض لغات العالم وتآكل المعرفة الإنسانية، ك. ديفيد هريسون، ترجمة محمد مازن جلال، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٣٢ هـ.
- عن سياسات تعريب ما بعد الاستقلال، ثريا الخربوش، موقع أنفاس http://www.anfasse.org/.
- عنف اللغة، جان جاك لوسركل، ترجمة محمد بدوي، بيروت، الدار العربية للعلوم والمركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥ م.
- عن اللسان وفي البيان، مختار نويوات، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، د. ت.
- العولمة والعولمة المضادة، عبد السلام المسدي، ١٩٩٩ م.
- غرائب الغرب، محمد كرد علي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٣٣ هـ.
- الغريزة اللغوية: كيف يبدع العقل اللغة، ستيفن بنكر، ترجمة حمزة المزيني، الرياض، دار المريخ، ١٤٢٠ هـ.
- الفرنسية دون دموع، لوك سانت، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- الفرنكوفونية ومحنة اللغة العربية في المغرب، عبد الناصر المقري، مجلة البيان (عن موقع بلا فرنسية، http://www.blafrancia.com/nodc/171).
- الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، بيروت، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٤٠٢ هـ.

- الفصحى والعامية في وسائل الإعلام: انطباعات واقتراحات، أحمد صدقي الدجاني، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٩١ (موقع المكتبة الشاملة).
- فصول في فقه العربية، رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٦، ١٤٢٠ هـ.
- فطرة الدفاع عن اللغة الأم بين التفعيل والتعطيل: وقائع ونماذج، رشيد أحمد بلحبيب، ضمن بحوث مؤتمر اللغة العربية ومواكبة العصر، بالجامعة الإسلامية عام ١٤٣٣ هـ.
- فقه الترجمة: مرشد تدريبي في قواعد الترجمة وأصولها، وليد بليهش العمري وعبد الحميد عليوة، الرياض، جامعة الإمام، مركز الملك عبد الله للترجمة والتعريب، ١٤٣٣ هـ.
- فقه الفلسفة، طه عبد الرحمن، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٨م.
- الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالِنْثيا، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت.
- الفكر العربي ومركزه في التاريخ، دي لاسي أوليري، ترجمة إسماعيل البيطار، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢ م.
- فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٦ م.
- فلسفة اللغة العربية، عثمان أمين، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٦٥ م.
- الفلسفة وقضايا اللغة: قراءة في التصور التحليلي، بشير خليفي، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣١ هـ.
- الفلسفة واللغة، عبد الوهاب جعفر، الإسكندرية، دار الوفاء، ٢٠٠٣ م.
- الفهرست، ابن النديم، بيروت، دار المعرفة. د. ت.
- في الإرهاب اللغوي، أحمد جواد العتابي، موقع الحوار اليوم.
- في اللغة والفكر، عثمان أمين، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٦/ ١٩٦٧ م.
- في نحو اللغة وتراكيبها: منهج وتطبيق، خليل أحمد عمايرة، جدة، عالم المعرفة، ط١، ١٤٠٤ هـ.

- في نقد النحو العربي، صابر بكر أبو السعود، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨٨ م.
- القديم والحديث، محمد كرد علي، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٤٣ هـ.
- قصة الحضارة، ول وايريل ديرانت، ترجمة زكي نجيب محمود، بيروت وتونس، المنظمة العربية للتربية والعلوم، د. ت.
- قضايا تأصيلية حول انقراض اللغات وازدهارها، مجدي عبد الرزاق سليمان، انقراض اللغات وازدهارها: محاولة للفهم، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.
- قضايا لسانية وحضارية، منذر عياشي، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩١ م.
- قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، نهاد الموسى، عمان، دار الفكر، ١٩٨٧ م.
- قضية التعريب في الجزائر، عثمان سعدي، وزراه الثقافة والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ودار الكتاب العربي للطباعة والنشر، د. ت.
- قل ولا تقل، مصطفى جواد، دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠١ م.
- كتاب الاعتبار، أسامة بن منقذ، حرره فيليب حتي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت.
- كتاب التمرنة في الأصول النحوية، الخوري يوسف داود الموصلي، الموصل، دير الآباء الدومنيكيين، ١٨٧٥ م.
- كتاب الزينة، أبو حاتم الرازي، تحقيق سعيد الغانمي، بيروت، منشورات الجمل، ط١، ٢٠١٥ م.
- كلمات العالم: منظومة اللغات الكونية، أبرام دوسوان، ترجمة صديق محمد جوهر، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ط١، ١٤٣٢ هـ.
- كلمة في اللغة العربية، إسعاف النشاشيبي، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥ م.
- كما تكون أمتنا تكون لغتنا، ساسي جبيل، جريدة الاتحاد الإماراتية، الخميس ١٢ يونيو ٢٠١٤ م.

- لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه، شريف الشوباشي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤ م.
- لسان حضارة القرآن، محمد الأوراغي، الرباط، دار الأمان، وبيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣١ هـ.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٦ م.
- اللسانيات الاجتماعية، جولييت غارمادي، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٩٠ م.
- اللغات الهجينة والمولدة: دراسة لغوية اجتماعية، إبراهيم بن عبد العزيز أبو حيمد، مجلة الدراسات اللغوية، مج ١٥، ع ١، المحرم وربيع الأول ١٤٣٤ هـ.
- اللغة، جورج فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د. ت.
- لغة الإعلام بين الفصحى والعامية، محمد عبد المطلب البكاء، أعمال مؤتمر علم اللغة الأول بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، ١٧ - ١٨ ديسمبر ٢٠٠٢ م.
- اللغة بين القومية والعالمية، إبراهيم أنيس، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠ م.
- لغة التدريس في قسم اللغة العربية قسم الثانية بكالوريا بالمغرب نموذجا، عادل ضباغ،
https://www.univ-chlef.dz/djossour/wp-content/uploads/201606//v2016_01_03.pdf.
- لغة الجرائد، إبراهيم اليازجي، جمعه وقدم له نظير عبود، بيروت، دار مارون عبود، ط١، ١٩٨٤ م.
- اللغة الشاعرة، عباس محمود العقاد، صيدا وبيروت، منشورات المكتبة العصرية. د. ت.
- اللغة العبرية في الكيان الصهيوني: البدايات والواقع والتحديات، محمد أحمد صالح حسين، الإستراتيجيات الدولية في خدمة اللغات الوطنية، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ط١، ١٤٣٧ هـ.

- لغة العرب وكيف ننهض بها، محمد عطية الأبراشي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٣٦٦ هـ.
- اللغة العربية بين حماتها وخصومها، أنور الجندي، القاهرة، مطبعة الرسالة، د. ت.
- اللغة العربية بين مهددات الفناء ومقومات البقاء والجدل حول واقعها المعاصر، رشدي أحمد طعيمة، اللغة العربية والتعليم: رؤية مستقبلية للتطوير، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٨ م.
- اللغة العربية في إسرائيل: سياقات وتحديات، محمد أمارة، الناصرة، المركز العربي للحقوق والسياسات، ط١، ٢٠١٠ م.
- اللغة العربية في الخطاب التشريعي والإداري والإعلامي بالمغرب، أكاديمية المملكة المغربية، ١١ - ١٢ ذو القعدة ١٤٣١ هـ.
- اللغة العربية في العصر الحديث: قيم الثبوت وقوى التحول، نهاد الموسى، عمان، دار الشروق، ط١، ١٤٢٨ هـ.
- اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية، عبد العلي الودغيري، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ١٤٣٤ هـ.
- اللغة العربية لغة الإسلام، يحيى بن عبد الله المعلمي، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٨٨، المحرم ١٤٢١ هـ.
- اللغة العربية لغة القرآن ورسالة الإسلام، علي الشابي، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠ م.
- اللغة العربية وأسئلة العصر، وليد العناتي وعيسى برهومة، عمان، دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧ م.
- اللغة العربية والإعلام: الواقع والمأمول، أحمد بن محمد الضبيب، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ع ٩٣ (موقع المكتبة الشاملة).
- اللغة العربية ودورها في التشريع والقضاء، فهد أبو العثم، موقع مجمع اللغة العربية الأردني.
- اللغة العربية وسؤال الهوية، مصطفى شميعة وموسى الشامي، فاس، مطبعة آنفو برانت، ٢٠١٣ م.

- اللغة العربية والصحوة العلمية الحديثة، كارم السيد غنيم، القاهرة، مكتبة ابن سينا، ١٤١٠ هـ.
- لغة قريش، مختار الغوث، دمشق، دار البينة، ط٣، ١٤٣٢ هـ.
- اللغة كميدان للمجابهة الرسالية مع الحرب الناعمة (الغزو الثقافي)، بلال حسن التل،
http://maarefhekmiya.org/wp-content/uploads/.
- اللغة اللبنانية بالحرف اللاتيني بين رسائل الهاتف والعقل الإلكتروني وسعيد عقل، منصور بو داغر، موقع now.
- لغتنا العربية والسياسة، عبد الحي عبد الحق، د. ت.
- لغتنا العربية: الوظيفة والأداء على ضوء صراع النخب حول مطلب الحداثة ورفض التغريب، محمد العربي ولد خليفة، مجلة اللغة العربية، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- لغتنا والحياة، عائشة عبد الرحمن، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٩١ م.
- اللغة والاقتصاد، فلوريان كولماس، ترجمة أحمد عوض، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، ٢٠٠٠ م.
- اللغة وبناء الذات، موقع المكتبة الإسلامية،
http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=1&ChapterId=3&BookId=2191&CatId=201&startno=0
- اللغة والبيئة، عبد القادر الفاسي الفهري، الرباط، جريدة الزمن، ٢٠٠٣ م.
- اللغة وروابط الهيمنة عند ابن خلدون، محسن بوعزيزي، اللسان العربي وإشكالية التلقي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٧ م.
- اللغة والسلطان السياسي، حماني أقفلي، المدرسة المغربية، ع ٣، مارس ٢٠١١م.
- اللغة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، جلبير غرانغيوم، ترجمة محمد اسليم، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ٢٠١١ م.
- اللغة والعولمة لغة عالمية أم لغات متعددة؟، وليد أحمد العناتي. وقائع مؤتمر مستقبل اللغات في عصر العولمة، جامعة الملك خالد بن عبد العزيز، أبها السعودية ٢٠٠٦ م.

- اللغة والمحيط، إدوارد سابير، ترجمة مختار الأحمدي نويوات، ضمن كتاب «عن اللسان وفي البيان، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية، د. ت.
- اللغة والهوية، محمود السيد، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٨٥ ج ٣.
- اللغة والهوية، محمد نافع العشيري، الشارقة، دار الثقافة، ط١، ٢٠١٧ م.
- اللغة والهوية، موقع مجلة التسامح.
http://tasamoh.om/index.php/nums/view/.
- اللغة العربية والوعي القومي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦ م.
- اللغة اليابانية: بعض السمات والمشكلات، شهاب الدين السيد فارس، الرياض، نشرة بحثية محكمة، مركز البحوث، كلية اللغات والترجمة، جامعة الملك سعود، ١٤٢٥ هـ.
- لغتي اليدشية، ليونارد مايكلز، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- لكل عقل موهبة، مل لفين، تعريب سامر عبد المحسن الأيوبي، بيروت، دار الحوار الثقافي، ط١، ٢٠٠٤.
- لماذا تتغير اللغات، ر. ل. تراسك، ترجمة محمد مازن جلال، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٣٤ هـ.
- لن تتكلم لغتي، عبد الفتاح كيليطو، بيروت، دار الطليعة، ط٢، ٢٠١٢ هـ.
- ما الذي جعل اللغة الإنجليزية هي اللغة العالمية من دون غيرها من اللغات؟، موقع جامعة أم القرى http://uqu.edu.sa/page/ar/.
- ما هو طريق مارتن هيدغر إلى اللغة؟، هيثم سرحان، صحيفة الاتحاد، الجمعة ١٦ ذو الحجة ١٤٣٥ هـ.
- مؤامرة استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في عهد الحماية في تونس، محمد صالح عمر، المستقبل العربي، مج ١٠، ع ٩٩، ١٩٨٧ م.
- المؤامرة الغربية على اللغة العربية، أبو نصر محمد عبد الله الإمام، صنعاء، مكتبة الألباني، ط١، ١٤٣٠ هـ.
- مؤتمر الأدب العربي المعاصر (أعمال مؤتمر روما لمنعقد في تشرين الأول سنة ١٩٦١، منشورات أضواء.

- مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي، إفور إفانس، ترجمة زاخر غبريال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦ م.
- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران: نصوص خارج المجموعة، جمع وتقديم أنطوان القوال، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٤ هـ.
- محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوربية، ديفيد جستس، ترجمة حمزة المزيني، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٢٥ هـ.
- محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، لويس ماسنيون، تحقيق زينب محمود الخضيري، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية. د.ت.
- محاضرة في أهمية اللغة وتدريسها وأهدافها ودورها في بث العلوم والمعارف وتسهيل الاتصالات، فريد الدين آيدن، موقع المكتبة الشاملة.
- محاولة في أصل اللغات، جان جاك روسو، ترجمة محمد محجوب، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة وتونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م.
- محمد الطلابي يكتب عن التعريب بين الوعي المُفَوَّت والوعي المطابق، صحيفة التجديد، ٤/ ١١/ ٢٠١٠.
- المدخل إلى تقويم اللسان، ابن هشام اللخمي، تحقيق صالح حاتم الضامن، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٢٤ هـ.
- مدرسة القياس في اللغة، أحمد أمين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٧.
- المذكرات، محمد كرد علي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م.
- مستقبل تعليم اللغة العربية في تركيا من خلال ماضيها وحاضرها، إبراهيم شعبان،
http://www.alarabiahconference.org/uploads/conference_research-1212081318585-1409060877-.pdf
- مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٩٦ م.
- مستقبل اللغة العربية، أحمد محمد الضبيب، الرياض، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٥ هـ.

- مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار النعمان، ٢٠١٤ م.
- مستقبل المغرب واللغة الفرنسية، أدراعي محمد، موقع هسبريس.
http://www.hespress.com/writers/ .
- مستويات لغوية وطبقات اجتماعية، محمد الأوراغي، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- مشكلات التعريب، محمود عبد المولى، تونس، الشركة الجديدة للطباعة والصحافة والنشر، ط١، ٢٠١٠ م.
- مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ط٤، ١٤٠٤ هـ.
- المصطلح التراثي العربي بين الإهمال والإعمال، علي القاسمي، موقع الجمعية الدولية لمترجمي العربية،
http://www.atida.org/index.php?option=com_content&view=article&id=202:2013-53-20-09-30-03&catid=30:-2009&Itemid=6.
- مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار الأمة، ط١، ٢٠٠٥ م.
- المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية، نصر الهوريني، تحقيق طه عبد المقصود، القاهرة، مكتبة السنة، ط١، ١٤٢٦ هـ.
- مظاهر التعريب في جامعة الكويت: آراء عينة من أعضاء الهيئة التدريسية، علي أسعد وطفة، مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٣٩، يناير ٢٠١٣ م.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣ م.
- مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، دنيس كوش، ترجمة منير السعيداني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠٠٧ م.
- مقاربات في المسألة اللغوية بالمغرب، فؤاد بو علي، الرباط، وزارة الثقافة، ط١، ٢٠١٥ م.

- مقترحات لتيسير تدريس اللغة العربية من خلال دراسة ميدانية، مليكة ناعيم، أعمال اليوم الدراسي: اللغة العربية: أدوات التحليل وأسئلة التدريس، مختبر مناهج البحث في اللغة العربية واللغات، كلية اللغة العربية بمراكش، ٢٠١٦م.
- مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ط٦، ١٤٠٦ هـ.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٥م.
- مكانة اللغة العربية بين زكي الأرسوزي وعثمان أمين، فريدة فرحات، رسالة ماجستير بجامعة منتوري بقسنطينة، ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩ م.
- المناقشات والتعقيبات، تعقيب موسى الشامي، الدارجة والسياسة اللغوية في المغرب، الرباط، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، ط١، ٢٠١٢ م.
- من أجل تفاعل لغوي، علال الفاسي، مؤسسة علال الفاسي، ط١، د. ت.
- منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة: دراسة تقابلية، عبد المجيد الطيب عمر، مكة، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، ط٢، ١٤٣٧ هـ.
- من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٧١ م.
- من ديوان السياسة، عبد الله العروي، بيروت والدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، د، ت.
- الموافقات، الشاطبي، بيروت، دار المعرفة، ط٣، ١٤١٧ هـ.
- مولود قاسم نايت بلقاسم: حياته وآثاره، شهادات ومواقف، أحمد بن نعمان، الجزائر، دار النعمان، ٢٠١٦ م.
- نحو تقويم جديد للكتابة العربية، طالب عبد الرحمن، الدوحة (كتاب الأمة)، المحرم ١٤٢٠ هـ.
- النحو المعقول، محمد كامل حسين، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢٧.
- نشأة اللغات وحاجة الأمة للمجمع اللغوي، محمود أحمد عمر النشوي، ط١، د. م.

- نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها، أنستاس الكرملي، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت.
- نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة: تطبيقها وتقويمها وانتشارها، عبد الله الدنان، دمشق، دار البشائر، ط١، ١٤٣١ هـ.
- نعم ولا، أيمي تان، عبقرية اللغة، تحرير وتقديم ويندي ليسير، ترجمة حمد الشمري، السعودية، أثر، ط١، ١٤٤٠ هـ.
- نفي أوهام الأوربيين في صعوبة تعلم اللغة العربية، يوحنا أهتنين كرسكو الفينلندي، ترجمة الأرشيمندريت توما ديبو المعلوف، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ١١، مج ٤، ربيع الآخر، ١٣٤٣ هـ.
- النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين، هشام شرابي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠ م.
- النقد اللغوي بين التحرر والجمود، نعمة رحيم العزاوي، بغداد، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، ١٩٨٤ م.
- نقد وإصلاح، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٦٧ م.
- النهضة اللغوية وخطاب التلهيج الفرنكفوني: في نقد الاستعمار اللغوي الجديد (حالة المغرب)، سلمان بو نعمان، بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، ١٤٣٥ هـ.
- هل الألمانية خليط لغوي؟ تأثير اللاتينية والإنجليزية والفرنسية على تطور اللغة الألمانية،
http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/spr/ar.
- هل تقتل مواقع الاتصال الاجتماعي اللغة العربية؟ فؤاد بو علي، موقع الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية بالمغرب.
- الهمس الصاخب: ابن عميد الأدب العربي وحفيدة أمير الشعراء لا يعرفان العربية، نور الدين صمود، الشروق، ١٥/ ١١/ ٢٠٠٩ م.
- الهوية العربية والأمن اللغوي: دراسة وتوثيق، عبد السلام المسدي، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠١٤ م.
- هوية فرنسا، فرنان برودل، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، المركز القومي

للترجمة، ط٢، ٢٠١١ م.
- الهيمنة اللغوية، روبرت فليبسون، ترجمة سعد بن هادي الحشاش، الرياض، جامعة الملك سعود، ١٤٢٨ هـ.
- واقع تعليم اللغة العربية وآدابها في الجامعات الإيرانية، محمد جواد إسماعيل غانمي وآخرين، المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية بدبي، من ٢٧- ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ.
- واقع اللغة العربية بين التفكير والتعبير وأثره في الهوية، مها حسن يوسف القصراوي، بحوث المؤتمر الدولي الأول للغة العربية ببيروت، ٢٦ - ٣ - ربيع الآخر، ١٤٣٣ هـ.
- واقع اللغة العربية في الجامعات الإيرانية، فرزانه رحمانيان، المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية بدبي، من ٢٧- ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ.
- وحي الرسالة، أحمد حسن الزيات، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٣٨١ هـ.
- وسائل الإعلام بين العامية والعجمة، يوسف عز الدين، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ١٠٢ (موقع المكتبة الشاملة).
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، بيروت، دار القلم، ١٣٨٦ هـ.
- يسألونك، عباس محمود العقاد، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨ م.
- يسألونك، عباس محمود العقاد، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨ م.

المراجع الإنجليزية

- English Is A Crazy Language
- Simplified Spelling Board، WikipediA

سلسلة الحرب الباردة على الكينونة العربية

التجني على الهوية

درس الكتاب ما أُلصق بالعربية من تهم، كالصعوبة، والشيخوخة، وعدم الصلاحية للعلم، وأبان أن ما نُسب إليها من ذلك كان بعضه في معرض التبغيض، وتسويغ الدعوة إلى التبدل بها. وبيَّن أن ليس في اللغة الإنسانية لغة صعبة بإطلاق، وأخرى سهلة بإطلاق، وأن في كل لغة ما يصعب وما يسهل، وأن صعوبة اللغة -إن فرضت صحتها- لا تسوغ التبدل بها، وإنما يجب عدُّها قدَرا، ليس للشعوب إلا التكيف معه. وليس في اللغات ما يصلح للعلم وما لا يصلح له بالطبع، وكل لغة عظيمة كانت يوما لهجة فقيرة، محدودة الانتشار، ثم صارت إلى ما صارت إليه بسلطان أهلها، وجدهم في ترقيتها. ولا معنى لشيخوخة اللغة ما دامت تؤدي ما يريد أهلها، واتصال حياة العربية وقدمُها فضيلة من فضائلها؛ لأنها ربطت حاضر العرب بماضيهم ومستقبلهم، وأتاحت لهم أن ينتفعوا بأقدم تراثهم كما ينتفعون بأحدثه، وعدم اتصال غيرها جعل تراث أهلها المكتوب قبل قرون يسيرة تراثا أجنبيا، لا تفيد منه إلا كما تفيد من تراث اللغات الأجنبية بالترجمة.

مختار الغوث

أ.د. بجامعة طيبة في المدينة المنورة

له من الكتب والبحوث: "لغة قريش"، و " الشعر القرشي في القرون الثلاثة الأولى"، والسموأل: أخباره والشعر المنسوب إليه"، و "النقد الأدبي في رسالة الغفران"، و "معلقة عمرو بن كلثوم: دراسة وتحليل"، و "دراسة في معلقة عنترة بن شداد"، و "اللهجات العربية الغربية القديمة لكايم رابين"، و"الوجيز في العروض والقافية"، و "مناهج البحث في اللغة والأدب" (بالاشتراك)، و " الحقيقة والخيال في الغزل العذري والغزل الصريح"، و "هل كان للجاهلية نقد أدبي؟"، " والنحل في شعر امرئ القيس"، و" شعر قريش في الجاهلية"، و " على الأطلال: دراسة في البناء واللغة"، و"النقد الأدبي في صدر الإسلام والعصر الأموي: دراسة نقدية للأخبار والمأثورات"، و "عبيد الشعر كل كانوا عبيدا؟، و "ابن قتيبة ومنتقدوه"، و "الحركة الإسلامية في تركيا"، و"العقل أولا" و "بناء الفكر" و "قضايا النقد العربي القديم".

وله مقالات كثيرة وبحوث في الأدب والنقد واللغة والفكر والسياسة، منشورة في صحف ومجلات إلكترونية شتى.

صوفيا

+965 5222 4643

@sophia_kwt

info.sophiakw@gmail.com

ISBN 978-9921-721-40-9